

الوحدة الوطنية في مصر عبر التاريخ

تقديم

المهندس بشير مرعي
الأمين الأول للجنة المركزية

مهندس عبد الواحد الشاعر
دراسات عليا في العلوم الاجتماعية

مؤلف
التاريخ



التاريخ

الوحدة الوطنية في مصر عبر التاريخ

تقديم

المهندس بنيد مرعي
الأمين الأول للجنة المركزية

تأليف

حسين عبد الواهر الشاعر
دراسات عليا في العلوم الاجتماعية

الدكتور عبد العزيز فاعى
مكتوراه في التاريخ

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق شروت - القاهرة

تقديم

السيد المهندس سيد مرعي
الأمين الأول للجنة المركزية

يقصد بالوحدة الوطنية ، تجمع كل المواطنين تحت راية واحدة ، من أجل تحقيق هدف سام يعلو فوق أى خلاف أو تحزب ، في ظل ولاء أسمي ، يدين به كل فرد من أفراد المجتمع ، بحكم انتمائه للوطن ، انتماء يوجب أى انتماء طائفي أو مذهبي أو إقليمي ضيق .

ومن الملاحظ البارزة في تاريخ مصر المجيد ، أنها دولة قامت — عبر القرون الوسطى — على أساس وحدة وطنية راسخة تعمقت في وجدان الشعب كله ، فاستطاعت أن تحافظ على الوجود المصري قوياً لا يتزعزع ، ثابتاً لا يتغير أو يتبدل ، وكانت مصر — بذلك — أول مجتمع إنساني منظم يكتمل وعيه بضرورة التجمع والارتباط بعروة وثقى ، تستطيع أن تفجر الطاقات الخلاقة في الشعب ، وتقضي على عوامل الفرقة والتناحر .

ومن صفاتنا التي لا ينكرها علينا الأعداء ، أننا مجتمع يقوم على التسامح وعدم التحصب ، والقدرة على التعايش معاً ، دون أى اعتبار لاختلاف مذهبي أو عقائدي ، ومن هنا كان استمرار الوجود المصري ، بصرف النظر عن تعاقب الأديان والمذاهب التي تدين بها الأغلبية ، ولو لم يكن مجتمعنا قائماً على السهاحة والبعد عن الحقد والكراهية لتناحروا وأصبح فرقة شتى .

وكذلك فإن المجتمع المصري كان في طبيعة المجتمعات التي استطاعت أن تتخلص من الاتهام القبلي ، وتمكنت من صهر جميع العناصر في بوتقة كبيرة واحدة ، يكون نتاجها متميزاً بصلابة الجوهر أكثر من نقاء العنصر ، فليس منا — إذن — من دعا إلى عصبية .

وإذا كان التاريخ خير معلم ، فإن من أهم الدروس التي نتلقاها عنه ، أن الوحدة الوطنية ، إذا كانت ضرورية في كل وقت لحماية تقدم المجتمع وتماسكه ، فإنها تصبح فريضة مقدسة في وقت المحن والشدائد لحماية المجتمع وبقائه ، ورد العدوان

عنه ، ونحن نعى هذا الدرس إذا استعرضنا تاريخنا القديم والوسيط والحديث على السواء ، ولعل أقرب الأحداث إلى أذهاننا هي ثورة ١٩١٩ ، حين قامت جموع الشعب الواعية كلها ضد محتل كانت إحدى مزاعمه أنه يتشبك بتراب مصر لحماية « الأقليات » من طغيان الأغلبية ، فكان رد أبناء مصر دلي هذه الدعوى الباطلة ، أن اعتمدوا بحبل الله جميعاً ولم يفرقوا ، ووقفوا في وجه المستعمر صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، وعزيمة واحدة لا تقهر ، وكذلك فقد كانت الوحدة الوطنية من ملاح ثورتنا المجيدة في ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ حين رفعت شعار « الدين لله والوطن للجميع » .

ولعل الظروف التي نعيشها هذه الأيام ، بين المؤامرات التي تحاك ضدنا في الخارج ، والتحديات التي تواجهنا في الداخل لإقامة مجتمع عصري قادر على الأخذ بأسباب العلم الحديث دون التخلي عن روحه المتميزة ورصيده الحضارى الكبير، تجعل الوحدة الوطنية ضرورة حتمية هي والجهاد سواء ، وقد كان هذا هو المعنى الكبير وراء قول قائدنا الرئيس « محمد أنور السادات » إنه بالوحدة الوطنية الآن وأكثر من أى وقت مضى — تصبح الجبهة الداخلية هي دعامة التحرير الرئيسية ، لأن الوطنية المصرية سوف تكون هي أداة التحرير الرئيسية .

ويسرنى هنا أن أقدم للقراء كتاباً عاج هذا الموضوع الهام علاجاً وافيّاً سد نقصاً في مكتبتنا ، وأتاح لأجيالنا الجديدة التي لم تعاصر التجارب الماضية أن تتعرف على صفحات ناصعة في تاريخها الوطنى الحافل ، وأن تأخذ العبرة من أسلافها الأولين ، كما تستمد إلهامها من رؤى الحالمين لمصر بمستقبل مشرق سعيدة

سبتمبر مصرى

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

الوطن والقومية من النزعات الإجتماعية وكل منهما مثل سائر النزعات يولد بعض العواطف ويؤدي إلى بعض الإنفعالات بما يغير من السلوك الإنساني . والإنسان يحب أمته تحت تأثير النزعة القومية ، ويشعر نحوها بارتباط شديد ، ويعتبر نفسه جزءاً منها فيفرح لكل ما يمجدها ، ويتألم لكل ما ينال منها ، فقراءه يصبو إلى رقيتها قوية ويفخر بأجداها ، ويحب الإنسان وطنه تحت تأثير النزعة الوطنية فيشعر نحوه بتعلق فعلي عميق فيفرح لسعادته ويتوجع عند نكبته .

وإذا بحثنا عن نشأة هاتين النزعتين نستطيع أن نرجعهما إلى حب المواطن والأهل ، فتنبع الوطنية وبذرتها الأولى حب الوطن وأما منبع القومية وبذرتها الأولى حب الأهل .

إن حب الوطن يشبه حب المواطن وحب الأمة يماثل حب الأهل وبهذا نستطيع القول بأن حب الوطن إنما يتولد من توسع دائرة حب المواطن كما أن حب الأمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فالإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن كما ينظر إلى أهله كنوع من المواطنين ويحب وطنه ومواطنيه . وتنشأ الروابط الوطنية من طول الإلتواء إلى الوطن من عوامل عاطفية قوامها عاطفة ليلح : عوامل تنكريمية ومنغرية ، لامادية أو حسنية . أما القومية فتنشأ من العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وهي كثيرة منها وحدة الاعتقاد ووحدة الأصل والإشتراك في اللغة والتاريخ والتماثل في ذكريات الماضي وغير ذلك .

وبهذا تكون الوطنية هي حب الوطن والقومية حب الأمة ويختلف الإثنان
ولسكن ليس كل الإختلاف، فالمفهوم لا يختلفان تماماً ، لخب الوطن يتضمن حب
المواطن وحب الأمة يتضمن حب الأرض والوطن ومع ذلك لا تنطبق القومية
على الوطنية تماماً .

وتنطبق الوطنية على القومية بشروط منها أن يكون الوطن بمجموع الاراضى
التي تعيش عليها الأمة ، وتدير سياستها الدولة كالتطابق الوطنية العربية على
القومية العربية .

والوطنية هنا تماثل القومية تماماً ولا تخالفها إلا إذا ألفت الأمة دولاً
هديدة فيصبح لكل دولة وطنية خاصة .

والوطنية عاطفة تماسك بين أفراد الوطن من أجل مصالحهم تمثل روح
وحدتها، والوحدة الوطنية إذن تماسك بين أفراد الوطن قوامه الحب والإعجاب
والتقدير والشعور بالمسئولية نحوه وتغليب مصلحة المجموع على مصلحة الأفراد
والطوائف .

ولقد سلك تاريخ مصر روح وطنى نشأ عميقاً عريقاً بنشأة مصر أول أمة
قامت فى التاريخ وأخذ ينتقل إلى عصور التاريخ فيما بعد ومالبت فى العصر
الحديث أن سما فى معناه وأهدافه وتزود بمعان جديدة ، وتجلى الروح الوطنى عبر
المصور ، فسكان وحدة وطنية فى النضال ضد الإستعمار من أجل القضاء على
الظلمة وقادت مصر معارك كثيرة كانت فيها الوحدة الوطنية هى القوة التى ينبع
منها النجاح ويتحقق بها الإنتصار .

وفى عصرنا الحاضر ، تتجلى الوحدة الوطنية فى الصمود ضد قوى والعدان
الصيرونى تستقى مبادئها من سالف تاريخنا المجيد ومن قيم حاضرننا المسكافح
المناضل ، وليس من غير الوحدة الوطنية تكون القوة القومية والنصر .

فى هذا الكتاب ، محاولة لدراسة الوحدة الوطنية عبر عصور التاريخ

المصري ، هي دروس في الوطنية والوحدة كما يجب أن تكون عليه مع بيان دور
الوحدة الوطنية الكبير في صعود الشعب المصري وإنتصاره ضد العدوان في
الداخل والخارج ، آمين بهذا القدر المحدود من هذا الكتاب إذ كاه الوعي
الوطني في معركتنا ضد الإمبريالية والصهيونية .

والله ولي التوفيق

حدائق القبة في أول ديسمبر ١٩٧٢

المؤلفان

الباب الأول

الوحدة الوطنية في مقاومة الغزاة

لنظم تاريخ مضرب القديم والوسيط والحديث سلسلة من المعارك في الداخل والخارج في محاربة الإستعمار، والظلم، وكان الإنتصار فيها من تبع الوحدة الوطنية، التي توزعت معانيها بين شتى المعارك. فتميزت كل عن الأخرى بنوع من معاني الصمود كانت آياته التجمع والتماسك والشعور بالمسئولية والصبر والتدبير من أجل مواجهة الأحداث، في ولاء الأسرة الكبرى، مصر الصامدة المجاهدة المتأسكة الموحدة.

إن انتصارنا في هذه المعارك كان بفضل الوحدة الوطنية التي كانت هي روح المقاومة، ومن الوحدة الوطنية نستلهم الأمل في الحاضر والمستقبل.

الفصل الأول

الوحدة الوطنية

في مقاومة الهكسوس

ومن التفكك والفوضى توحدت مصر أمام عدوان الغزاة ، وتماسكت وتجلت في وحدة وطنية كان من ثمارها الإلتصار الكبير .
وكانت الوحدة سمة من سمات الطابع الوطني المصري منذ أن نشأت الأمة المصرية : عبرت عنه في مختلف عصورها القديمة ، وظلت بعد ذلك إحدى سمات ذلك الطابع القومي الأصيل : ففي العصر القديم وبانتهاء عهد الدولة الوسطى حوالي ١٧٨٥ ق. م دخلت مصر في عصر من عصور الضعف والفوضى والذل .
في العصر الوسيط الثاني . ولعل أشد الأيام اضطراباً كانت هي الفترة التي تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة حين كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش إلى العرش كما اشتد النضال بين حكام الماليك وبينهم وبين المصريين من جهة أخرى فتعددت المؤامرات واندلعت الثورات وتتابعت الحروب الأهلية وظلت الفوضى سائدة أيام الأسرتين الثالثة عشرة وقدر عدد ملوكها بستين والسابعة عشرة وقدر عدد ملوكها ستة وسبعين فكان طبيعياً بهذا التفكك أن تسقط مصر فريسة في عام ١٧٢٥ ق . م في يد عدو متربص لها إذ غزاها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطلق عليها ماتون د هكسوس ،^(١) وقد اجتاحت مصر من الشرق . ونظراً لمهارتهم الحربية وأسلحتهم الحديدية وتفكك المصريين انتصروا على مصر فخصعت الدلتا للمغيرين فاتخذ هؤلاء صالحجر في شرقها عاصمة لهم كما توغلوا في مصر الوسطى بينما سيطر النوبيون على الجزء الجنوبي للبلاد ، ولم يبق من مصر المستقلة غير رقعة بسيطة يحكمها أمراء طيبة في الصعيد وقد ظل

(١) هجين هربال وآخرون - الحضارة المصرية .

حكم الهكسوس قائماً طوال أيام الأسرتين ١٥، ١٦ وجانباً من حكم الأسرة ١٧ فيما تجاوز قرناً ونصف قرن .

وسيطر الغزاة على مصر وإذا كان المصريون قد قبلوا ذلك لتفككهم حتى ينبعث ما يوحد حكمهم فقد كان ذلك على مضض وكان طبيعياً أن يكون الأدعى للقوة هو المساس بمقدساتهم وموروثاتهم . وما يمت بسبب الأسرة . ذلك الأمر الذي يحرص عليه المصري طوال تاريخ حياته وكانت القارعة على يد الهكسوس . وأساءوا معاملة المصريين وأهانوا معايدهم كما بدوا في معيشتهم منزلين محتفظين بتقاليدهم وعاداتهم الخاصة وإن حاولوا مراعاة شعور المصريين ليتمكنوا بهذا من الحكم عندما أخذوا يتمصرون مقلدين ملوك مصر في ألقابهم وأزيائهم ولغتهم .

وظلت الشخصية المصرية متماسكة حية في طابعها القومي فلم يثن ذلك المصري عن عزمه في فرض شخصيته على المستعمر والعمل على القضاء عليه ، ويحس بجرح عميق في وجدانه من وجوده مسيطراً على البلاد .

أخذت الروح الوطنية تثبت على قدميها مع انحدار قوة الهكسوس وأخذ أمراء طيبة يكافون لضم شمال الشعب وتوحيده ومواجهة الغزاة فنجحوا وكانت الوحدة الوطنية مبعث فجر مشرق .

وبدأت الحرب بتحد من ملك الهكسوس أبوفيس لأمير طيبة استشاره لإعلان الحرب ضده ، وقد جاءت وقائع تلك الفرصة في قصة كتبت في عهد الملك مرنبتاح أحد ملوك الأسرة ١٩ وقد اضطر أمير طيبة للخروج على رأس جيش لملاقاة الهكسوس فسقط فيها سقنتوع شهيداً في سبيل مصر وكان استشهاده دعوة لضم شمال الوطن في مواجهة الغزاة خلفه في جهاده كاموسا وقد سجلت قصة كفاحه على لوحة ترجع إلى السنة الثالثة من حكمه عشر على أجزاء منها في أزمنة متباغدة .

وكانت أم كاموسا (أباح حتب) تشجعه بروح فضاليه وثابة وحاول الهكسوس تاليب حكام النوبة على كاموسا فلم ينجحوا وانتصر عليهم فلما وافته المنية خلفه

البطل أحمد . فاندفع ذلك شمالاً والشعب يتدفق وراءه في حماسة ويتجمع في وحدة .
وطنية يطارد المهكسوس حتى وصل عاصمتهم أو باريس فسقطت في يده وعندئذ فر
المهكسوس إلى فلسطين فقبضهم أحمد بعد أن وحد الشعب وطاردهم حتى شنت
شملهم في موقعة شاروهين ثم قفل البطل راجعاً إلى طيبة عاصمة الثورة الوطنية
ومبعث أتوار الوحدة الوطنية مسجلاً بفضل تلك الوحدة فصل الختام من ذلك
العهد البغيض المشؤوم ، عهد الإنحلال والتحكيم الأجنبي في مصر العريقة .

وتأسست على يد أحمد الأسرة ١٨ ووضع حجر الأساس في بناء مجد مصر
الحربي ومهد الدولة الحديثة وبه بدأت الإمبراطورية المصرية الكبرى .

الفصل الثاني التماسك والصمود

في مقاومة الرومان والبطالمة

وقف المصريون في العصر الفرعوني القديم من التبعية السياسية موقفاً ينبع من طابعهم الوطني وبدأوا بمقاومتها ، وكثيراً ما كانوا يؤثرون في مقاومتهم الإنسحاب داخل الذات ولكن دون تسليم ، فلما تهادى الإستعمار وأوغل في المساس بما كان يحسنه المصري إحساساً مباشراً كالعقائد والأرزاق والعلاقات الأسرية قاومه المصريون بشدة : فقاوموا الآشوريين والفرس والبطالمة والرومان جميعاً في معارك متوالية ضارية جاءت تعبيراً عن الكثير من سمات الطابع القومي للشخصية المصرية أثبتت استمراره وإيجابيته

مقاومة المصريين الآشوريين : (١)

حدث في عام ٧٢٢ ق . م أن جلس على العرش الآشوري الملك سرحون الثاني وكان من أعظم المحاربين قسوة وشدة وقد سبقته شهرته إلى مصر عندما أخذ يغزو المناطق الشمالية بين سوريا ولبنان فسارع أمراء مصر وأمراء سورية بمساعدة حربية ليتمكنوا من صد العدو بعيداً عن الحدود المصرية ، ولكنه استطاع الزحف حتى حدود مصر الشمالية وهناك قابلته الفرق المصرية متجدة مع بعض الولايات الفلسطينية حتى اضطر أن يرجع عن دخول مصر وكان من ثمار ذلك أن أقامت مصر مع ولايات سورية وفلسطين حلفاً قوياً يربط بينهم ويدبر شئونهم أمام أي غزو جديد .

وما كاد أمر هذا التحالف يصل إلى الملك الآشوري الجديد سناحريب حتى سارع إلى منطقة الخطر بجيش كبير فحاصرت المقدس حصاراً طويلاً ولم يترك الملك الآشوري الحصار إلا بعد أن تفشى المرض بين جيوشه ولم يكده الملك

(١) دكتور عبد العزيز رفاعي : العاليم القومي للشخصية المصرية ص ٨٣ وما بعدها .

يعود إلى بلاده حتى قتله أولاده ونخلقه أخوه أسر أخى وأخذ بعد العدة للانتقام من مصر .

سمع المصريون بهذا القصد فاستعدوا لمواجهة والتفوا وجهاً لوجه مع العدو في أراضي الدلتا الشرقية فانتصر المصريون على جحافل الآشوريين رغم تفوقهم في العدد على المصريين ، وقد أراد الملك الآشوري أن يستعيد هيئته بمعاودة الكرة على مصر ، وأطمأنت مصر بهذا النصر ، ولكن حدث أن ظهر لجأة آشور أخى الدين للمرة الثانية في سورية وعاقب (بعل) على انضمامه إلى مصر ذاتها من طريق صحراوى قصير دله عليه البدو فوصل بجيشه في وقت لم يكن فيه ملك مصر طهراقة قد أتم إستعداده لملاقاة العدو فاضطر إلى الانسحاب بسرعة وما كاد ذلك يلتجئ إلى حصن منف المنيع حتى تتبعه العدو ولحق به قبل أن يتحصن ، فأسرع طهراقة إلى مصر الوسطى تاركا الدلتا بخيراتها للمستمر الجديد ووقعت مصر للمرة الثالثة في تاريخها الطويل لإستعباد أمة أجنبية .

لم يعترف الآشوريون بأى مظهر من مظاهر الحضارة القائمة في مصر ولم يحترموا عادات المصريين أو ديانتهم وحاولوا أن يبطشوا بهم ويطأوا بأقدامهم كل المثل العليا .

ومن نبع الطابع الوطنى الحريص على مقدساته ، أخذت كلمة الناس تتحد فينسون أحقادهم واتصلوا بطهراقة في قصره في طيبة طالبين منه أن يرحف شمالا فأسرع بذلك وما لبثت الدلتا أن اجتمعت حوله وتمكن من طرد الحامية الآشورية ، ولكن ما لبث الملك الجديد الآشورى الذى خلف آشور أخى الدين وهو آشور بنى بعل أن أرسل جيشاً قوياً رد به الدلتا إلى الحكم الآشورى بل وأسرع إلى مصر العليا ودخل طيبة دخول الفاتح المنتصر ، واضطر طهراقة إلى الرجوع إلى عاصمته الجنوبية في نابتا ، وما كاد الحكم الآشورى يستقر في مصر حتى بدأت حركات التحرر السرية تنتشر ورفع المصريون راية العصيان بزعامة أمير مصرى اسمه نحاو ولكن قبض العدو عليه وهدأت الحال قليلا في الدلتا بينما كان الصعيد يفل كالمرجل ولم يكن ينقصه سوى زعيم يقوده

ولم يلبث حتى وجدته في شاب متحمس خلف طهراقة بعد أن مات وهو ثانوت آمون لجمع بعض الجنود السودان وسار إلى طيبة حيث قوبل بالتهليل والفرح في كل مكان ، وفي منف قابل السمو ، بفضل عزمته وقوة إيمانه ومن معه انتصر المصريون ودخلوا منف، ولكن تحرك العدو بفرق كبيرة من سورية وطوقت ثانوت آمون حتى ونف ففر هاربا إلى طيبة ثم أسرع الخطى إلى نابتا وبخروجه من مصر انتهى عصر حكم الأسرة الخامسة والعشرين النوبية لم يكده الحكم يستقر الاشوريين حتى ظهر إيسماتيك من أسرة معروفة بالجهاد والوطنية فأخذ على عاتقه تحرير مصر وتمكن من القضاء على العدو . ولقد تمكن من إعداد جيش قوى من الداتا ومن الصعيد فطرد الاشوريين من مصر ولما انتهى عهدهم نودي به ملكا على مصر .

مقاومة المصريين للفرس :

وما كانت مصر تتخلص من الحكم الاشوري حتى واجهت الغزو الفارسي إذ ذاك بدأت معه صفحة جديدة من النضال الوطني . كانت دولة الفرس هي الوريثة الشرعية لإمبراطورية آشور في أواخر القرن السابع ق . م أخذ أباطرة الفرس يرنون ببصرهم لاحتلال مصر الفخزية وقد حقق ذلك الخلم قبيز بن قرش عام ٥٢٥ ق . م وفي وقت كانت مصر تودع ملكها الهمام أمازيس ، وتوجه ببصرها نحو ملكها الجديد إيسماتيك الثالث وفي وقت كانت مصر في أشد الحاجة إلى رجل قوى يقودها ليرد عنها ذلك الخطر الذي أخذ إذ ذاك يدق بشدة أبواب مصر من ناحية الشرق .

كان قبيز يجمل أمور مصر وكان يهابها ويخشى الصحراء ومسالكها حتى كاد يرجع عن هدفه لولا أن ساقته إليه الظروف أحد المتطامرين الإغريق وهو فانيس . فوضع خدماته تحت تصرف قبيز فبصره بالمخاطرة وأرشده إلى الالتجاء إلى البدو الرحل ليهدوه سواء السبيل وتقدم جيش الفرس وفوجيء إيسماتيك بهول الموقف .

تقدم قبيز لملاقة المصريين ، ورأى المصريين وبيتهم فانيس يشارك عدوهم

فأتوا بولديه وذبحوهما أمام عينه ، وقد استمرت المعركة من النجر حتى الغروب .
انتصر فيها الفرس والمصحب جيش مصر نحو الجنوب ، ولكن جاءته الآباء
أن المصريين كانوا مصممين على الدفاع في استماتة فأمر قبيلز بتجهيز سميخة جعل
عليها مناديا . ورفع فوق ساريتها شارة الهدنة وأمر أن توجه نحو منف وهي تحمل
أحد رجاله يطلب من المصريين التسليم دون قيد أو شرط ، وثمة وثيقة ترجع
إلى العصر القبطي تتحدث بالذات عن ذلك الحادث ، وإننا نعتبر هذه الوثيقة
بحق دليلا على ما تركته حملة الفرس من ذكريات مؤلمة تثبت في أذهان
المصريين ويتناقلها الأحفاد عن الآباء ، وقد نشرها الدكتور مراد كامل على أنها
قصة من الأدب القبطي .

تبدأ القصيدة برسالة يكتبها قبيلز إلى الشعب المصري وطلب إلى رسوله
السالف الذكر أن يذيعها على الناس :

أنا قبيلز لم أكتب إليكم لإرغامكم فانا أود زيارتكم لأخرج عليكم إذا أردتم
الحضور إلى .. بل تعالوا إلى أنا الذي سيمنحكم مجدا أكثر مما تتمتعون به الآن ،
وربما حدثتكم أنفسكم بعدم الخضوع لي وحينئذ نكون قد وضعتم ثقتكم
في هؤلاء الناس السائرين إلى الدمار ، أولئك هم ملوك مصر وعشائرم المتنقلة .
وما دامت لي القوة فان يستطيع أحد أن تتقدم من غضبي ، أنظروا أنا قبيلز
أكتب إليكم هذا وأذيعه عليكم فإذا استمعتم إليه كان هذا خيرا لكم وإلا فكونوا
مستعدين لملاقاة جم غضبي الذي سينصب على رؤوسكم . إنني سيد الأرض كلها .
وقد زادت هذه الرسالة من حماس المصريين وتماسك وحدتهم الوطنية
فاستقر رأيهم على رفض طلب التسليم وكادوا يقتلون رسول قبيلز لولا أنهم آثروا
أن يسمحوا له بالعودة إلى سيده على أن يعيشوا هم أيضا برسالة تهديد للملك
الفارسي هذا نصها : يكتب هذا جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون أقاليم
الغرب والذين يعيشون في الهند . تكتب إليك أيها الجبان الرعديد قبيلز الذي
أسهب في لغتنا سانوت وتفسيره الجبان . ألا فانظر لقد تركنا رسولك يذهب
بسلام لاخوفا منك ولكن إفتخارا وتعظيما لسيدنا فرعون الذي يحكمنا بمجد
عظيم . لقد تركنا الرسول وشأنه ولم نذبحه ولكن إذا أترتم سنخطنا فسوف

تعلون ما نحن فاعلون فبحق قوة فرعون ومحمد مصر والإله حابي وبطش
صناديدنا واحتشاد جيشنا في القتال ومادام الإله حابي في منف والإله آمون
في نفتاس .

ومادام ملوكنا يعيشون بكل في ملكته

ومادامت الأنهار تفيض بمياهها .

ومادامت قوتنا موطدة الدعائم .

ومادام كل ذلك قائماً - فسوف تعلم أيها العبد ماسيحل بك ماذا أنت فاعل

حيال ذلك .

سنوردك موارد التماسك وسنلتقي بأتباعك الظالمين خارجاً وسنحرق آلهتك
المرافقين لك . أما أنت فإن نضيج الوقت في طهو قطع من لحمك بل سنمزقه
بأسناننا كما تفعل الديبة والسباع الضارية ، والان أيها التعس تدبر أمرك وفكر
ملياً فيما أنت مقدم عليه قبل أن ينصب عليك غضب مصر .

فن من الملوك لا بين الاشوريين بحسب بل بين ملوك العالم كله استكبر على
مصر . . . هل تطمع أنت في التغلب عليها أيها المخلوق الدنيء هل اتعظت بالملوك
الحاليين والحديثين وأولئك الذين يقطنون الأقاليم القريبة ؟ أليسوا جميعاً على
جانب عظيم من القوة والحياة فلماذا لم ينجوا ببلادهم من قبضة مصر عند
ماتوا بل قبوا لكي لا يصيروا عبيداً لنا .

يا للعجب أن تهاجم أنت مصر فسيلحق بك العار على يد جحافل مصر . من
هو إلهك الذي يرافقك والذي سينجيك بقوته وعليه تعتمد حتى تجترى على
المحضور إلينا هنا ؟ أولئك تعتمد على الأمورين . . . الذين يرتعد فرائصهم من
أولئك الذين لم ينعموا بالسجادة قط بل كتب عليهم أن يظلوا دائماً أرقاء . . .
ولنا عاد الرسول ومسلم سيده رسالة المصريين استمع إلى نصيحة . مستشاريه
بالا يهاجم المصريين وأن يصل إلى مبتغاه في الحكم بالملائنة عن طريق اجترابهم
آلهتهم . ولم يتخضع المصريون وحشدوا الجيوش وديخل قهيز بقواته إلى منف
وفتحها ، ورغم هذا لم يضعف الشعب واستمر يقاوم المعتدي في ثورات متتالية .

بدأت أول ثورة ٤٨٦ ق. م فقد اشتبك المصريون مع قوات الاحتلال المنبثة بين أرجاء الوادي فأفندوها عن آخرها ولما جهز الملك أجزر كسيس بعد ذلك وهو بن دارا جيشاً قوياً وأسطولاً للحرب وزحف إلى مصر ثبت المصريون أمامه ، وفشلت هذه القوة الأجنبية في احتلال أراضيهم إلا على أشلائهم وكانت أساليبهم الاستعمارية حافزاً للمصريين على استرداد استقلالهم المسلوب .

وانتهز المصريون فرصة تراجع القوات الفارسية مدحورة أمام قوات الإغريق أثناء الحروب الميدية فبدأوا يستعدون لإشعال نيران ثورتهم التحررية الثانية . فلما عثروا على الزعيم المنشود في شخص الأمير إيناروس الذي أعلن الثورة على الحكم الفارسي فتعاون هو وزعيم ثائر آخر يدعى أمير تاورس وقف الشعب المصري بجميع فئاته صفاً واحداً خلف زعيمه وجمع الملك الفارسي أرتاجزر كسيس جيشاً كبيراً أوفده إلى مصر والتحم الجيشان في معركة كبيرة عند مدينة بلوزيوم على حدود مصر الشرقية وأنزل أبناء النيل بجيوش د الملك العظيم ، - وهو لقب الملك الفارسي - هزيمة منكرة تمخضت عن مصرع الغالبية العظمى من قواته وغيباً حاول الفرس قتال المصريين مرة أخرى إذ خاض المصريون المعركة أبطالاً ولم تستطع قوة الفرس أن تدخل بلادهم إلا بعد أن تكبدت أمدح الخسائر .

وبدأ الحكم الفارسي يغير أسلوب سياسته في عهد دارا الثاني باجتناب قلوب المصريين وحسن معاملة الأهالي واحترام آلهتهم. وقد تودد إلى الكهنة عله بهذا يظفر بفترة من الهدوء ، غير أن روح الكفاح لم تهدأ ، وقامت مصر بثورتها للثالثة بقيادة د أمير تاورس الثاني ، الذي هاجم حاميات الملك الفارسي المنتشرة في مصر ففضى عليها ونادى بنفسه ملكاً على مصر المستقلة مؤسساً الأسرة الثامنة والعشرين الفرعونية ٤٠٤ ق. م ، وبعث الملك الفارسي بحشوده الهائلة إلى وادي النيل ليقتضى على ثورة المصريين ، ولكن مصر ألحقت بجيوشه هزيمة منكرة فتمتعت البلاد باستقلالها نحو ٧٠ عاماً توارث العرش خلالها ملوك الأسرات ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٠ ، وعقباً حاول الفرس الفرقة إلى مصر إذ ظن المصريون يناوئون .

المستعمر حتى تغيرت الأوضاع في العالم القديم كله أثر قيام الاسكندر الاكبر بغزو الشرق .

ولقد قاوم المصريون البطالة كما قاوموا من قبلهم الرومان ولكن كان عهد البطالة والرومان أطول عهود التبعية السياسية لذلك كان تأثيره عميقاً على الطابع القومي .

ومن خلال ذلك الطابع لم تهدأ نفوس المصريين منذ مجيء البطالة فاجأوا في البداية إلى المقاومة السلبية يتهربون من زراعة ما يكفون به ويتوقفون عن العمل في المصانع والمناجم فيشيع الإضراب في الحياة الاقتصادية حتى تماهى البطالة في أخطائهم فلما تهيأت الفرصة للقيام بثورات أشعل المصريون نيرانها حامية ضد أعدائهم يرغمونهم على تغيير سياستهم بما أضعف دولتهم ودفعها إلى الانهيار .

أخذت المقاومة تظهر بوضوح في عهد بطليموس فلاديفوس منذ أن أخذ ينفذ الأساليب التعسفية التي شرعها أبوه واكتسبها الحكم البطلمي طابعه البغيض

أخذ الفلاحون يشيرون القلاقل التي تفيض بها الوثائق البردية تعبيراً عن الضيق والالم فترددت أصداؤها بين المصانع والعمال والتجار المصريين فواجهها المستعمر بشدة فلم يكف المصريون عن مواصلة الكفاح ، ثم توافر جيش للثورة قوامه الزراع والصناع والعمال وكان الكهنة المصريون الذين سلبوا مصدر ثرائهم باستيلاء العدو على دخل أراضي المعابد مستعدين لقيادة الثوار ومالبثت الحركات السلبية أن تحولت بعد فلاديفوس إلى تورات عنزية شعبية .

بدأ المصريون ثورتهم الأولى في عهد ثالك البطالة وقد اشتعلت في وادي النيل ثورة شعبية مسلحة استغل فيها المصريون فرصة غياب الجيش البطلمي خارج البلاد. ولكنها أخذت بشدة ، ولكن لم يستسلم المصريون إذ مضوا في مقاومتهم السلبية بالقيام بثورة أخرى أوائل عهد الملك بطليموس الرابع فقد حدث أن تقدمت قوات معادية للحكم البطلمي حتى بلغت مشارف رفح فاضطر بطليموس إلى إدماج المصريين في قواته فلما تقدم بهم مشتبكاً مع قوات خصمه وقف المصريون في ساحة رفح مدافعين عن مصر ناسين ظلم البطالة في سبيلها حتى أنقذوا

أرضهم من الإحتلال ، وتعتبر معركة رفح حداً فاصلاً في تاريخ البطالة سبقها عهد المنعة والعزة وتلاها عهد التدهور والانحلال ، وكان نصر رفح بداية النهاية لدولة البطالة . . .

وما أن عاد المصريون من ميدان القتال مزهوين حتى بدأوا يبشرون كماداتهم عن الزعيم لقيادة ثورتهم الثانية فما أن عثروا عليه حتى أشعلوها على الفور في الدلتا ومصر الوسطى حتى امتدت إلى مصر العليا عام ٢٧ - ٢٦ ق. م وكانت ثورات عنيفة جارفة ، فتحدثنا الوثائق البردية بأن المصريين الثائرين لم يكتفوا بتحطيم ممتلكات الأجانب إنما اعتدوا أيضاً على منازل بعض الوطنيين ويرجح أن يكون هؤلاء من النوع الآثم في حق الوطن .

قاوم بطليموس الرابع هذه الثورة بكل قواته العسكرية حتى أخذها ولكن بدأت تيران الثورة تشتعل في الاسكندرية نفسها ولم يلبث لها أن امتد إلى أنحاء الدلتا حيث كان الفلاحون والصناع المصريون يضيقون بضروب التعسف والإضطهاد ، أما في الصعيد فقد بقي إقليم طيبة مستقلاً عن البطالة يحكمه ملك نوبى يدعى «عنخاخيس» ، وبين هذه المحنة في الظروف العصيبة نزلت بالبطالة ضربته قابسية من الخارج مهدت السبل لتغيير سياستهم في الداخل وتهيئة الفرص لاستمرار الثورة وقد انتهز الملك السلوقي دانتوخرسى ، الثالثة فرصة الفوضى التي عمت أرجاء الوادى وهزم البطالة في معركة فاصلة انتزع منهم بسورية وآسيا الصغرى وتراقيا كما أصاب تجارتهم في سورية وبحر ايجة .

أخذ بطليموس الخامس يستميل الثوار والجنود المضربين تخفيض من الإلتزامات المالية وأغدق على المعابد والأهالي كثيراً من المنح ، ورغم ذلك فقد استمر المصريون في ثورتهم الغارمة ، فدارت رحى معركة حامية بين القوات الملكية وقوات الثوار في مدينة أرييدوس انتصر فيها المصريون وكان لهذا النجاح الذى أجزه أبناء الطنخيد صدى بين أبناء الدلتا فاندلعت فيها تيران الثورة سيما في مدينة لسكوليس كبدت العدو أفدح الخسائر .

إذ ذلك لجأ بطليموس الخامس إلى أساليب اللين مرة أخرى ولكن المقاومة . . .

السلبية زادت عنفاً فزاد عدد الفلاحين والعمال الفارين وتدهورت الحالة الاقتصادية مرة أخرى .

ثورة رابعة :

كان للثورات المتتالية تأثيرها ، كما كان لموقف العدو تأثيره في الاضرار بالنواحي الاقتصادية ، وزاد من آلام الشعب أن ما كان يرهقه بالنظام المالي كان يعتصر دماؤه لمصلحة الحاكمين ومن هذا وذاك نبتت روح الثورة أشد وأعنف ولم يكن ينقص المصريين كما دعتهم سوى الزعيم وسرعان ما وجد في شخص رجل كان يشغل في القصر منصباً ممتازاً ، كان خبيراً بنفسية الجماهير هو ديونيسيوس بنوسرايس ، فلبجاً إلى وسيلة تضمن نجاح الثورة . . . كان ثمة شقيقان مختصمان حول حكم البلاد هما بطليموس السادس د فيلومتر ، و بطليموس السابع وقد أخذت مصر تشهد مآسى الحكم بين فيلومتر وأخيه الصغير بطليموس السابع .

كان الزعيم المصري يدرك أن شعب العاصمة يفضل الملك الأصغر على أخيه الأكبر وكان هو الذي نادى ببطليموس الصغير ملسكا فأذاع زعيم الثورة أن الأخ الأكبر غير راض عن مشاركة أخيه له في الحكم وأنه يدبر الأمر للتخلص منه والانفراد بالعرش ، وثار تائرة الناس وحقق الزعيم بهذا هدفه الأول ، وتجمهر شعب الاسكندرية في ميدان السباق وقرروا الهجوم على القصر وقتلوا فيلومتوس .

ما كادت آمال الزعيم المصري تنتعش حتى انهارت فجأة لقد كان في واقع الأمر مدبر أمر التخلص من الملك . الأكبر أولاً ليفرغ بعد ذلك للملك الصغير فلم يستطع أن يتخلص منه هو الاخر . ولسكن لم يياس د ديونيسيوس ، فأخذ الثوار يلتفون حوله وبدأ ينظم صفوفهم ودارت معركة بين الطرفين السحب منها ديونيسيوس منتقلاً إلى الصعيد حيث أشعل بين أبناء ثورة جامعة وقد لقيت قوات البطالمة تلى يد قوات الثوار التي تحصنت في مدينة د أخميم ، مقاومة شديدة وقد انتهى الصراع باستشهاد عدد كبير من المصريين وقد هددت البلاد بجماعة خطيرة وقد وصلت هذه الثورة في إحدى الوثائق البردية بإنها كانت طامة كبرى . . .

وقد استمرت الثورة ضد الحكم البطلمي بعد ذلك في شدة وعنف إلى أن انتهى الحكم البطلمي في مصر على يد الرومان .

مقاومة الرومان :

لم يكد يمضى على الفتح الروماني في أغسطس ٣٠ ق . م بضعة أشهر حتى نشبت الثورة في جنوب الوادي في منطقة طيبة مركز عبادة آمون ومعقل حركة المقاومة التي كان يزعها الكهنة المصريون من قديم الزمان ضد الغزاة ، فلم تكذب تسمع بوصول الرومان حتى شقت عصا الطاعة وأعلنت الثورة فتولى القائد الروماني نفسه قيادة الحملة لإخمادها فأخذها في خمسة عشر يوماً . ثم عين والياً من قبله على منطقة بين حدود مصر وحدود النوبة ولكن ما كاد العدو ينسحب شمالاً حتى أغار المصريون على المواقع الرومانية وتغلبوا على الرومان فزحف القائد الروماني على رأس قوة نحو الجنوب ودمر النوبيين ثم عاد أدراجه إلى الاسكندرية فلم تمض سنتان حتى عاد النوبيون إلى شهر السلاح في وجه القوات الرومانية المرابطة في الجنوب مما اضطر الحاكم الروماني إلى العودة وإخماد الثورة وعقد صلح بين الطرفين ، واستقر السلام جنوب مصر بفضل الاستحكامات القوية التي أقيمت في تلك المنطقة .

ومع هذا، فقد بدأت قبائل البليمس تغير في منتصف القرن الثاني الميلادي على مصر الجنوبية وأظهرت الحماية الرومانية في أسوان عجزاً واضحاً في صد هجوم المغيرين وظلت الاضطرابات قائمة حتى تولى العرش قلديانوس فسحب خط دفاعه من الحدود من مكانه بالقرب من الشمال الثاني ودعا بعض القبائل البدوية للاستقرار في الوادي لحماية مصر العليا من غزو البليمس ولكن ما لبثت قبائل البليمس أوائل القرن الخامس أن عادت إلى شهر السلاح ولم ينفع عقد الصلح بين الطرفين . فقد انتهز البليمس أوائل القرن السادس فرصة عودة الفرس لهدلتنا لخطموا الحصون الرومانية وأبادوا القوات المرابطة .

وفي منطقة الدلتا الساحلية المليئة بالمستنقعات شرق الاسكندرية نشبت ثورة بزعامة كاهن مصري يدعى إسيدوروس وقد انطوى تحت لوائه جمع خفير من

الفلاحين فالتحم الجميع مع الجيش الروماني ، ولم يستطع الرومان التغلب على هذه الثورة بالحيلة والفتنة ، وكان الخطر يكمن في مدينة الاسكندرية التي لم تسكن إذ ذاك مدينة مصرية خالصة فكان شعبها خليطاً من الإغريق والمصريين واليهود لا يقل عدده عن نصف مليون . وكان المصريون يناوئون الحكم الروماني بطرق كثيرة وقد بلغ من شدة قلق الامبراطور كرا كلا على الحكم في المدينة مبلغاً جعله يأمر بطرد بعض المصريين ممن كان لهم فيما يبدو التأثير في إثارة المتاعب في وجه السلطات الرومانية .

ولقد أرسل كرا كلا مرسوماً إلى واليه في مصر متضمناً ذلك ، وقد دل ذلك على أن الفلاحين كانوا يتركون قراهم لتدبير المسؤامرات مع الإغريق وسائر المصريين في المدينة .

كان مرسوم كرا كلا يقول : « ينبغي أن تعمل على طرد جيش المصريين المقيمين بالاسكندرية ولا سيما سكان الريف منهم الذين فروا من مناطق أخرى ومن اليسير التعرف عليهم . »

والذين يجب منعهم هم هؤلاء الذين يفرون من مواطنهم الأصلية ليتجنبوا القيام بالأعمال الزراعية ويستثنى من يفدون على الاسكندرية لمشاهدة عظمة المدينة . »

ويقول المرسوم في حاشيته : « من السهل تمييز المصريين الخالص بين نساجي الكتان بلهجتهم التي تبين أنهم اتخذوا مظهر طبقة أخرى . »

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية

في مقاومة الصليبيين

تجلى الطابع الوطني في المقاومة السياسية من خلال استقرائنا للتاريخ الوسيط لمصر فيما واجهته من غزوات الحروب الصليبية ، معان من التماسك والصلابة والصبر من خلال الطاعة لولي الأمر ومن خلال الولاء للأسرة والفكرة الإسلامية . وقد كانت الدول الأوروبية تحلم بالاستيلاء على مصر لحماية المصالح الصليبية . واستعادة البلاد التي كان قد استولى عليها صلاح الدين في فلسطين ، بل لتوسيع رقعة السيطرة الأوروبية على حساب المسلمين أولاً .

وبالرغم من المحاولات التي فشلت في ذلك ، ظل التفكير في غزو مصر والاستيلاء عليها ركناً من أركان السياسة الصليبية .

وازداد هذا التفكير شدة حين وضع للصليبيين مؤازرة مصر لصلاح الدين في مقاومته للصليبيين فتركزت الفكرة حول الاستيلاء على مصر لتقطع ينايبغ للقوة الإسلامية ضد الصليبيين في فلسطين ، وابتدىء بتنفيذ هذه الخطة بمعاودة الاغارة على دمياط في أيام السلطان الكامل محمد بن السلطان العادل محمد وهو خامس سلاطين الأيوبيين في مصر بعد صلاح الدين ، فأمرع الكامل بجيشه شمالاً إلى بلدة العادلية شمال فارسكور وأعد العدة للقتال وكان ذلك متمرساً بأساليب الحكم والسياسة والمهارة في الحروب .

ونزل الصليبيون من مراكزهم المتجمعة في الجهة الشمالية الغربية من دمياط في يونيو ١٢١٨ و ضربوا معسكرهم عند قرية بورة الحالية على شاطئ البحر وكان قائد الحملة يوحنا برين صاحب مملكة بيت المقدس التي كانت قد ضاعت .

وبدأ الصليبيون بأن حفروا حول معسكرهم خندقاً وشرعوا في رمي برج دمياط المنيع فجأة فاستولوا عليه بالمفاجأة الحربية وقطعوا السلاسل المتصلة به

عبر النيل لتسير مراكبهم بسهولة في النيل ويتمكنوا من أرض مصر ، ولكن
السلطان الكامل نهض لافساد هذه الخطة فأقام جسراً من السفن عوضاً عن هذه
السلاسل فاخرقته فرقة صليبية فرد السلطان الكامل على ذلك بتخريق عدة
مراكب فاستحال بذلك تقدم العدو ، وعمد الصليبيون إلى تسيير مراكبهم
في فرع قديم من فروع النيل فبلغوا بلدة بستان جنوب العادلية التي كان بها
معسكر السلطان الكامل ، فلما أنزلوا جيوشهم أصبح الجيشان الأيوبي والصليبي
وجهاً لوجه لا يفصل بينهما إلا ماء النيل ، وقد انتهى الأمر بعبور الصليبيين
إلى البر الشرقي التي تقع عليه دمياط واستولوا على معسكر المصريين وحاصروا
دمياط نفسها ، وأرسلت دمياط تستنجد بالسلطان الكامل ولكن كان الصليبيون
قد استولوا عليها .

ولقد ثبتت حامية دمياط للحصار وقاومت مقاومة مجيدة ولم تسلم إلى بعد
أن امتلأت الطرقات والمساكن بالموتى ، وقد طلب السلطان نجدات من إخوته
وأقاربه بالشام فأبطلت فأخذ يفاوض بجللاء الصليبيين عن مصر وإبحار السفن
الصليبية في مقابل أن يقدم السلطان مدينة بيت المقدس لهم وكذلك معظم البلاد
الفلسطينية التي أخذها منهم صلاح الدين .

ولم يقبل الصليبيون ذلك العرض لأن غرضهم لم يكن دينياً فقط .
أما سبب الرفض فكان أن المتدوب البابوي رأى أن مفاوضة المسلمين
لا تكون إلا بعد هزيمتهم وأن مصالحهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير
من المال ، كما أن المدن الإيطالية التي كانت قد اشتركت في هذه الحملة بجنودها
وأموالها عز عليها الجلاء عن دمياط .

وفي أواسط ١٢٢١ ميلادية والنيل يوشك أن يمتلئ بمياه الفيضان تحرك
الصليبيون إلى داخل البلاد فتوقفوا عند بلدة طلخا الحالية تمهيداً لدفع المسلمين
إلى الورا وإفساح المجال نحو القاهرة .

كانت الامدادات المنتظرة قد وصلت إلى جيش السلطان ، وكانت الأرض
التي سيلتحم فيها الفريقان إذ ذاك ذات قنوات وترع يعرفها المسلمون ويجهلها

الصلبيين ، والمصريون موحدون كتلة واحدة في مواجهة العدو .
وفي النيل كانت تساندهم البحرية الأيوبية بعد أن استولت على بضع سفن صليبية وأمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمال طنطا فضلا عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، فنطى الماء شمال مواقع الصليبيين فصارت هذه المساحة المائية على جانبي النيل حائلا بينهم وبين دمياط ، وبهذا ذهبت آمال الصليبيين بالزحف جنوباً نحو القاهرة فأرادوا العودة إلى دمياط .

فأحرقوا خيامهم وما كادوا يتحركون حتى وجدوا الماء بينهم وبين المعسكر عندئذ انقلب الصليبيون إلى مفاوضة السلطان بالعودة إلى دمياط والجلء عنها دون قيد أو شرط ، وقد رأى في ذلك اكتساب معركة دبلوماسية أجدى عليه من الظفر بمعركة حربية ربما أعقبها هزيمة ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط بعد الجلاء .

وجاءت الغزوة الكبرى ثانياً للاستيلاء على مصر في وقت ظلت مصر فيه مركز المقاومة الإسلامية ، وقد عقد لواء الناصر في هذه المرة للمصريين في معركة هبت عن مدى ولائهم للوطن من خلال الفكرة الدينية .

ولم يرض الصليبيون بفترة السلام حلا للسألة الصليبية إلا بالحرب ضد المسلمين ومصر ، فانتهزت أوروبا فرصة استيلاء بعض الجند الأيوبية الخوارزمية على مدينة بيت المقدس بغدير إذن من سلطان مصر والشام ، وقامت أوروبا وقعدت تنادى بإعادة بيت المقدس وترعمت فرنسا حركة المناذاة وأعلن ملكها لويس التاسع وكان قديساً وأصبح عسكرياً محارباً ، أنه سوف يقود غزوة صليبية فرنسية لاسترجاع ما كان قد فقده الصليبيون حديثاً وقديماً ، وأنه سوف يحقق أهدافه كلها بالاستيلاء على مصر .

وتجمعت جيوش هذه الحملة الفرنسية الصليبية في قبرص وعلى رأسها الملك ومعها زوجته وأخواه وبعض بني عمومه وكثير من الأقطاعيين الفرنسيين ، وقد انضم إلى هذه الجيوش جيوش انجليزية بقيادة اقطاعيين من انجلترا كما انضم اقطاعيون صليبيون من حكا وقبرص نفسها .

وأبحرت الحملة في أوائل مايو ١٢٤٩ ميلادية واتجهت نحو مصر لكنها
وقعت في أخطاء الحملة السابقة .

جمع الصالح أيوب سلطان مصر جيشه جنوب البحر الصغير الحالي وجعل
مركز قيادته في المنصورة ورغم مرضه لم يستسلم للرض وأخذ يستعد للحرب ،
ثم نزل الصليبيون إلى البر الذي كان قد عسكر فيه لقيف من المصريين ، وما لبثت
الحامية المصرية أن رحلت تحت ستار الليل حيث المسكر السلطاني مع حامية
دمياط ، مع عرب بني كنانة ، ولقد لقي شيوخهم من السلطان عقوبة الاعدام
شنتاً ، وأخذت البلاد المصرية تعد العدة للمقاومة بينما كان الصليبيون يزحفون
نحو دمياط مباشرة بعد السحاب الحامية المصرية فوجدوا أبواب مدينة دمياط
مفتوحة فدخلوها بغير قتال ، وكان موقف الصليبيين أقوى من موقف المصريين
من جميع الوجوه ، ومع ذلك لم يستطع الصليبيون وملصهم الفرنسي أن ينال
من مصر شيئاً . أمر السلطان الصالح أيوب بانتقال الجيش الأيوبي المصري إلى
المنصورة ، وأعد المدينة التي جعلها معسكراً سلطانياً في حين أخذ الملك الفرنسي
يحصن دمياط بعد دخولها مباشرة ، وأخذ القناصة من المصريين يغيرون ليلاً
ونهاراً على المعسكر الصليبي لمعرفة حركات الجند .

وأخذت القوات الصليبية تزحف نحو المنصورة . . إذ ذاك توفي السلطان
أيوب فقامت زوجته وكان اسمها شجرة الدر في السلطنة ريثما يصل ولي العهد إلى
مصر من ولايته بالبلاد الفدائية . ثم استطاع ذلك الملك الفرنسي أن يصل بجيشه
إلى بلدة البرمون على البحر الصغير ، وعسكر على حافته وتناوش الجيشان مدة
شهر ونصف وحاول الملك الفرنسي إقامة جسر على البحر لينتقل منه إلى معسكر
المصريين ، ولكن ضاعت جهودهم أمام القذائف النارية المصرية وحاول أن يعبر
بطلائع من الجيش بقيادة أخى الملك فتقهقراًمامها الجنود المصريون إلى المنصورة
تقهقراً آثار غرور القائد الفرنسي ، فأسرع نحو المنصورة متناضياً عن نصائح
رفاقه القادة ، غدير أنه لم يلبس أن خاب ظنه لمكيدة رتبها ببيرس بموافقة
شجرة الدر .

فقد كمن يبيرس بالقوات المصرية في كائن متعددة حول المنصورة ، ولقد دخل الجيش وجد مدينة خالية ، فانتشر جنوده في الأزقة والحارات تمهيداً للذهاب إلى القصر السلطاني لطلب التسليم ولكنه لم يكديقترب من أسوار القصر حتى حمل الجيش الأيوبي المصري على الصليبيين حملة فجائية أبادوا الجنود وتآده في بضع ساعات .

أخذ الملك الفرنسي بعد السكارثة يعب البحر الصغير زاحفاً بجيشه الرئيسي وقد احتاط لما سيقوم به الجيش المصري من حركات هجومية لدفعه إلى الوراء ، ومضى القتال بين الطرفين بين نصر وهزيمة ، ووصل السلطان الجديد طوران شاه المنصورة ، واتخذ تدابير حربية كفلت هزيمة الصليبيين في أقل من شهرين .

ولقد أحضر السلطان أسطولاً من السفن الخفيفة وحمله شمال المنصورة حيث تم تركيبها وتعميمها في النيل لمنع المؤن من الوصول للعدو من دمياط . فاستولى على عدد كبير من السفن التموينية الصليبية فهدد الجيوش الصليبية بالجماعة وانتشرت بهم الأمراض ، فحاول الملك العودة إلى دمياط بجيشه سالماً ، فعمد إلى فكرة مفاوضة المسلمين على أساس الجلاء الصليبي عن دمياط ، مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين ، ولكنه لم يجد سميماً أو مجيماً ، فبدأ الجيش الصليبي في التقهقر في البر وكان ذلك إيذاناً بخروج الجيش المصري من المنصورة . لمطاردة الصليبيين فلم تلبث هذه العملية أن انقلبت إلى حركة هجومية تموينية لإجبار العدو على التسليم ، ومالبث الملك أن أصدر أوامره بالتسليم بغير قيد أو شرط . جاءت طائفة من الجنود الأيوبي المصري لتحملة أسيراً مكبلاً في السلاسل الحديدية إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيا إبراهيم ابن لقمان .

وقد ازداد عدد الأسرى في المنصورة وتم فرض شروط الجلاء . يدفع فدية خالية يتعهد أن يدفعها الملك كما تقرر أن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه وتسليم دمياط قبل إطلاق سراح الملك وقد أسى المصريون بالمدة التي أعقبت رحيل الصليبيين عن مصر أيام الأفراح إذ أقيمت الحفلات وكتب الشعراء القصائد التي تناشدها المصريون وتغنوا بها وقد وردت في كتاب المقرئ الذي حفظ تاريخ هذه الغزوة الصليبية .

وانتصر الشعب المصري وحاربت مصر بنجاح ضد قوى البحر والبر بعد ذلك وقد تمت المعارك الدفاعية أو الهجومية لاني أرض مصر بل في ساحة الشام.

وكان لمصر في ظل الإسلام طابعها القومي حتى في ظل التبعية وكان لها في حدود التبعية ملحقاتها في الحجاز والشام دولة داخل دولة وكان المثل الدال على ذلك حركة علي بك الكبير في القرن الثامن عشر من فتح الحجاز والشام لحسابه ، والمثل الثاني هو محمد علي في مصر ففي ظله تحولت مصر من ولاية عثمانية إلى امبراطورية مصرية .

وفي إطار هذه التبعية اختلفت مصر مع تركيا فتقدمت إلى حدود الأناضول تهددها وقد انتصرت عليها في حمص ونصيبين .

وكان ظهور الامبراطوريات البحرية بداية كوارث لمصر بدأت على يد الحملة الفرنسية وهي وإن فشلت فقد كشفت لبريطانيا البحرية أن مصر عنق الهند وشريان امبراطوريتها فدمرت من أجلها امبراطورية محمد علي ولقد أخذت خطورة الموقع تفرض ضربيتها على مصر وتزيد من حدة الاحتكاك بيننا ، والغريب أن أثناء ذلك قاومت مصر الأعداء بوحى من طابعها القومي صامدة في نظرتها إلى الغرب المعتدى وتأخذ ولا تتأثر وتقاوم في صمت على نحو حفظ لها استمرار ذلك الطابع ، ولكن كان نضالها يكشف عن تطور في سمات الطابع القومي بالقدر الذي عبر به عن المزيد من الإيجابية الملموسة عما قبل .

الفصل الرابع

الصمود

في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر

إن المصري من سماته الرئيسية حبه بطبيعته للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد كبير. حبه الأمة كأسرة كبرى ، وهو يحافظ عليها كما تحافظ جميع الأسرات ولكنه يفرض في ذلك إفراطا للحفاظ على تراثه الذي اندمج فيه وجدانه اندماجا كاملا نبع من وجدانه الأصيل .

وهو ينسى كل شيء إلا وشائج الرحم ، وآداب المجتمع والأسرة ، فلا يزال في نفسه ذلك الأثر المنحدر إليه من أجيال وأجيال عاشت جميعا في ظل الأسرة وقيمها ، لذلك فهو اجتماعي من ناحية الأسرة لعراقة المعيشة الحضرية ، واجتماعي من ناحية نظام العادات والتقاليد ، ولهذا كان ذلك أقوى ما يربطه بالمجتمع وبالحياة القومية .

فإذا كان محافظا في مسلكه إزاء الأسرة والعقيدة فإنه كان متمردا في مسلكه نحو من يحاول المساس بهذه المقومات ولا يراعى مدى امتزاج نظام البيت والأسرة فلا مشاحة في أن ينقلب ثائرا في وجه الحملة الفرنسية لأنها جاءت لتوغل في المساس بمقومات حياته .

لقد جاءت الحملة الفرنسية عدوانا يتخذ أساليب قاسية ماهرة تنفذ إلى قلب هذا المجتمع ، وتطرق مكامن وجدانه ، وما رسب في أعماقه من مقومات هذا المجتمع ، فكان طبيعيا أن يثبت في وجه الاحتلال فلا يكون الصراع بين طرفين قوامهما جيش أعزل وجيش حديث العتاد والسلاح ، بل بين مجتمعين متناقضين ، فلا بدع أن تنطلق مصر مدفوعة بروح واحدة تربط عناصرها بالمماليك أعداء الأمس بوحدة من الشعور المهادى للحملة ، ولا بدع أن يلتزم هؤلاء مع الشعب عندما أحسوا أن انتفاضة تدينهم من غاياتهم ومن ثم انبثقت روح المقاومة الشعبية توازرها قوات المماليك في الداخل ، وتساندها تركيا وحلفاؤها من

الخارج ، وقد جاء ذلك الانبثاق شعوراً اجتماعياً يمثل بدور وعى قومي سياسى
يتبياً من ذلك الوقت ليكون على مسرح السياسة المصرية فيما بعد حدثاً كبيراً .
بدا هذا الروح يتجلى منذ بمقدم الحملة واستقرارها في الاسكندرية في أواخر
يونيه سنة ١٧٩٨ بمقدار ازدياد وطأة الاحتلال وغلوه في السيطرة على
مقومات المجتمع واستثارته الفكرة الإسلامية ، خصوصاً وأن ذلك كان يحدث
في ظل نظامه الإدارى الصارم وبمقدار مساندة العوامل الداخلية والخارجية .

علم المصريون بمقدم الحملة من أنباء أتهم من الأستانة فبدءوا يتطلعون
إليها تطلع الريب . ومنذ أن احتلت القوات الفرنسية مالطة بدأت أنباؤها
تسرب في وضوح إلى مصر ، فلما تأكدت أنباؤها حين حضر نلسن إلى ثغر
الاسكندرية في ٢٨ من يونية سنة ١٧٩٨ متعقباً الأسطول الفرنسى بغية القضاء
عليه أنبأ حاكم الاسكندرية باحتمال حدوث الغزو الفرنسى لمصر فأخذت
الاسكندرية تستعد لمقاومة الغزو .

تحركت مشاعر الأهالى خشية المزيد من الكوارث على يد الفرنسيين وكان
يعترى شعورهم ذلك الولاء المسيطر للفكرة الإسلامية فأخذوا يستمدون
للمقاومة . . فحصنوا الحصون والأسوار ، وحلوا السلاح ، فانضم إليهم المغاربة
من ضواحي الثغر ، فلما استطاع نابليون إنزال قواته في العجمى — غربى
الاسكندرية — والزحف بها إلى الاسكندرية ودخولها واجه ألوانا من المقاومة
الشعبية في كل أنحاء المدينة حتى كاد هو يقتل بين شوارعها .

وحاول نابليون معالجة الموقف بالمدينة بضغطة على المقاومة الشعبية عن
طريق تعيين كليبر أحد قواده ، لما عرف عند من الشدة والصرامة ، ثم
محاولة كسب ثقة الأهالى بالابقاء على حاكمها من قبل السلطان (محمد كريم)
محافظة عليها من قبل الفرنسيين ، ولكن بالرغم من هذا ، كان الأهالى يتحينون
الفرصة للمقاومة وعلان كراهيتهم لهؤلاء الغزاة حتى لم يجد هؤلاء بدا من الشك
في (محمد كريم) كعرض على الثورة والقتال ، فاعتقل وبعث من إلى قائد
الأسطول وصودرت أملاكه ثم نقل إلى رشيد ، ومنها إلى القاهرة ، فلما ثبت

الذى الفرنسيين عند دخولهم القاهرة ، فيما بعد مدى تحريضه على القتال إذ عثروا على ما يؤكد ذلك من مراسلاته للمماليك حکموا عليه بالاعدام .

ومن الاسكندرية انتشرت أنباء الحملة ووسائلها التصفية في أنحاء البلاد ، كما انتشرت معها أبناء المقاومة الشعبية في الاسكندرية فكان ذلك كله أداة عبأت شعور المقاومة ، وهيأتها بيمان جديدة ووقفت البلاد كلها مستعدة لمواجهة الغزو . بشقى ألوان المقاومة أينما حل وسار .

فما كاد نابليون يتحرك من الاسكندرية إلى القاهرة حتى واجه ألواناً من المقاومة زادها شدة عناء السير وهددت خطوط مواصلاته إلى قاعدة الغزو وإلى القاهرة ، وعبثاً حاول الاطمئنان على سلامة قواته بين المدن والمواقع الهامة بعد أن قطع شوطاً كبيراً في سيره في النيل وعلى شاطئيه .

لهذا أمر بتسيير كتبية طوافة تجوب بعض جهات مديرية البحيرة . وتخرج منها على دمنهور ، ثم تفتنى إلى رشيد ، (فأبو قير) ثم تعود إلى الاسكندرية . فلما تقدمت تلك الكتبية إلى دمنهور أحست بذلك الروح المعادى الذى نمته أخبار الحملة ضدها .

وكان أهلها على علم بمجيئها وبطبيعتها وأهدافها واعتدائها على سكان القرى الآمنة فلما دخلت دمنهور لقيت تمرداً شديداً بعد أن لقيت عتياً ومشقة في طريقها إلى دمنهور ، فقد اجتمع في هذه المدينة نحو ستة آلاف مقاتل ، يملتون طرقاتها وشوارعها ، وإذ ذاك لم تجد هذه القوة سيلاً للعبية ، إذ قاومها الأهالى بشدة حتى اضطرت إلى الجلاء عن المدينة والتراجع إلى بركة غطاس ، وهناك هاجمها العرب مرة ثانية فلم يسعها إلا العودة إلى الاسكندرية منهوكة القوى تلتقى على القادة الفرنسيين والجنود من المعانى ما كان يخيب رجاءهم في الغزو وما دفعهم للذهول من صعوبة الموقف ، فلم يكن هؤلاء يتوقعون من شعب مصر الأعزل تلك الطليعة الباسلة من المقاومة التى جاء على يديها النذير ، ولم يستطع الفرنسيون احتلال دمنهور إلا في أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ .

وفي الطريق من الاسكندرية إلى شبراخيت لاقى الحملة الفرنسية متاعب جمة
أثارها البدو الذين ردموا في طريق الجيش الزاحف الابار ، وهددوا زحفه .
فلما بلغت شبراخيت كان للقاومة الشعبية دورها الكبير في سير المعركة وإلحاق
الاضرار بالحملة .

وتلاقى الجمعان عند شبراخيت ، وكان قوام قوات مرزاد أسطولا نهريا مسلحا
يحمل اثني عشر ألف مقاتل كان معظمهم من الأهالي الفلاحين المسلمين مع لضيف
من العريان ، فلما التقى بهم الأسطول الفرنسي بالقرب من شبراخيت قام الأهالي
على شاطئ النيل فشاركوا جيش القاهرة وأهلها في القتال وأخذوا يهجمون
على الأسطول الفرنسي بمختلف الوسائل حتى أغرقوا خمس سفن منه ثم استولوا
على سفينتين مسلحتين ، إلا أن قوات الفرنسيين تمكنت من القضاء على جيش مراد
وأغرق أسطوله .

وتقدمت الحملة نحو القاهرة فأخذت أنباؤها تستثير الأهالي وتوجس الناس
منها خيفة ولكن سرعان ما انقلب الخوف في القاهرة الى نقمة وغضب دفعهم
للاستعداد لمواجهة هذا الغزو والدفاع عن مدينتهم في الوقت الذي اتهمك فيه
المماليك في تدبير أمر رحيلهم عن البلاد فراراً من الغزو .

وقبل أن يبلغ نابليون مشارف امبابه ويحتم فيها أوار المعركة خرج الناس
الى الثار وتركوا أعمالهم الخاصة منهمكين في تدبير شئون الدفاع ، وإذ ذلك
أخذ المتطوعون يقدون إلى بولاق لمواجهة جيش الغزاة ، بل انتقل الكثيرون
منهم إلى ساحة المعركة ذاتها حيث عسكر مراد بك بفرسانه وعتاده ومخدراته في
امبابه وقدر عدد الذين اشتركوا منهم في المعركة بعشرين ألفاً من المقاتلين عدا
سنة آلاف فارس من المماليك .

ودارت المعركة غير متكافئة فانهزمت قوات المماليك ، وكان طبيعياً أن
تهزم قوات مراد بك أمام قوات فرنسا الحديثة التشكيل والقيادة والسلاح ،
ولكن روح الشعب لم تضعف ولم تهزم ، بل ظلت الحوادث تصقله وتدفعه كل
يوم إلى النمو والترتب والصمود .

لقد هزمت قوات مراد بك وفر بما ليك ، ووقف الشعب وحده يحمل عناء مواجهة الموقف في ثقة ، ويكفي أن نعلم أنه قد تحمل وحده بهذه الحركة هول الكارثة ، بل وعبه النضال ومشقة الاتصال بالفرنسيين لعلاج الموقف .

ولم يجد هذا الشعب بدأ من التقدم للتفاهم مع نابليون دون ما استسلام لوضع أسس الأمان في البلاد فقام زعماءه بالمهمة .

ثم انتقل نابليون بجيشه من الجيزة إلى القاهرة عاصمة البلاد وعقلها المفكر ، ونخيل إلى نابليون بعد أن استقر مقامه بالقاهرة بقليل أن الأمر قد استتب له ولكنه ما كاد يستقر حتى كان السبيل قد هيء للمقاومة الشعبية - بتحطيم الأسطول الفرنسي - كي تعبر عن وجودها بمزيد من القوة .

وتحطم أسطول نابليون على يد نلسون في أبي قير بعد دخوله القاهرة بقليل ، فأخذت الحملة تبدو في أعين الناس كأي شيء تسرى عليه قوانين التغيير ، وبدأت هيبتها تنهار .

ومع هذا الجيش أينما سار انطلقت المقاومة الشعبية تساجل الجيش الفرنسي القتال إبان امتداده في الشمال وفي الجنوب خلال شهور : أغسطس وسبتمبر و أكتوبر سنة ١٧٩٨ حتى إذا ما أشرف الشهر الأخير على نهايته كانت ثورة القاهرة تمثل أعلى مراتب المقاومة الشعبية .

خذ الأهالي يقاومون الحملة في الوجه البحري ابتداء من شهر أغسطس ، فتجلى ذلك الروح بصفة خاصة في مديريات المنوفية والغربية والدقهلية يغذيه موقف تركيا المعادي من فرنسا ، فقد أعلنت عليها الحرب في سبتمبر كما تحطم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير على يد ناسن . ففي منوف ، وفي فريق غمرين وتما الواقعتين شمالا - أعرض الأهالي عن التعاون مع قوات الخرو فلما أكرهوا على ذلك اصطدموا مع القوات الفرنسية في قتال دام .

وفي طنطا بدأت طلائع الثورة فيها في أوائل أكتوبر ، وامتنع أهلها عن سداد الضرائب التي كان قد فرضها الاحتلال ، فلما اختل الأمن تقدمت سلطات الاحتلال إلى أئمة مسجد السيد البدوي لأخذ المواثيق للمحافظة على الأمن ،

فأسرع الأهالي بأسلحتهم لإنقاذ الموقف ، ومحاربة الفرنسيين وهم يصيحون صيحات الغضب ، وقد أقبل عليهم أهالي البلاد المجاورة يعاونونهم لما رأوا جموع هذه الجماهير ثائرة مسلحة وانضم هؤلاء الثائرين ومعهم ١٥٠ من فرسان العرب ، وأخذت هذه الجموع تندفع نحو القوات المعتدية فاشتبك الطرفان وبذلت تضحيات كبيرة حتى عمت المدينة سورة الغضب ضد ذلك الفاصب المعتدى .

ولقد أبدى الأهالي في المنصورة وفي القرى التي كانت تجاورها بسالة كبيرة في مقاومة الحملة الفرنسية عند توغلها في ربوع هذه الأقاليم فقد تمردوا على جنود الحماية ، واتفقوا على الفتك بهم ، وهاجموهم في يوم ١٠ من أغسطس عام ١٧٩٨ ونادى الثوار بالثورة رجلاً ونساء حتى اضطر الجنود إلى العودة سراعاً إلى السفن بعد أن عز عليهم الاستمرار في معسكراتهم ، وقد لقي الفرنسيون عناء كبيراً في إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها المقاومة ، وامتنع كثير من أهالي البلاد عن دفع الضرائب ، وبرغم محاولات الفرنسيين التضاء على الثورة فقد انحصرت في مناطق ميت غمر ودنديط وميت العرنادى في شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ولما استلزمت الثورة قطع المواصلات النيلية في فرع دمياط عهد نابليون إلى الجنرالين (موراوانوس) اخمادها فقاومها وجزودها هؤلاء الثوار في معقلهم الذي احتشدوا فيه وهو دنديط ولما اضطروا إلى الانسحاب انزلوا بالعدو خسائر ومناعب في تعقبهم حتى عجز عن متابعتهم فعاد أدراجه إلى قاعدة هجومه في ميت غمر .

كان الفرنسيون يحاولون اخماد الثورة ولكن بأساليب كانت تستثيرها وتجعلها تنبعث في كل مكان ، لأنها كانت تطرق مقدسات الفرد إذ ذاك ومسكان وجداته : المال والعرض والجاه والنفس وغيرها من المسائل التي كان يعيها الفرد وعياً مباشراً وكانت تصدر من يد معتدية غريبة جارحة .

وامتدت أمواج العدوان الى البحر الصغير بجوار المنصورة وكان طبيعياً أن تمتد معها الثورة .

وفي الوجه القبلي امتدت الثورة تمثل وحدة وطنية صادقة على امتداد التوغل العدوانى وبهذه الوحدة تحقق النصر في النهاية وجلت الحملة الفرنسية عن مصر .

الفصل الخامس

التماك

في مقاومة الإنجليز في رشيد

بدأت الوحدة الوطنية المصرية تتجلى تماسكا لا يعرف غير الصالح العام من خلال النزعة الإسلامية في مواجهة مصر للإنجليز في مطلع العصر الحديث في رشيد .

وكان انتصار مصر على إنجلترا في رشيد نصرا للوعي الطالع وإعلاء لروح الوحدة الوطنية لمصر الناهضة ، منذ أن بزغ فجرها في طليعة القرن التاسع عشر ، وهزيمة للنخلة البريطانية التي مايرت مجرى هذا التطور الروحي في نموه حتى تجلى في صورة أوضح في موقف رشيد ومن ورائها شعب متساند في وحدة وطنية مع جيشه في صد العدوان البريطاني الذي تمثل في حملة فريزر سنة ١٨٠٧

فلقد حاولت إنجلترا في أعتاب جلاء الحملة الفرنسية عن مصر الاكتفاء بصيانة مصالحها بالحيولة دون عودة النفوذ الفرنسي وإعادة تنظيم القوة المملوكية وتمكينها من السلطة في البلاد كقوة موالية لها ، عند ما كان الموقف لاينم عن خطر عاجل وعند ما كانت قادرة على تحقيق أغراضها بالضغط الدبلوماسي تارة والسائس تارة أخرى ، لترجيح كفة نفوذها في البلاد ، فلما فشلت وتغير الموقف وزاد حرجا زاد على أثره حرصها على صيانة مصالحها في الشرق لاسيما مصر ، فأثرت العمل الحربي ، ترسل أسطولها يهدد الباب العالي من جهة ، ويحاول التأثير عليها لإبعادها عن نفوذ فرنسا عن طريق احتلال الاسكندرية من جهة أخرى ، وتحاول الحيولة بالعمل الأخير دون وقوع مصر في قبضة الفرنسيين معتمدة على قوة حلفائها من المماليك ، ثم تتمكن بالتالي - بفضل وجود قواتها في البلاد والاعتماد على قوة المماليك - بتنفيذ الخطة السياسية التي رمت إليها من قبل ، بتمكين هؤلاء من الحكم ، حتى تضمن مستقبلا ، رعاية مصالحها ، لذلك إذا كانت حملة فريزر في ذاتها جزءا من التخطيط الحربي البحري في البحر الأبيض

المتوسط الذي استدعته ضرورة العمل الحربى ، فى استجابة الموقف الدولى المتغير لصيانة مصالح بريطانيا فى الشرق ضد امتداد النفوذ الفرنسى ، فقد كانت الحملة من جهة أخرى وسيلة لغايات سياسية تحققها وتمكن حلفاءها البكوات والمالايك بالنفوذ فى مصر من جهة أخرى لضمان نفوذها السياسى عليها مستقبلا ، بهذا لم تكن أهداف حملة فريزر الرئيسية فى حقيقة الأمر هى احتلال البلاد ، إلا فى حدود ما بذله من نشاط قنصل بريطانيا فى مصر لتبرير أغراض الحملة بعد وصولها .

ولقد بدأت بريطانيا تنفذ خطتها أثر تطور الأحداث الدولية بما أشعرها بضرورة الحفاظ على اطماعها لعمل حربى .

وبينما كانت الحوادث فى الآستانة تجرى سراعا والسفير البريطانى يقدم إنذاره للباب العالى بما تقدم ، أبحر الأسطول البريطانى من قانس فى يناير سنة ١٨٠٦ بقيادة دكورت (١)

ولقد رأت تركيا أن الدخول فى حرب مع بريطانيا أمر على نقيض مصالحها لذلك أرادت أن تستعمل السفير إلا أنه كان ساخطا فشاءت الحيلولة بينه وبين الأسطول البريطانى ، فتقرر أن يودع السجن ، لكنه عند ما علم بذلك دبر خطة حقاء للهرب من العاصمة التركية ، فدعا معظم أفراد الجالية البريطانية إلى ولية على ظهر السفينة أندميون من أجل الترفيه ، وحدث أن غادرت السفينة الميناء فجأة ، وكان الضيوف لا يعلمون من السر شيئا ، إلا أنها لم تلبث أن وقعت فى كمين أعد لها ومن ثم سبق السفير إلى السجن وحيل بينه وبين الأسطول البريطانى . ولما وصل دكورت إلى ميناء تندوس فى ١٥ فبراير كان قد علم بأمر السفير فأبرق إلى الجنرال فوكس ليسرع بإرسال القوة البحرية إلى الاسكندرية .

وأبحرت القوة إلى الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر فى ٦ مارس سنة ١٨٠٧ من ميناء صقلية بقوة صغيرة معتمدة على قوة الماليك وضعف تركيا ، وكان قوامها جنودا من المستعمرات البريطانية عددهم ستة آلاف جندى يشكلون فرقتين ، لم يكن من ضباطها من يعرف الشرق ولا أسهم فى الخدمة فيه عدا

(١) دكتور عبد العزيز رفاعى : انتصار مصر فى رشيد ١٨٠٧

الجنرال ميد ، ويبدو أن الباب العالي هو ومحمد علي كانا يتوقمان هجوما بريطانيا ،
بدليل أن الوالي حاول إيفاد حامية من الجنود الألبانيين إلى الاسكندرية إلا أن
قنصل بريطانيا المستر مست الذي كان يعلم بأمر هذه الحملة البريطانية وموعد
وصولها الاسكندرية — دأب يستدرج الوالي حتى ألغى أمر إيفادها ومن ثم
قام محمد علي إلى الصعيد يحارب المماليك ، ويحاول كسبهم إلى جانبه ، بينما تولى
مست تأليب القبائل العربية لتساعده على استقبال الحملة وتسهيل مهامها كما كتب
للمماليك بعدم بالأمل المرتقب .

وعلى غير علم — بما يكتبه القدر للحملة القادمة ودون حساب لاحتمال تغيير
الظروف الداخلية ضدها — تقدمت تلك إلى مصر لتواجه تحالف الظروف
عليها وتشهد مصرع الخطة البريطانية التي جاءت لتنفيذها ، وذلك بفضل
تسكل المصريين ووحدتهم صفاً واحداً ، شعباً وجيشاً لمواجهة العدوان البريطاني
على مصر .

وقبل أن تلتقي الحملة ، مراسيا في الاسكندرية بأربعين يوماً كانت بريطانيا قد
فقدت صديقتها وحليفها الألفي بالوفاة ، خسرت بهذا عميلاً قوى الشأن واكتفى
الشعب بوفاة ، شر خصم كان مقدراً أن يكون ثغرة قوية في تماسك وحدته كما
خسرت بريطانيا القوة التي كانت تتوقع العون على يديها في مصر .

كان الألفي ، والحوادث الدولية تجري سراعاً ، ينتظر مجيء العون البريطاني
على أحر من الجمر ويرقب مجيء هذه الحملة ثلاثة شهور وقد طال انتظاره حتى
شكا فرسانه وجنوده لشدة ما اعتراهم من الجهد وهم يعسكرون في دمنهور ،
فلم يسهه في النهاية إلا أن حمل عصاه راحلاً إلى الجنوب مقهوراً ، وكان يأمل أن
يجعل من دمنهور معقلاً يقيم فيه حتى تأتية النجدة ولسكنها تأخرت ، فلما تأزم الموقف
ونفذ صبر من معه ، جانبه إخوانه وعشيرته ، فخذلوه فارتحل من البحيرة بجيوشه
قاصداً الصعيد يملأ قلبه اليأس والقنوط ، وفي أوائل يناير سنة ١٨٠٧ وعلى
الطريق المشرف على القاهرة ، رنا ببصره إليها متحسراً وكأنما يلتقي عليها الوداع
الأخير ، إذ ذاك وافته المنية في الطريق في الوقت الذي كان الانجليز يحشون

خيه السير في حماس نحو مصر للالتقاء به، ولكن شاء القدر أن يفضل بين القوتين
فيؤثر في مجرى الحوادث إلى حد كبير .

وخسر الإنجليز قبل مجيئهم قوة لا يستهان بها في عونهم على تحقيق مأربهم ،
وقد ترك الآلني وراهه فراغاً لم يستطع المماليك أن يملئوه ، فقد تفرقت كلمتهم
من بعده وأخذت كفة محمد على تتأهل في ذلك كقوة موحدة في وجه الإنجليز .
ومات البرديسي فتخلص منه ، ومات الآلني فاستراح منه فصعد على انقاضهما ،
واشدد ساعده ، وكان الشعب يستعد لملاقاة الإنجليز قوة بجانب قوة محمد على ،
كل يكمل بعضه بعضاً ، ولم يكن ذلك الشغب الخانع الذي كاد يحطمه تماماً العهد
العثماني ، بل كان ذلك الذي برز في جولاته في الكفاح ضد طغيان الاستعمار
الفرنسي وضد الطغاة من الحكام الأتراك .

وقد بدأت الثقة ترتد إليه أثر اختيار حاكمه بنفسه ، وتعبير عن إصراره
بصيانة هذه الإرادة وباستمراره في الكفاح من أجلها فكان متوقفاً أن يقف
ضد الغزاة كما كلفهم من قبل وأن يقف بجانب حاكمه الجديد كما كانت وقفته
الرائعة من قبل ومن ثم كان الموقف الداخلي في مصر قبل مجيء الحملة غير مهد
السبيل ولا ميسوراً أمامها .

واقرب الطرفان نحو النضال الحربي في سواحل مصر والقدر يحجب عن
كليهما مدى قوة خصمه وتتقدم الحملة في ثقة من عون المماليك واستهتار بالقوة
التركية في مصر دون حساب لتطور الظروف الطارئة بالقوة فلا تحمل على ظهرها
سوى قوة محدودة .

وتتبعاً مصر لمقاومة العدوان فتزداد الجبهة الداخلية تماسكاً وإن بدت في
البداية هيابة من الغزو ، فقد كان ثمار الالتحام الأول الذي قدر بعد ذلك أن
يتم بين ساحة رشيد أثره الأكبر في استسكال هذا التماسك ورد الثقة إليها في
قوة روحية أعلى .

وبينما كانت الحملة في طريقها إلى مصر ، كانت مصر تتسمع أنباءها قبل أن
تلقى بمراسيتها في الإسكندرية من الرسائل الواردة من الآستانة ، فأخذ الأهالي

يستمدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية من قبيل ، فتولى زعيمهم
عمر مكرم زعامة هذه المقاومة الشعبية وشرع - كما يقول الجبرتي (فبراير ١٨٠٧)
أهل الاسكندرية (في تحصين قلاعها وابراجها وكذلك ابو قير . . .) وبجانب
ذلك أخذت اباؤها بحكم الطبيعة تؤثر في نفسية الشعب فحدث ثمة قلق ولغط ،
كما أخذت الاسعار في الارتفاع .

وبدأت الحملة تلتقي بمراسيها في الاسكندرية ، فشاء الاسطول أن يقوم أولاً
بعملية استطلاع فأقبلت أوائل مارس عام ١٨٠٧ سفينة انجليزية إلى مياه الاسكندرية
دون أن تخبر بأسباب حضورها ، وما لبثت سفينة أخرى أن جاءت الثغر في ١٤
مارس فاستدعت القنصل الانجليزي ميست وسرعان ما استجاب الأمر لمقابلة من
فيها ، ولما عاد أرسل مبعوثه برسائل الى المماليك في الصعيد لإخبارهم بقرب
وصول الحملة الانجليزية المرجوه واستدعائهم إلى الوجه البحري كي يكونوا في
عونهم على الغزو بعد أن بلغهم آسفين بموت زعيمهم الالفي ، بينما كان محمد علي
يحاول القضاء على المماليك كقوة بالحرب تارة ومحاولة استرضائهم تارة أخرى
باقتسام بعض النفوذ في البلاد .

احتلال الثغر :

وعادت السفينة الانجليزية في ١٦ مارس تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن
الأخرى وألقت مراسيها بالميناء الغربي ثم نزل منها ضابطان وطلبا مقابلة محافظ
الثغر أمين أفا ، وكانت الاسكندرية إذ ذاك تمثل في ذاتها إدارة تركية مستقلة
عن إدارة مصر وكان حاكمها هو امين أفا من ضباط الآستانة ، وقد تواطأ مع
الغزاة على تسليم المدينة نظير رشوة من المال . وقد أعطاه هذا المال قنصل انجلترا
فلما قابله الضابطان اتفقا معه على أن يسلم المدينة دون مقاومة ، ولم يكذب يطلع يوم
١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الانجليزية مكونة من خمس وعشرين سفينة بقيادة
الأميرال لويس ، ثم أخذ جنود الحملة ينزلون مساء ذلك اليوم في الشاطئ العجمي
ولم يلبث أن زحف الجيش إلى الاسكندرية ، وهناك عسكر الجنود تحت أسوراها
وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير ، وبعد مضي يومين في مفاوضات

حسوية بينهم وبين محافظ الثغر ، انتهى الأمر بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه معظم حامية المدينة ، ومن ثم دخل الإنجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أية مقاومة وقد توجهوا من حاميته إلى دمنهور .

واحتلت الحملة الاسكندرية وكتب القنصل الإنجليزي مست اذ ذلك يقول :
(لو أن محافظ الاسكندرية صمد للقوات مدة ٤٨ ساعة قبل عملية انزال الجنود الإنجليز إلى البر لما أمكن نزولهم ، ولكنه كان قد مل عسف الحكومة وظلها .

موقف الشعب من الحملة :

واخذت أنباء الحملة تترى تباعا من الاسكندرية بعد احتلالها وتختلف في تفاصيلها ، فتكثرت الاشاعات حولها فتستمع البلاد إليها دون أن تثبت من حقيقتها حتى استقرت أخيرا في النهاية انبأؤها في القاهرة فأدرك كنهها الناس ومن ثم بدأ الموقف يتغير لمواجهتها والاستعداد لايقاف ما يحتمل أن ينتهي إليه الاحتلال من زحف إلى داخل البلاد . وكانت رشيد هي الساحة التي لقيت بريطانيا فيها هزيمتها الأولى على يد الوعي الصاعد للبقاومة الشعبية .

وبلغت أنباء الحملة أحد زعماء المماليك في الفيوم وهو ياسين بك ، فأخذته نزعة الدينية ، فتحرك شمالا حتى بلغ دهنشور فأرسل للسيد عمر مكرم والقاضي وغيرهما انه تحرك بعد أن أخذته الحمية الاسلامية — ليواجه الغزو البريطاني وفي صحبته ستة آلاف من الجند ليرابط بهم بالجيزة أو قليوب ويجاهد بهم في سبيل الله ، فكتبوا له أخباريه . (مضمونها : إن كان حضوره بقصد الجهاد فينبغي أن يتقدم بمن معه إلى الاسكندرية وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء فانه لا فائدة لبقائه في الجيزة أو قليوب . .) وقد خشى المسئولون أن يكون وراء هذه التبعة مطامع خاصة في الجيزة وغيرها ، لذلك وضعت خطة تحول دون تنفيذ سيره ومآربه .

في ذلك اليوم الذي بدأ فيه هذا النشاط ٢٧ مارس تلقت القاهرة من صحیح الانباء ما أوقفها على جلية الموقف من استيلاء الإنجليز على الاسكندرية وامتلاكهم قلاعها ومسكنى قائدهم بيت القنصل .

وتسمع الناس لأنباء الغزو في أصواتها الجديدة ، وما انتهت إليه علاقة الانجليز في الشتر مع الأهالي من شروط شاء الاحتلال تحديد علاقته بهم ، ولقد كان لثبوت حقيقة الغزو آثارها في مجرى المشاعر العامة بين المصريين .

حالة الجنود العثمانيين :

بدأ تأثير ذلك بين الجنود خوفاً ووجلاً بأعمق مما بدأ في غيرهم ، وكان هؤلاء خليطاً من الأرنؤود والترک من المرتزقة وغير النظاميين فئة لا يهتما مصالح البلد الا ما تؤديه خدمة لأغراضها في إطار خدمتها في سلك الجيش العثماني ، دون مصالح الأهالي أو مصالح مصر المباشرة فلم تسكن إذ ذاك وطناً لهم يرتبطون به ارتباطاً روحياً فلما علوا بالغزو امتلأت قلوبهم رعباً وآثروا — والمحنة على أشدها — ترك المصريين وحدهم فيها وإن بدت آثار ذلك الغزو بين الشعب ، إلا أنها لم تلتهم بهم إلى التفكك ولسيان الواجب كما بدت من هؤلاء .. وقد كانت مصر وطنهم الذي احتوهم دهرًا ، وعاشوا فيه مندجين في حياة واحدة وقد جمعهم من قبل وحدة السكفاح ضد الفرنسيين والانجليز والاتراك ، فليس بدعا أن يصعد الشعب ويفر غيره من الجنود ذعرا أمام حقيقة الاحتلال .

فر كثير من الجنود الالبان منذ أن ابتليت الاسكندرية بالاحتلال إلى داخل البلاد، واحتوت دمنهور عددا كبيرا منهم فلم يسع شعب هذه البلد ، عندما أمر ذلك على حاميتها حتى همت بدورها بهجرة هذا البلد ، إلا انهم واجهوم باللوم والتفريع ، فلما بلغ دمنهور جنود الاسكندرية الفارون اثاروا الرعب في قلوب حاميتها عندئذ أنزعج كاشف دمنهور هو ومن معه من الجنود وعزموا على الخروج منها فلما أحس الأهالي خاطبهم أعيانهم قائلين لهم وكيف تتركونا هنا وتذهبون ولم تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الالفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا في حروب الانجليز ، ولكنهم رغم هذا لم يستمعوا إليهم لشدة ما داخلهم من الخوف فحملوا متاعهم ومعهم الكاشف وهاجروا من البلدة إلى فوة على عجل ، فلم يسع أهل البلدة إلا أن أبلغوا ذلك إلى زعيم مصر إذ ذاك عمر مكرم شاكين في ألم وسخرية .

يتناول الجبرتي (ولما شاع احتلال الاسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم ، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للتضاميين والمستقرضين بالربا ، وابدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش والفراشة التي يشغل حملها بالذهب البندقى والمحجوب الزر لخفة حملها حتى أنها زادت في المصارف بسبب كثرة الطلب لها ، وبلغ صرف البندقى المشخص الناقص في الوزن أربع مائة وعشرين نصفاً ، والزر مائتين وعشرين ، والفراشة مائتين واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك وسعوا في مشتري أدوات الارتحال والأموال اللازمة لسفر البر وفارق كثير منهم النساء وباعوا ما عندهم من الفرش الأنيقة (١) .

موقف محمد علي في الصعيد :

توغل أنباء الغزو إلى قلب الصعيد لتصل أنباؤها إلى محمد علي كما وصلت رسائل الانجليز إلى زعماء المماليك فيتردد صداها بين جوانح الجميع تثير فيهم انفعالات متضاربة .

وإذ ترك آثارها هما ورعباً في نفس محمد علي ، فقد بدت بالتالي بين المماليك منعشة لآمالهم تملأ قلوبهم بالرجاء لتحقيق مآربهم في البلاد وقد قربت الاحداث بين هذين الطرفين المتخاصمين فأخذ محمد علي يعمل ليصالحهم وأخذ هؤلاء في فرض شروطهم عليه ، واحتدمت النزاعات بين الطرفين في شكل مغالبة يقوم بحورها على رغبة كل في نيل مآربه على حساب خصمه .

كان محمد علي يعلم مقدماً من الباب العالي باحتمال غزو الانجليز مصر عندما هم بالتوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك وإخضاعهم بالقوة ليتفرغ لما يحتمل أن يحدث ولكنه لم يفتحه مع هذا أن يستخدم المصالحة أولاً لبلوغ هدفه عند اللزوم إلا أنه آثر في البداية المضي في الحرب معهم حيث لم يجد ما يدفعه التدهيل باستخدام أساليب المصالحة .

طلب وهو بالصعيد ثلاثة مشايخ من القاهرة للتأثير عليهم من خلال النزعة

(١) عبد الرحمن الجبرتي .

الإسلامية ليكفوا عن الحرب ويقفوا معه في المحنة في مصالحة بين الطرفين بينما كان يركز اهتمامه على أداة الحرب لاختضاعهم .

فوصل المشايخ إلى ملوى ، وهناك استأذنوه في الذهاب إلى ما اتوا إليه للسمي للصلح ولكنه تركهم في ملوى وذهب إلى أسيوط وأودع الجماعة بمنفلوط ، ثم تلاقي مع الأمراء وحاربهم حتى ظهر عليهم وعند ذلك حضر المشايخ المذكورون فأرسلهم إلى الأمراء وكانوا بالجانب الغربي بحماية ملوى . فتنفواضوا معهم فيما اتوا بسببه ، وما كانت في البداية ، وزادهم في الأمر تردددا شعورهم بالقرب من مساندة الإنجليز لهم لتحقيق مآربهم . إذ ذاك اجابوا على رسل محمد علي قائلين (كم من مرة يرسلنا في الصلح ثم يغير بنا ويحاربنا) مفنديين أمامهم مخالفتهم لاكثر الشروط التي عقدت بينه وبينهم . ثم اختلفوا فيما بينهم وتشاوروا في الأمر . ولم يكن هؤلاء متاسكين في الرأي تماما ، فلما علم محمد علي بانباء اختلال الاسكندرية وارسل الرسل إلى المماليك بالوجه القبلي ارتبك في أمره ، ومن ثم أسرع بحث خطى الصلح ويمد يده مضطرا في سخاء لاسترضائهم ، وقد ثبت في نفسه كما يقول الجبرتي : (استيلاء الإنجليز على الديار المصرية) وكان قد اعتزم على الهجرة إلى الشام . وكان يتوقع سرعة مجيئهم إلى القاهرة .

بين العملاء من المماليك :

وبينا كان محمد علي يبدو مهموما إزاء أنباء الاسكندرية كانت رسائل الإنجليز تفيض على المماليك بالبشر والرجاء . حتى أحجم عن تلبية نداء الإنجليز ، ولكن كان جمهورهم يرى في الأمر فرصة قلما تعوض ، لتحقيق مآربهم ولكن في تردد مخافة لو مهم من سكان البلاد لانضمامهم إلى أعداء الدين كما كانوا يعتقدون .

هزيمة أنجلترا الأولى أمام الوحدة الوطنية :

بينما كان المصريون يفكرون في تدبير شئونهم ، ومشاعر محمد علي والمماليك تحتتم بحثا وراء رسم خيوط المصالحة كل وفق أهدافه ، كان الإنجليز في الاسكندرية يفكرون في تعزيز نجاحهم الحربي فيها بامتداد الغزو شرقا حتى رشيد ،

وقد كان وراء هذه الخطة التي ينال عنها القنصل مست أمام التاريخ ، رغبة ملحة منه لاستدراج بلاده لاحتلال البلاد لتزداد بهذا تمكنا من تنفيذ الخطة السياسية التي سعت إليها بريطانيا من قبل ، وضمن مصالحها فيها رغم أهداف الحملة المحدودة .

انعش نجاح الحملة الأولى بالاستيلاء على الاسكندرية القنصل مست ، فبعد أن أرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى المماليك يستدرجهم لمعاونة الانجليز بشقى ضروب الأغراء ، اتبع ذلك بنشاط آخر شاء به جر بلاده لاحتلال مصر .

فقد حاول اقناع القائد الانجليزى فريزر بإرسال قوة من الجنود الانجليز على النيل باحتلال رشيد . محاولا بهذا انعاش الامل في قلوب المماليك وطمانهم بقرب تحقيق آمالهم واستدراجهم لمعاونة الحملة على تحقيق ما كان يصبو إليه هذا القنصل من أغراض استعمارية على حساب مصر . وكان هذا يثق في قوة المماليك ويرجو الخير على يديه .

ولكى يؤثر على فريزر لانفاذ الحملة إلى رشيد واحتلالها استخدم الفس والخداع وسائل للاقناع فبين له في تقرير مطول مدى الحرج الذى يحيط بالجيش الانجليزى فى الاسكندرية إذا لم يتقدم باحتلال رشيد . فلم يعد فى رأيه فى مدينة الاسكندرية كلها إلا التموين الذى يكفى أهلها يوما واحدا فإذا لم يتم على الفور باحتلال رشيد عرض أهل الاسكندرية وجنوده للجاعة . ولم يلبث فريزر أن صدق ما نبأ به ذلك القنصل . فهم باعداد حملة وامرها بالتحرك شرقا لاحتلال رشيد ، دون ما تدبر ولا دراسة عميقة للوقف . ولو كان هذا القائد فى مصر عام ١٨٠١ لعلم أن القائد الفرنسى مينو قد قاوم حصارا مدته سبعة أشهر قوته أكثر من سبعة آلاف جندى بريطانى وقد أغلق فى وجهه ميناء الاسكندرية وكان إذ ذاك فى موقف لا يتمكن فيه من الحصول على اية امدادات من البحر كما هو متاح للانجليز . ولسكن كان قصر نظر فريزر هو الذى مهد لمست أن يغشه ويفرر به حتى هم باعداد هذه الحملة التي لاقت فيها بريطانيا هزيمتها .

وقبل أن يتحرك الجيش تلقى من الانباء فيما كتبه إليه قنصل بريطانيا فى رشيد

لمستبر بترتش ما أوقفه عن حال مصر ومستوى قواتها المحاربة ، وبعد أن درس الموقف صحت عزيمته على احتلالها لجهاز حملة قوامها ألفان من الجنود ، وجعل علي رأسها الجنرال ديكوب ثم أمرها بالتحرك لاحتلال رشيد .

الزحف نحو رشيد :

سار هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس فقطع المسافة بين البلدين سائراً على سطح من الرمال تعتوره تلال كيبانية استنفذت الكثير من قوى الجيش في تحركه بعناده وخيله فبلغ رشيد في اليوم التالي ومن ثم أخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس .

استعداد رشيد :

كان في رشيد إذ ذاك حامية تبلغ ستائة جندي تحت أمرة محافظها علي بك . الشجاع ، فاعتزم حماية المدينة من الغزاة غير مستند إلى قوة هذه الحامية الصغيرة . فحسب ، بل على المقاومة الشعبية المدنية ، وجد المحافظ في الاستعداد للقتال ضد الغزاة وشامت المدينة الباسلة أن تضطلع بالدفاع وحدها . فتفتدى الشعب كله ولم تطلب من القاهرة عوناً ، ولم تنتظر أمراً بالدفاع عنها ، بل انطلقت تدبر شئونها بنفسها في ثقة كبرى لتسكتفي على الأقل شرعبت الجنود الألبان والترك الذين اشتروا بذلك في القاهرة ، وقد كانوا لفيماً من اخلاط السلطة العثمانية الأرناؤوط والدلاة وغيرهم .

خطة رشيد :

ووضعت رشيد الخطة فأمرها كما بإبعاد مراكز التحصينة في رشيد إلى الشاطئ الشرقي للنيل ، كي يقطع خط الرجعة على احتمال ارتداد جنود حاميته إلى هذا الشاطئ . إذا ماسولت لهم أنفسهم ذلك ، ولكي يملا نفوسهم عزماً على الدفاع ، فلا يسلبوا العدو كما سلبت حامية الاسكندرية ، وبهذا ركن مشاعرهم حول الاستبسال في الدفاع بعد أن أصبح النيل من ورائهم والعدو أمامهم ثم أمر الحامية بالتراجع داخل المدينة وأن يتحصنوا والأهالي بالمنازل في استعداد للقتال

على ألا يبدأ ذلك إلا بعد أن تصدر إليهم الأوامر بإطلاق النار .
هزيمة الجيش الإنجليزي :

تقدم الإنجليز ولم يجدوا ثمة مقاومة خارج رشيد وقد بدت وكان حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها أسوة بما حدثت بالاسكندرية ، فتوغلوا في المدينة ودخلوا شوارعها وتحنسوا جوانبها فزادوا اطمئنانا . عندئذ شاءوا التخلص من متاعب السفر فانتشروا في الطرق والأسواق بحثاً وراء أمكنة يستريحون فيها ، ولكن لم يدم لهم الأمر طويلاً إذ لم يشأ حاكم المدينة أن يتركهم ينعمون بالراحة ، فما كادوا يستقرون حتى أصدر أمره بإطلاق النيران على هؤلاء الغزاة ومن ثم انهال عليهم الرصاص من الأهالي من كل حدب وصوب ، من النوافذ والأزقة ومن الأسطح ، فلما فوجئ الأعداء بهذا الرصاص المنهمر عليهم بعث في قلوبهم الرعب فالتقوا ما بأيديهم من أسلحة ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفت إليهم وأخذ الكثيرون يسقطون صرعى أمام هذه المقاومة التي دهمتهم في حماس وعنف ، حتى قتل القائد الإنجليزي ويكوب كما قتل معه كثير من ضباطه ، ولاذ نفر من الإنجليز بالفرار مؤثرين العافية على النضال ، بينما فر ليف من الأحياء في حالة من اليأس متقهقرين نحو الاسكندرية عن طريق (أبو قير) .

وهكذا تنتهي المعركة الحربية بهزيمة الجيش الإنجليزي وقد بلغ عدد قتلاه ١٧٠ قتيلًا و ٢٥٠ جريحاً . أما الأسرى فقد بلغ عددهم ١٢٠ أسيراً .

وقد استطاع الأهالي التعبير عن مشرق جديد للشعب بدأ بوره من قبل ، وكان اتجاهها صاعداً من طبيعة الروح القومي ، وقد تجلى في هذه المعركة كما تجلى من قبل في كفاح الفرنسيين ، فمثل محوراً من التضامن والتساند والشعور بوحدة المصير والثقة بالنفس ، وكانت ممان تدور كلها في إطار الفكرة الدينية ، وقد تجلت صفحة مشرقة في تاريخ الكفاح الشعبي ضد الغزاة في مصر .

أنباء النصر :

بلغت أنباء المعركة الاسكندرية وكان قائدها في شوق لسماحها ولما لم يكن

يتوقع أن تنتهى بهذه النهاية المؤسفة ، فقد أسف لسماح أنبيائها ، وما لحق جنوده
من الهزيمة وقد وصف فريزر هذه المعركة بأنها كانت : معركة غير متوقعة
وكارثة فادحة حلت بقواته .

وارتدت أنباء المعركة على سائر الشعب فازدادت وحدتهم الوطنية فأحسوا
بغبطة النصر وأنعشت أنباؤها الآمال وبعثت في الجميع الرجاء .

الجنود النازحة ترد إلى أوكارها المقفرة فتنتشى بالأمل وتطمع في البقاء
ومداومة القتال ، والشعب الصامد يزداد ثقة على ثقة ، فيحس بتدفق الحياة في
جسمه ، والنسيم القاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس بشرى المشرق الجديد ،
وطيوف النصر تمس القلوب قهقرو وتخلج وكأنما أصبحت رشيد زهرة تفوح
وطلاقة تفيض على من حو لها بالبشر والبهجة ، وقد ارتدت الطمأنينة إلى
النفوس وأخذت تمتلئ بلون جديد من الحماس .

أنعشت هذه الأنباء جنود حامية دمنهور الذين فروا من قبل في جنين مع كاشفهم
عند دخول الانجليز الاسكندرية ، فدفعتهم إلى العودة إلى دمنهور ، وهم يشعرون
بالطمأنينة ، وأخذت الأنباء تنتشر والسعاة ينقلونها إلى القاهرة فيستمع سكانها
إلى هذه الأنباء منمورين بالفرحة حتى كادوا لا يصدقون أنباء رشيد لفرط
ما بلغته من نتيجة حاسمة ، يقول الجبرتي (فضربوا مدافع وعملوشنكا ، وخلع
كستخدا بك على السعاة الواصلين وأسرع المبشرون من أتباع العثمانيين وبعض
القراصنة الأتراك بالسعى إلى بيوت الأعيان ويبشرونهم ويأخذون منهم
البقاشيش والخلع ، وتقبلت القاهرة الأنباء بالبشر والحماس فقد أنزل النصر هيبة
الجملة في نفوسهم تلك الهيبة التي جاءتهم من شهودهم انتصارات الانجليز على الجيش
الفرنسي في مصر وعلى الأساطيل الفرنسية في البحار ، فأخذ الشعب يزداد ثقة
بنفسه وتحفز إلى الاستمرار في المقاومة فنادى الناس بالجهاد وتدفق المتطوعون
إلى القاهرة وغيرها .

وإذا كان من الطبيعي أن تنتهى الأنباء بالبهجة في نفس محمد علي فقد كان
من الطبيعي من ناحية أخرى أن ترد فتملاً قلوب المماليك حسرة على ما أصاب

حلفاءهم وهم يتصالحون مع محمد علي ويحاولون فرض الشروط عليه .

الاسرى فى شوارع القاهرة :

واستمع الناس إلى الأنباء وكانهم كانوا على موعد من شهود موكب الاسرى يشق شوارع القاهرة ليروا بأبصارهم حقائق هذه الأنباء وشهودها ، وحملتهم السفن من رشيد إلى القاهرة فروا فى شوارعها ثم استقروا فى القلعة وكانت إذ ذاك بناء احتوته تلال المقطم ميراثا شهد المجد من عهد صلاح الدين . يمثل طابع العصور الوسطى ويستقبل عهده الحديث بإشراقة شحب يستيقظ من سباته ويفيق من غفلته ويجدد فى كيانه وكان يوما مشهودا كما يقول الجبرتي (١) .

فلما كان يوم الاحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (ابريل سنة ١٧٠٧) أشيع رؤوس القتلى ومن معهم من الاسرى إلى بولاق فخرج الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم للملاقاتهم ، تطلعتوا إلى البر وصحبتهن جماعة المعسكرين معهم وأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم وسط المدينة ومنهم فسيال ضابط كبير وآخر كبير السن وهما راكبان على حمارين ، والبقية مشاة فى وسط العسكر ورءوس القتلى معهم على نيابيت وعدتها أربعة عشر رأسا والأحياء خمسة وعشرون ولا يزالون سائرين إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة ، وفى يوم اثنين وصل أيضا جملة من الرؤوس والاسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسا وثلاثة عشر أسيرا ومنهم جرحى) .

وانتهت معركة رشيد الأولى بهزيمة الجيش البريطانى ، هزيمة ساحقة وانتصار المقاومة الشعبية انتصارا مؤيدا ، وقد شعر الطرفان عقب المعركة بمشاعر متضاربة حفزتهما نحو لقاء آخر والتمحام أشد انتهى بنتائج حاسمة ، رفضت من شأن مصر المكافئة وقضت على ما عقد من رجاء وراء الحملة البريطانية .

شعر الانجليز بالكبرياء الجريح وشر قنصلهم مست النذير الهادف إلى

(١) انظر المرجع السابق .

القضاء على خطته التي سير من أجلها الحملة الأولى على رشيد فثبت النية على الانتقام
ومعاودة العدوان على رشيد .

وشعر المصريون بالثقة تتدفق في انفسهم وبالأمل يشد عزائمهم للاستعداد
في كل مكان لمقاومة العدوان والإجهاز عليه بعد أن تواردت النيات السيئة
للحملة وضوحاً .

موقف الشعب :

أخذ الشعب يستعد في حماس رهيب ، وكان استعداده ذلك من أجل المعركة
الفاصلة في وحدة وطنية كبرى ، وكانت القاهرة الرأس المدبر للمقاومة الشعبية
والعين الساهرة على مؤازرتها بالاستعداد العسكري عند ما تجد الساعة ، وقد كانت
بالاستجابة منها منذ أن وردت أنباء المعركة الأولى أن استفز الشيوخ ، وفي مقدمتهم
السيد عمر مكرم ، أهلها إلى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد في حث الناس
على الجهاد فأقبلوا على الدعوة متطوعين تحت لواء المقاومة الشعبية ، وكان تطوع
الشعب تلقائياً يعبر عن استعداد روهي وشعور بالتضامن وحرص على صيانة
مقومات الحياة ، وكان المتطوعون يذهبون كل يوم إلى أطراف المدينة ، يعملون
في حفر الخنادق وإقامة الاستحكامات شمالي القاهرة لصد عدوان الانجليز إذا
ما حدث وجاء هؤلاء عن طريق شبرا ، وقد بادروا إلى العمل في ذلك بزعامة
عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ، ثم يعودون إلى أعمالهم
عند الظهر ، وكان عمر مكرم يذهب إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات
فيشير حماسة الجماهير ، وكان ينبه على الناس ويحثهم على حمل السلاح والتأهب
للجهاد ضد الانجليز الغزاة ، ثم دعا الأزهريين إلى المشاركة في القتال ، ولم ينظر
إليهم كرجال علم ودين فحسب ، بل رجال جهاد وقاتل ، ومالبت هؤلاء أن
أذعنوا للدعوة ولجوا نداء الجهاد والاستعداد للقتال ، تاركين ساحات دروسهم
وكان الشعب في زعامته دائب الحركة والتفكير ، في تدبر الموقف ودراسته لإبان
غياب محمد علي في الصعيد وكانت القاهرة تعقد الاجتماعات وترسم الخطط بروح تنم
عن أصول قومية تستنبت نباتاً حسناً لتشرق فيما بعد وتمتضيء بهامض الحديثة .

يقول الجبرتي يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة من أجل التشاور
ودراسة الموقف ورسم ما يجب تنفيذه :

(وفي يوم الثلاثاء (٢٨ محرم) حصلت جمعية بيت القاضي وحضر حسين
باشا وعمر بك والدقتردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوي
والشيخ الأمير وباقي المشايخ فتكلموا في شأن جاذبة الإنجليز والاستعداد لحربهم
وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة ويجب أن يكون الناس والعسكر على
خال الألفة والشعبية والاتحاد ، وأن تمتنع المساكر من التعرض للناس بالإيذاء ،
كما هو شأنهم ، وأن يساعد بعضهم بعضاً على دفع العدو (١) .

ثم أخذ هؤلاء في التشاور في تحصين المدينة وحفر الخنادق وقد نمت أحاديثهم
عن خيرة جديدة اكتسبوها من نضالهم السابق ضد الفرنسيين إبان غزوهم مصر
فمن قائل بأن الإنجليز لا يأتون إلا من البر الغربي والمنيل حاجز بين الفريقين وأن
الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحرب ، وأنهم لم يخنروا إلا الخندق المتصل بباب
الحديد والمنيل ، ومن قائل بضرورة الاعتناء بإصلاحه وغير ذلك من الآراء حتى
تفقوا على الرأي الأخير .

ولقد شاء قنصل فرنسا الذي فر من الإسكندرية وجاء إلى القاهرة عن
طريق رشيد أن يسهم في هذه الترتيبات الفنية في رسم خطط الدفاع عن القاهرة ،
يقول الجبرتي :

(ففي يوم الأربعاء (٢٢ محرم) ركب السيد عمر النقيب والقاضي والأعيان
المتقدم ذكرهم ونزلوا إلى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور وفي صحبتهم
قنصل فرنسا وهو الذي أشار عليهم بذلك ، وفي صحبتهم أيضاً الجمع الكثير
من الناس والأتباع والسكل بالأسلحة (١) .

واشتركت طبقات الشعب في حفر الخندق وإقامة الاستحكامات ،
يقول الجبرتي :

(١) (٧١) أنظر المرجع السابق .

(وشرعوا في حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأقبل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف الروناجي ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين أو عشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصاري ديوان المسك والنصاري والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والفلقان والفتوس ، والحزم وآلات الحفر وشرعوا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية) .

ولم يكف أهل القاهرة بالتطوع للدفاع عنها بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد عندما حاول الإنجليز معاودة الحملة عليهم وكانت زعامتها تنظم هذا العون في القاهرة وخارج القاهرة وإبان ذلك الغزو الثاني لرشيد .

موقف الإنجليز والهجوم الثاني على رشيد :

بينما كان الاستعداد لمواجهة الإنجليز بين الشعب على أشده ، والفرحة تملأ قلوب الجميع لانتصارهم على الإنجليز ، كان هؤلاء في الإسكندرية يشغلهم أمر الهزيمة وقد دفعتهم الرغبة يستثيرها فنصل بريطانيا ... للانتقام إلى معاودة الغزو لرشيد ، بعد أن ذل كبرياءهم العسكري ، ولكنهم وجدوا هذه المرة قوة أكبر من شعب متساند مع جيشه وحكومته ومشاعر مهيأة للنضال حتى النصر .

كان بجانب العسكريين الإنجليز فنصل بريطانيا الدائب إذ ذاك على جر بلاده لاحتلال مصر .

لم يحتمل هذا الفتنل الصبر على الموقف كما انتهى إليه ، فلم يهدم — لا سيما بعد أن شاهد النتيجة السيئة — عن التحريض على غزو رشيد ، وعندئذ تابع تحريضه لمعاودة الغزو ثانية ، فذهب في جماعة من أعيان الإسكندرية ليقابل فريزر ويطلب إليه تدارك رشيد لأن الطاعون قد اجتاحتها ، فتقرر إيفاد حملة عهد بقيادتها للجنرال ستيورات .

وكانت رشيد قد أنعشها النصر الأول وفتح أعينها على خبرات جديدة في القتال ، وقد أصبحت بعد نصرها تستند إلى عمق كبير يسند ظهرها من مشاعر المصريين جميعاً ، ولم يكن مقدراً إلا أن تصمد أمام الغزاة بعد أن غدت مرمرقة

من المصريين في بسالتها وبعد أن ارتبطت بثقة كبرى بينها وبين ساثر الشعب .

التقاء الطرفين :

وتحرك الجيش الإنجليزي من الإسكندرية لمحاودة الهجوم على رشيد مرة ثانية واحتلال هذه البلدة وكان عدد قواته أربعة آلاف مقاتل في الثالث من ابريل سنة ١٨٠٧ والتقى الطرفان في ساحة رشيد وأحكم القدر للطرفين خيوط مصيره ، وارهف التاريخ اذنه . ليتسمع إلى الأمر الفصل الذي شاعت هذه البلدة ان تلقية في سمعه تحدياً لمصير الحملة البريطانية ، وما جاءت من اجله ، ليسجل بدوره على يد رشيد نصراً جديداً يرسى أصول فجر جديد لمصر الحديثة .

اصبح جيش ستيوارت على مقربة من رشيد . واذ ذاك أنفذ كتيبة منه احتلت الحماد التي تقع جنوب رشيد بين النيل وبين ادكو ، وقد شاء القائد بذلك ضرب الحصار حول رشيد والخيولة ذون وصول المدد إليها من الجنوب ، وصيانة مؤخرة الجيش الإنجليزي ليسهل احتلال رشيد .

واحتل الإنجليز آكام ابي مندور ، وركبوا عليها المدافع ليقتضفوا منها رشيد بالقنابل ، ثم عسكر معظم الجيش الإنجليزي غربى رشيد وجنوبها ، واخذ يحاصرها في ٧ ابريل ، ويضربها بالمدافع .

كان الغزاة يظنون ان قصفها بالمدافع يلقى الرعب في نفوس الحامية والاهالي ومن ثم يسلبون مضطرين ، ولكن راحت ظنونهم ادراج الرياح . فرغم إنذارهم لهم اكثر من مرة بأن يذعنوا ويسلبوا مدينتهم صاغرين فقد رفضوا ذلك بكل إباء وشمم ، وقد ازدادوا قوة معنوية وتماسكا ، ورغم تهديم الكثير من البيوت وقتل العمدد الوافر من الاهالي ، صمدت رشيد امام العدوان الغادر وتحمل الحصار ، وما نجم عنه من خسائر في صبر عجيب في انظار عون القاهرة ومساندة إخوانهم من المصريين وهم يفتدونهم بأرواحهم في المقدمة ، بما اثار دهشة القائد الإنجليزي ، فقد كتب الجنرال ستيوارت إلى فريزر في الإسكندرية يقول نقلا عن وثائق الحملة :

(. . تبين لنا أن الأعداء لا يكثرئون بالمصايب التي تنزل بهم . ان قواتهم

لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الأرنؤود وألف من
الاهالى المسلحين ، ولكنه نظراً لسعة خطوط دفاعهم . . وطبيعة مراقبهم أرى
من الحكمة أن اتعجل باقتحام المدينة وأن نجاحنا معلق على نجدة الممالك . فإذا
جاءوا إلينا أمكننا ان نرسل إلى البر الشرقى من النيل قوة تشترك معنا فى القتال ،
نأما الآن فيستحيل علينا ذلك ، لأن العدو متفوق علينا بقوة الفرسان . . وليس
لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كالدلتا ، وفى انتظار
تلك النجدة يتبين لنا أهمية موقعنا فى الحماة ، فإننا نتوقع ان يهاجمنا الأعداء فيها
وسأبذل كل جهودنا لاستبقائها فى يدنا) . .

رشيد وطلب النجدة وموقف الوحدة الوطنية :

وبين جهود رشيد فى الدفاع عن ديارها ، وافتداء المصريين بنضالها التاريخى
خند الغزاة ، أرسلت تطلب النجدة من القاهرة بعد ان اضطرت وشعرت
بوطاة الموقف .

أرسل السيد نقيب إشراف رشيد الرسائل للسيد عمر مكرم يستنجد به
ويطلب إمداد المدينة بالرجال ، فقرأ السيد عمر مكرم الرسالة الأولى على الناس
وحضهم على التطوع لنجدة رشيد فاستجابوا إليه وتطوعوا وحلوا السلاح
وازمعوا على السفر لنجدة إخوانهم . وبالرغم من ان (كتنخدا بك) لم يأذن لهم
بالسفر حتى يعود محمد على من الصعيد ، فإن كثيراً منهم لم يعبا بهذا المنع وارتحلوا
لنجدة اهل رشيد والوقوف بجانبهم فى صد الجيش الانجليزى .

وتطوع كثير من اهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد ، واقبلوا عليها
يتدفقون وقد مثل ذلك لونا جديداً من الشعور بالجماعة ، غير ان هذا لم يكن
ليضعف الموقف ، إذ كان لابد من مدد من قوات الجيش المصرى ، ليوقف
بجانبهم فى المعركة .

عودة محمد على من الصعيد :

وعاد محمد على من الصعيد ، فى غضون هذه الأزمات الدقيقة ، ورشيد تتابع

جلبب النجدة ، فبلغ القاهرة ليلة ١٢ أبريل سنة ١٨٠٧ وخرج عمر مكرم
والمشايخ والمحروقي لملاقاته ، وركب الجميع وذهبوا للسلام عليه ، ودار بينهم
الحديث في أمر الانجليز فأظهر اهتمامه الكبير . ولكنه سخط على أهل
الاسكندرية سيما امين اغا إذ مكثوا الانجليز من الثغر ولم يقبل لهم عذراً ،
ولما قالوا له : (اننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر) كان جواب محمد
على : (ان ليس على رعية البلاد خروج ، وإنما عليهم فقط المساعدة بالمال ،
ثم انفض المجلس ، وسار بعد ذلك تدبير الموقف بنشاط جدى) .

محمد على يستعد :

اطمان محمد على كثيراً ، وسر لهزيمة الانجليز ، ورشيد ، ولقي الحالة اقل
خطورة مما كان يتوقع ، واجتناب لم تملأ قلبه الطمأنينة تماماً فقد رأى ان الانجليز
قد يستأنفون القتال ، فبادر إلى تجديد جيش لمحاربتهم ، وجد في استكمال
الاستحكامات التي بدأها الشعب من قبل ، وواصل العمل في حفر الخنادق من باب
الحديد وبولاق ، لإقامة خط الدفاع من القاهرة ، من الشمال ، وشق اخاديد
امام الخنادق تتصل بالنيل لتمتليء بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الانجليزي . ثم
اغرق عشر مرابك بين جزيرة بولاق والشاطيء ، لمنع مرور السفن الانجليزية
في النقل إذا ما جاءت من رشيد ، ثم نصب المدافع في شبرا وامبابة وجزيرة
بولاق ، وقد اشترك معه العلماء والشعب في العمل بحماسة ، واخذ يدير المال اللازم
لنفقات الجيش ، يعاونه في ذلك علماء البلد والسيد عمر مكرم ، فجمعوا تسعمائة
من سكان العاصمة من اجل نفقات الزحف ، حتى تم إعداد الحملة ، فكانت مؤلفة
من اربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة والفرسان ، ثم امرها
بالسير قاصدة رشيد بقيادة طبرزاغلي (كتنخدا بك) نائب محمد على .

كان أهالي رشيد ينتظرون في هفنة ان تنجدهم القاهرة بالمدد والمساعدة وهم
في صمود امام الانجليز ، وكان الانجليز من ناحيتهم ينتظرون ان ينجدهم المماليك
وهم يهجمون على الأهالي بغير جدوى ، ليتمكنوا من الاستيلاء على رشيد ،
ولكن هؤلاء أخذوا يسرفون ويماطلون في الوفاء بمهدم ويرقبون تطور الحوادث

في حرص وقد وقفوا جانباً عن خلفائهم لما راوا من حرج فرا كثرهم ، وقد بدأ الموقف يتحول إلى جانب رشيد بفضل استجابة القاهرة لها بالعون القوي ، استمر الضرب والحصار نحو اثني عشر يوماً ، كان الأهالي يناوشون مواقع الإنجليز في الحماة فأنفذ إليها الجنرال ستوارت مدداً من الجنود ، وركب المصريون مدفعين على الشاطئ الشرقي واخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزي ، بالبر الغربي ، عندئذ اجتاز الميجر ماكدونالد النيل عند مسجد ابى مندور في ١٦ ابريل ومعه قوة من الجنود عددها ٢٥٠ جندياً واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ولكن سرعان ما ارتدت القوة على اعقابها عندما تلقى المصريون مدداً واستمر الضرب والحصار إلى ان جاء المدد الذي ارسله محمد علي ، عندئذ اخذ الموقف الحربي يتغير من اساسه ولقد كانت هذه الإمدادات المصرية مؤلفة من فرقتين يقود إحداهما طبوزاغلي وقد اتخذ خط سيره الساحل الشرقي للنيل ، اما الثانية فكانت تحت قيادة حسن باشا وكان يسلك طريقه إلى رشيد بحذاء الشاطئ الغربي للنيل وقد ظلت كتابها تسيران بحذاء واحد على ضفتي النيل حتى بلغت قبالة النقطة التي كان يعسكر فيها الجيش الإنجليزي واتخذها نقطة امامية وهي قرية الحماة فسكرت فرقة حسن باشا اتجاهها كما اتخذت الفرقة الأولى قبالتها قرية برنبال معسكراً لها ، وكانت كل قرية على مرأى البصر من الثانية .

بداية المعركة :

دار محور القتال حول موقع قرية ابى حماد ، لأن موقعها الاستراتيجي كانه على جانب كبير من الأهمية . فمن يملكها كان يستطيع التحكم في منطقة رشيد كلها وقد تخير الإنجليز احتلالها والدفاع عنها بشدة لحماية ظهر القوات المحاصرة لرشيد من احتمال هجوم القوات المصرية من الجنوب .

وكانت أهميتها الحربية ترجع إلى وقوعها في برزخ بين النيل وبحيرة إدكو وكان في شمالها ترعة ، كانت في ذلك الحين جافة تصل بين النيل إلى قرب البحيرة وكان التحكم فيها من شأنه ان يقطع على جيش مصر ولوج هذا الباب الوحيد

السهل فيحول دون تمكنه من القضاء على الجيش الإنجليزي المحاصر لرشيد ونجدة أهلها
غير أن قوات مصر إذ ذاك كانت من القوة لدرجة أن كان في مقدورها فتح ثغرة
في هذا البرزخ بين القوات البريطانية والنفاذ منها إلى رشيد بل والالتفاف حول
القوات الإنجليزية نفسها ثم تشتيتها .

وما أن رابطت قوات مصر في مواقعها ، حتى تقدمت منها طليعة من الفرسان
البواسل في صبيحة العشرين من شهر أبريل نحو مواقع الجيش الإنجليزي في الحماة
وهناك التقت بكتيبة منهم بين المزارع ، فلم يسع هؤلاء إلا الارتداد إلى الورا
قلبا لم يحكوا السحابهم انقض عليهم الفرسان المصريون وأحاطوا بهم فقتلوا
بعضهم وأسروا آخرين ، وقضوا عليها كقوة محاربة ، وعلم ستيوارت بهذا التلاحم
الذي خسر فيه جنوده وأندر بتفكك أوصال جيشه والقضاء على قوة الحماة كلها ،
أرسل القائد ما كلود ومعه قوة من الجنود والمدافع وعهد إليه بقيادة القوة
المرابطة ثم رتب الكلونيل مواقع جنوده وكان عددهم ثمانمائة ، ترتكز ميسرتهم
إلى النيل بقيادة الملاجور وجلساند ، أما ميمته فكانت بقيادة الكابتن تارلتون
وكانت قرب بحيرة ادكو أما قلب هذه القوة فكان يرتكز إلى قرية الحماة نفسها
بقيادة الملاجور مور .

ثم انقضى يوم ٢٠ أبريل دون أن تتعرض مواقع الإنجليز للخطر وسرى
الاطمئنان إلى قلب ما كلود على سلامة مركزه وتحصيناته .

وقام الجنرال ستيوارت في ٢١ أبريل يطمئن إلى سلامة الخطة ومعدات قواته
فأخذ يفتش خط الدفاع في هذه القرية فلاحظ بعض العيوب فيها ، إذ وجد أن
القوة في خط الدفاع لا تحتمل في بعض نقاطها أي ضغط من قوات جيش مصر
إذا ما حدث وتكاثرت عددها إذ كان من السهل أن تنفذ القوات المصرية عند تكاثرها
من إحدى ثغرات هذا الخط إلى قوات رشيد وتمزق شمل هذا الخط الدفاعي ،
لذلك عهد إلى الكلونيل ما كلود أن يبذل قصارى جهده للدفاع عن موقعه ، ثم
أجبره بالارتداد إلى شاطئ البحيرة في حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين . فإذا
لم يستطع ذلك فعليه أن يتراجع مرتدًا إلى الجيش الإنجليزي المحاصر لرشيد
إذ ذاك .

ولظراً لأن ستوارت كان قد أدرك تكاثر قوات مصر بشكل أصبحت فيه تنبوق عدد الجيش الانجليزي عدة وعتاداً ، فقد ارتأى أن ينتظر حتى اليوم التالي ، ثم اعتزم أنه إذا لم تصله النجدة التي كان يترقبها الانجليز من المماليك برأ بوعدهم واتفاقهم السابق أن ينسحب من موقع الحماة ثم يرفع الحصار عن رشيد ليتراجع منها إلى الإسكندرية .

النصر في المعركة الفاصلة :

وجاء اليوم التالي (٢١ أبريل) وكان يوماً أغر على قوات مصر وعصياً على القوات الانجليزية . فلم تأت امدادات المماليك المتوقعة ؛ وتطلع الكونيل ما كلود إلى الأفق وامتد بصره فرأى في الصباح معالم الهزيمة لجيشه ، رأى القوات المصرية وقد تكاثر عددها وامتلا السهل برجالها وقد تهيأت إذ ذاك للانقضاض على جيشه لتلقى عليه درساً قاسياً وكأنما كان القدر قد أعد الهزيمة ليفرضها على بريطانيا المعتدية ، وكانت خيوطها تنحدر إلى هذا اليوم العصيب الذي مثل اليوم الفصل للحملة الانجليزية كلها .

وحى وطيس المعركة وواجهت القوات المصرية خصمها بأشد هجوم تضرب في الشمال واليمين ، وتنفع الأمل اليأس المتفتح عن فجر جديد ، كتلة مترصة موحدة الهدف في مواجهة جيش الامبراطورية الذي هزمت به الفرنسيين والأتراك من قبل ، لا تمزقها الخيانة ولا تعبت بمقوماتها الدسائس ، ولا تضللها الغايات الضالة ومن ورائها شعب متمسك يتحسس نفسه فلا يجد فيها إلا عزماً وقوة وصلابة نحو الجهاد في سبيل صيانته بلده ومقومات حياته ودينه وتطهير بلاده من الغزاة الانجليز .

بدأت المعركة في الساعة صباحاً ، واستمرت ثلاث ساعات سريراً كانت القوات المصرية فيها تحم ضربات على العدو وخطتها في السير في المعركة .

تعقب الفرسان المصريون القوات الانجليزية الثلاث : القلب والميمنة والميسرة . فأجاطوا بقوة القلب ، وكان معها الكونيل ما كلود فانهالوا عليها بالرصاص من كل صوب حتى قتلت معظم رجالها ، وقتل من بينهم القائد ما كلود نفسه .

واحاطوا بالميمنة فزقوا جنودها شراً ممزقاً ومعههم قائدهم الكابتن تارلتون ، ولم ينج من القتل سوى خمسين اسرتهم هذه القوات ، اما ميسرة الجيش الإنجليزي فلم يجد قائدها سبيلا عن التسليم لقوات مصر وفك الحصار عن رشيد .

انباء النصر في القاهرة :

واخذت انباء النصر تنتقل تباعاً إلى القاهرة فيتسابق السعاة إلى نقلها لينالوا مقابل ذلك العطاء الوفير من محمد علي وشرف السبق في حملها إلى القاهريين .

يقول الجبرتي : في يوم الخميس (١٤ صفر) حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنجليز وهزيمتهم وذلك أنه قد اجتمع الكثير من أهالي البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن معهم من المتطوعين والعساكر وأهل دمنهور وصادف وصول (كئخدا بك) واسماعيل كاشف الطوبى إلى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الإنجليز طائفة وقتلوا منهم عدة رموس نخلع الباشا (محمد علي) على الساعين جوختين ، وفي أثر ذلك وصل أيضاً شخصان من الأثراك بمكانيات بتحقيق ذلك الخبر وبالغا في الأخبار وأن الإنجليز انجلوا عن متاريس رشيد إلى مندور والحجاد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى أن توسطوا البرية ، وغنموا ضماناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين .

وتمضى قصة النصر فتنتقل إلينا صورة عما يحدث من الإعداد لنقل الأسرى إلى القاهرة وتزداد الأنباء توارداً فزداد محمد علي سروراً ، كما أحيط عمر مكرم علماً بالموقف وكان سروره لذلك بالغاً ، وقد أطلقت المدافع صبح ذلك اليوم (٢٣٠ ابريل) من القلعة والأزبكية وبولاق والجزيرة احتفالاً بهذه البشري . وكان احتفالاً بقوة الوحدة الوطنية فلم يكن النصر إلا من ثمارها .

وكان طبيعياً بعد ذلك ان ينفذ إلى القاهرة جموع الأسرى زرافات ووحداً كما حدث أثر النصر الأول في رشيد .

طليحة افواج الأسرى :

وتطلع الناس لمقدم الأسرى واخذت طلابع هؤلاء تفرى : تباعاً إلى القاهرة

في اليوم التالي (٢٤ أبريل) فحضر أولاً ١٩ إنجليزياً من جنود الجسيلة وعدة من
الرؤوس فروا بهم وسط (الشارع الأعظم وأما الرؤوس فروا بها عن طريق
باب الشعرية وعدتها نيف وثلاثون رأساً موضوعة على نيايت) (١) كرواية
الجبرتي ، وقد وضعوها في وسط بركة الأزيكية مع الرؤوس الأول (صفيين على
يمين السالك من باب الهواء إلى وسط البركة وشمالها) .

وفي اليوم التالي (٢٥ أبريل) وصل تسعة أشخاص من أسرى الإنجليز
ومعهم أحد ضباطهم ، ثم توافد في اليوم الذي تلاه (نيف وستون ومعهم رأس
واحدة مقطوعة فروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة وهرع الناس
للفرجة عليهم وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأساً وأربعة وأربعين أسيراً من ناحية
باب الشعرية وطلعوا بالجمع إلى القلعة) .

الركب الكبير :

ثم جاء ركب الأسرى الأكبر في ٢٩ أبريل الذي ازدحمت شوارع القاهرة
الرئيسية من أجل رؤياه ، وكان مظهره اختلطت به مشاعر النظارة بين معاني
الفرحة وعواطف الإشفاق بدافع النزعة الإنسانية .

فمقب المعركة جمع كئيباً بك جمهور الأسرى ومعهم جرحاهم ورؤوس
قتلاهم وأترطهم في مراكب في النيل لتبلغهم تلك للقاهرة ليشهدهم سكانها ومن ثم
يودعون في سجون القلعة .

وركب الأسرى وجرحاهم ومعهم رؤوس قتلاهم تحت حراسة الجنود
المصريين وسبقت الرياح الشمالية السفن إلى القاهرة تشق عباب النهر في عزة وعلى
ظهرها حطام معركة تسجل جزاء الفزاة أمام وحدة الشعب المتأسفة ، وتمعن
السفن في المسير في صراع مع التيار وتستحث الخطى في لفه للقاهرة ، فلا
تواتبها ربح الشمال بقدر ما ينفس عن حرارة لطفة الجذلان بنصره ، المتشوق للقاء
بنى عشيرته يشهدهم مبلغ قوة جيشهم ، ومدى خذلان أعدائهم .

وبينما كان الجنود المصريون مغمرين بفرحة النصر كان الأسرى يتنازعهم

(١) . عبد الرحمن الجبرتي .

الأوهام والهواجس وتزاحم في عقولهم الأفساكن خشية سوء المصير ، فيتنفسون ؛
عنها همساً ويأخذ منهم الخوف من ذلك بكل ماخذ ، ويحاول الفرد التمرد عن
ذلك بحديث أو بمنظر ولكنه لا يلبث أن يرتد في حيرة بين الماضي والحاضر .

وتنخر السفن عباب النهر وتطول الليالي أمام الجنود فيقطعونها بين وجشة
الأسر وذلة الهزيمة ورهبة المنظر المنبعث من رؤوس زملائهم ، وتقرب السفن
من القاهرة ، فيزداد الجنود المصريون فرحاً وغبطة بينما تزداد قلوب الأسرى
وجلاً من أن تصبح هواجسهم حقيقة واقعة ، فيذوقوا سوء المصير كزملائهم
الذين قطعت رؤوسهم .

وتنبج أضواء الفجر وتكشف خيوطه عن معالم تلال المقطم فتكشف
تحتها قباب القاهرة ومنازلها .

ويستيقظ الأسرى ليشهدوا القاهرة ، وعليها أضواء صبح جديد فيرونها
لأول مرة فتصبح القاهرة لتشهد معالم النصر في مركب الأسرى يطوفون شوارعها
ومن ورائها شعب كان يتها إذذاك لبناء أصول دولة حديثة .

وتلقى السفن بمراسيها في بولاق في ٢٩ أبريل سنة ١٨٠٧ ويخبرج أهالي
القاهرة بين أخبار الأمل ومركب اليوم في حلم جديد فيتوجه الجمع إلى بولاق
ويهوذعون إلى الأزيكية وكأنهم يتلاقون على ميعاد من القدر لمشاهدة المركب
ويتكاثر عددهم كلما إنتشرت الأخبار عن مجيء الأسرى فيمتلئ ساحل بولاق
والطرق المؤدية إلى القلعة بالنظارة .

وتنزل أفواج الأسرى الإنجليز ساحة القاهرة أسرى حرب لا فاتحين ، كما
كانوا يحلون ، وتسير جموعهم وقد نسكت رؤوسهم وأبت أن ترفع إلا في ذلة ،
وحولهم رؤوس قتلاهم مرفوعة على رؤوس الرماح والنبايت وعليهم سمات
الإهياء والجوع والتعب لا يكادون يشيرون الشفقة بين أهل القاهرة حتى يرتد
منظرهم العدواني فيثير فيهم النقمة جزاء ما فعلوا ، وقد سار في مقدمتهم من قواد
الجيش الإنجليزى الما جور مور والماجوز ويجلسند وكان يوماً مشهوداً .

وتابع الركب المسير حتى الأزيكية حيث صفت رؤوس الكثيرين من القتلى

الإنجليز السابقين في صفين على رؤوس التبايت الطويلة وسط الأذربكية وكانت
لظرة واحدة إلى هؤلاء من أسرى الركب كافة لأن تضاعف فيهم الرعب وتزيد
في نفوس معظمهم الإعياء .

وأخذ حتى الأذربكية يهوج بالرحام والحركة ، وكأنما خرج الناس جميعاً
ليزوا هوكب الأسرى في يوم النصر ، وكانت أسطح المنازل تزدحم بالنساء وهن
يعددن أبصارهن ليحظن بجمالية الموقف .

وحدث أن تمعدالماجور ويجاسند وضباطه رفع قامتهم إلى أعلى وهم يسرون
بين الجمهور ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك فيلقون بأبصارهم نحو الأذربكية حتى
اصطدمت تلك بأعين روس أقرانهم محمولة على التبايت وسط الأذربكية فارتاع
نفوسهم وامتلات رعباً وأسى، إذ ذاك ارتدوا إلى نفوسهم منكمى الروس في ألم
وحسرة وقد غدت بعد ذلك خطواتهم أثقل في المسير ، تضاعف تعبهم وتمسك
فيهم السكلال والأسى .

ثم توجه الركب إلى الأذربكية فالتقى بروس قتلى الإنجليز إلى ما كان بها من قبل
ثم تابع المسير حتى بلغ القلعة فاستودع سجونها جموع الأسرى ، تحت الحراسة
المشددة وهناك وبين أحضان المقطم حيث كانت تربض القلعة ، استسلم هؤلاء
لنوم عميق ولكنه كان نوم السكليل المتعب لا التقرير العين ، فكم كان يورقهم
شعور القلق بسوء المصير ، ويشير فيهم الوحشة ظلام السجون بجدرانها السميك
الجاثمة على سفح المقطم يحترقهم الليل فيطول ، ويدهم الصبح ظلام الليل فلا يطلع
النهار عن أمل يبعث في قلوبهم الطمأنينة . وقد ظلوا على ذلك مدة والحوادث
تجرى حولهم سراعا لتربط مصيرهم بمصير الحملة الإنجليزية كلها .

بينما كانت القاهرة تموج بنشوة النصر تشاركها مصر كلها ، ورشيد تواجه
محنة بعد بطولتها وأسرى الإنجليز بين جدران سجون القلعة ينظرون ما يرام
للقدر في مصيرهم ، كان التاريخ يسجل في ثبته أقول نجم الحملة الغادرة وفيها
خطتها الحربية والسياسية على السواء ، وضياح أطماع (مست) في سحب نفوذ
بلادها على مصر .

انتقل الفريقان بعد معركة الحماة إلى محاولة مجازية كل أخطار الآخر. ومحاولة الاستعداد إلى المماليك في ذلك ، والمماليك بين الطرفين يقفون منها موقف المنتظر لما تسفر عنه الأحداث فيعلقون ولاءهم لأقرباهما فندرة على تحقيق مآربهم في البلاد. وكان محمد علي إذ ذاك قد شعر بكثير من الاطمئنان بزوال خطر الحملة على البلاد ، ولسكنهلم يهد في السعى للاستعداد لمواجهة احتمالات الظروف . والعمل على القيام بواجباته الحربية كحاكم للبلاد من قبل الدولة العثمانية . إزاء هذه الحملة وتطهير البلاد منها .

وعلى غير علم بمجريات الأمور في المجال الدولي ، التي كانت تعمل إذ ذاك لتقرير مصير الحملة ، أخذ محمد علي يستعد ، فمضى يطالب المماليك بالوفاء بالتزامات ما عقد بينهما من صلح داخلي .

وعلمت تركيا ، بموقف رشيد الباسل من الحملة الانجليزية فأرسلت د كما يقول الجبرتي ، إلى محمد علي توصيه بمتابعة الحرب ضد الانجليز .

وسرعان ما شرع محمد علي على الفرار في الاستعداد للعدو بتعمير القلاع التي كان الفرنسيون قد ألساوها خارج بولاق كما قال الجبرتي : (وعمل متاريس بناحية ميت عقبة وغيرها ووزع على الجيارة جيلاً كثيراً ووسق عدة مراكب وأرسلها إلى ناحية رشيد ليبنوا هناك سروراً على البلد وأبراجاً وجمعوا البنائين والفعلة والنجازين وأنزلوهم في المركب قهراً .

ومضى محمد علي في استعداداته ولكن شاءت الظروف أن تحدد العلاقة بين الطرفين مؤقتاً فيتصالح الطرفان على نهج يتبعانه .

ومنذ هزيمة بريطانيا الحربية في رشيد كان الموقف الدولي يتجه بحوادثه وآثاره إلى تقرير الغاية التي فرضتها رشيد على بريطانيا ثم تنفيذها من الجلاء النازح عن البلاد .

وكانت بروسيا قد دخلت في حلف التكتل بدل النمسا ، وتولى المستر جورج كالتج وزارة خارجية بريطانيا ، وضاعف نابليون نشاطه في مجال الشرق الأوسط فعقد معاهدة تحالف مع إيران ، وبعث إليها الجنرال جاردين وكثيراً من ضباطه . ولم تعد الجالية الأوروبية تخشى جانب الأهالي وكان أهم غرض يرمى إليه نابليون هو خلق المتاعب في وجه أعدائه في كل مكان .

كانت بريطانيا وهذه الحوادث تجرى إلى مستقرها قد احتلت الاسكندرية ،
وقد شاءت وهي تفاوض الباب العالي للاحتفاظ بمصر ، لتكون بمثابة توازن
تستغله إبان هذه المفاوضات إلا أن الجلاء العاجل عن مصر كان أمراً
مفروضاً منه .

فلم تكن حكومة بريطانيا قد وصلها بعد نبأ الأحداث التي وقعت في رشيد
وانتهت بدمزيق قواتها الحربية ، ولكن الذي كانت تخشاه هو ما علمته من التقارير
الأولى لكل من فريزر ومست أن احتلال الاسكندرية وهو اجراء وقائي لا بد
منه للحيولة دون الغزو الفرنسي ، قد يصبح أكثر ثقلًا على امكانيات بريطانيا
الحربية لا تستطيع تحمله ، لذلك أصبح من واجب القائد العام ألا يتوقع بعد
حادث الاسكندرية أية استجابة للامدادات . وعليه أن يعرف أن نيئة حكومة
بريطانيا لا ترقى إلى درجة امتلاك مصر من جراء معاهدة صلح وبذلك عز على
فريزر أن يتماهى في وعوده لمساعدة المماليك على استعادة القاهرة .

ولما وصلت أخبار ووشوب وستيوارت في رشيد إلى بريطانيا ورأت مدى
البكارة التي حاقت بجنودها ، أصدرت أوامرها السريعة إلى فريزر بإخلاء
الاسكندرية ، أو العدول عن دخولها إذا لم يكن قد دخلها فعلاً ، وكانت الحكومة
البريطانية اذ ذاك تفضل احتلال صقلية عن الاسكندرية .

وفي نفس الوقت بذل الباب العالي جهده للحيولة دون طغيان نفوذ فرنسا
عليه فرفض قبول فضيلة فرلية ورد على عرض فرنسا لإبرام معاهدة تحالف
دفاعي هجومي بسؤاله عما إذا كانت فرنسا تنوى سحب قوات احتلال بولندا .

وقد دفعت الحوادث الداخلية وما انتهى إليه الموقف الدولي فريزر لأن يتحتم
في ذهنه فكرة الجلاء قبل هذه الحوادث رغم التعليمات التي أرسلت بتأجيل الجلاء
لحين صدور أوامر أخرى ، فانه جد في اعداد الخطة لإجلاء الاسكندرية حتى
إجلائها فعلاً قبل هذه الحوادث بقليل .

وبما هو إلا وقت قصير حتى أبرم صلح بين الطرفين المصري والبريطاني في
دمهور في سبتمبر ١٨٠٧ نص على جلاء جنود بريطانيا عن الاسكندرية .

وبعد ... لقد استراحت مصر من الغزو البريطاني الثاني بفضل وحدتها الوطنية في طليعة القرن التاسع عشر وكشفت بهذه الانتصارات عن شروق قوة روحية تحمل في طياتها معالم عهد جديد ، وخسرت بريطانيا بحملة فريزر بجانب خسارتها الحربية الكثير من سمعتها الحربية والسياسية .

وانتقلت مصر إلى حكم محمد علي ، فانتقلت إلى لون جديد من التحكم التركي وصمدت في تماسك حتى واجهته في ثورة عرابي في نهاية القرن التاسع عشر .

الوطنية المصرية

وثورة عرابي في مقاومة الإنجليز

كانت هزيمة إنجلترا في رشيد نصراً للوعي الوطني الطالع وإعلاء لروح مصر المسكفة منذ أن بزغ فجرها في طليعة القرن التاسع عشر ، وهزيمة المخطط البريطاني التي سارت بحرى هذا التطور الروحي في نموه حتى تجلى في صورة أوضح في موقف رشيد ومن ورائها شعب متساند مع جيشه في صد العدوان البريطاني الذي تمثل في حملة فريزر سنة ١٨٠٧ وإذ تبدو هذه الطليعة إشراقاً شعبياً وقوة روحية تمثل بذور وعى قومي ينمو في إطار الفكرة الإسلامية في مشرق مصر الحديثة، فقد كانت طبيعة تكوينها الفكري المبني على بساطة تفكير العصر السياسي في تخير حاكم البلاد في حدود الولاء للخلافة الإسلامية عاملاً فرض عليها فرضاً : عامل حدد فيها من تخير حاكمها من غير بنينا ليكون هذا الحاكم في شخص محمد على ذي النزعة الطبقية الانوقراطية مهد روح المقاومة الذي انبثق في مصر منذ اللقاء الأول بين الشرق والغرب على يد الحملة الفرنسية وتجلي في مقاومة المصريين للحملة الفرنسية وظلم الأتراك والماليك وحملة فريزر — مهد ذلك روح السبيل لبزوغ فجر النضال القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وإذا تجلى ذلك الروح من خلال الفكرة الإسلامية فقد كان لتجدد المجتمع المصري منذ هذا اللقاء وامتداده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لزيادة الاتصال بالقرب من عهد إسماعيل أثره الكبير في تطوير ذلك الروح بإيجاد نواة الطبقة المتوسطة من مجرد معنى رد الفعل إلى حقيقة النضال القومي الذي أشرق بانطلاق ثورة عرابي ، ثورة استهدفت القضاء على العلة الكبرى وهي التحكم الداخلي والخارجي وعلاج النكسة .

ولقد شابت الظروف أن تمتد يد الضغط إلى الجيش ، هذه الهيئة المنظمة التي
تستز بكرامتها ويدها سلاحها والتي يتميز وجودها بين الأمة بالاتحاد والشجاعة
لتعالج قضيتها بأسلوبها وتبلغ بذلك أهدافها .

وشاءت الأقدار أن تحرك الجيش وقد مكته من ظهوره شعوره بزوال
هيئة الخديوى القديمة منذ أن تولى توفيق خديوية مصر . ولقد بدأ الجيش أولاً
بالدفاع عن مصالحه الذاتية وانتهى أخيراً بالدفاع عن المصالح المصرية ورأيانه
يعمل على ذلك من قبل ، وكذلك بدأ الجيش في مايو سنة ١٨٨٠ ، إذ قام بعض ضباطه
وعلى رأسهم أحمد عرابي — ذلك الرجل الذي كره الطغيان وحاول محاربه في
شخص الحاكم المطلق الذي يمثله الخديوى — يقدمون لناظر الحربية يومئذ
شكوى احتجاجوا فيها على حبس مرتباتهم وتفضيل الأتراك الشراكسة في حركة
الترقيات على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى .

كان من الممكن تلافى الثورة بعد ذلك إذا ما قررت هنا أصول العدالة
وقبولت ثورة النفوس في منتصف الطريق ، ولكن هكذا شاءت الظروف أن
يعالج الموقف بأسلوب كان منه انفجار يزمن إلى أصوله البعيدة في العقل الجمعى
للمصريين بعد أن تهيأت له الظروف وجاء موعنه ليكون أداة للتطرد النيابى
في عهد توفيق .

بداية الخطوات :

وقد بدأت ثورة الجيش دفاعاً عن مصالحه الخاصة سنة ١٨٧٩ ، ثم انتهى
بها بالدفاع عن المصالح المصرية ، هكذا رأينا تباشير ذلك من قبل ، وكذلك بدأ
الجيش سنة ١٨٨٠ إذ قام بعض ضباطه وعلى رأسهم أحمد عرابي يقدمون
لناظر الحربية يومئذ شكوى احتجاجوا فيها على حبس المرتبات وتفضيل الأتراك
والشراكسة في حركة الترقيات على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى وكذلك
تسخير الجنود ، إلا أن الجيش يبدى هذه المرة لوناً جديداً في دفاعه عن
مصالحه إذ أخذت مصالح الجمهور تظهر منفصلة عن مصالح الأفراد عندما أشاروا
في شكواهم إلى الغبن والمحسوبية التي قضت بها حركة الترقيات فلما لم يبت فيها

قدموا عريضة أخرى لرياض طلبوا فيها عزل وزير الحرية فلما عد ذلك منهم تمرداً كانت معالجته لهذا الموضوع بالضغط لإسرافاً في الاستهانة بهم عندما تقرن يومئذ بمجلس الوزراء القبض عليهم فاستدراجهم إلى قصر النيل بحجة النظر في الإعداد لزفاف إحدى الأميرات فلما توجهوا قبض عليهم ولم تنقذهم إلا كتيبة على بك حلى التي أعدت لأن تدرأ عنهم مثل هذه الاحتمالات التي توقعوها علماً من حايفهم السرى في مجلس الوزراء — محمود سامي — قبل حدوثها ولما أنقذوا أصدروا بيانهم للجمهور يفسرون الحادث مبردين طلبهم عزل عثمان رفقي فعزل ونصب مكانه محمود سامي البارودي جزاء لإخلاقه لهم وبهذا بدأ الجيش دوره سعيًا لإقرار العدالة .

وكان لهذا الحادث الذي انتهى بانتصار عرابي وقع شبه في الأذان المرهفة فقد اهتدى الشعب الذي عانى — من شتى المظالم — إلى القوة التي كانت تعوزه في محنته وكان ذلك عاملاً على بعث الروح المعارضة السكينة إلى الظهور .

ورغم هذا كله لم تستطع الحكومة أن تخفي نياتها نحو الجيش وتطمئن إليه بل لم يستطع الجيش أن يركن إلى الاطمئنان إليها لتوقه الشر على يديها وفقدانه الثقة فيها .

تحول الحكومة إلى الجانب المتطرف :

ولم تسكن محاولة الحكومة في معالجتها أزمة الثقة في الجيش بمختلف الاسترضاءات لتخفي طبيعتها بل كانت تلك أداة داعية لغموض موقفها تحيئاً للفرصة وقد بلغ القلق مبلغه بها حتى تحولت فجأة وبألفه الأسباب إلى العنف في مواجهة الثورة محافظة على كيانها فقربت من موعد التصادم المقدور حدث هذا عقب حادثة تافهة كانت ذات دلالة خاصة انتهت بها إلى هذه النتيجة الهامة ودلت بها على بالغ كرمها للحركة المرابية

ذلك أن عربة أحد تجار الإسكندرية عندما كان الحديوي يقضي صيفه فيها وكان يقودها سائق أوروبي صدمت جندياً من فرقة المدفعية في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ بالقرب من مزاي رأس التين ، فلما أصيب ذلك نقله رفاهه إلى هذه المرابي

التي كان الخديوي إذ ذاك بها ملتصقين منه معاقبة الجنائي فأنشأ (١) الخديوي من هذا الحادث ذلك الذي دل على مبلغ نزول هيئة الخديوي بين الجيش . وقد أمره بطردهم فأنصرفوا .

لاشك أن هذا الحادث وإن دل على سوء نظام الجنود فهو تافه وقد كان من الممكن أن يخطر عنهم رئاسة الجيش لعقائهم بما يترأى والنظم العسكرية في الحالات العادية ، غير أنه كان ذا معنى كبير والخديوي ينظر إذ ذاك للجيش نظرة قلق فأصدر أمره بتشكيل مجلس عسكري لمحاكمتهم فحُكوا وصدرت ضدهم أحكام بالغة القسوة كان أغلبها الأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .

وإذا كانت حقيقة هذا الحكم مستمدة من طبيعة نظرة الخديوي للجيش فلم تكن جرأة الجنود إلا مستلزمة من جرأة زعمائهم على سيد البلاد وقتئذ . وقد كان نذيراً لتغيير الموقف كحالة لاسترداد هيئة الحكومة . حقاً لم يرض ذلك عبد العال حلبي فكتب يمتنع لوزير الحرية فلم يسع الأخير إلا رفع الأمر للخديوي ، إلا أن الخديوي يمدى استيائه منه ، بل يعده . تطاول عليه فأغضب وزيره حتى استقال فعين الخديو بدله صهره داوديكن .

وقد سعت الحكومة بعد هذا لفرض سيادتها وزهبتها من جديد في ظل هذا التغيير فزادت القلق والتذمر تمكناً من قلوب العراقيين وزادت سعيها لإقرار الطمأنينة .

فلما بدأ عرابي يعمل لإسقاط نظام الحكم القائم لبي تأييداً من جميع الطبقات وفي مقدمتهم العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان فوزع عليهم منشوراً (٢) يحضهم على تأييده في القضاء على منابت الاستبداد وإقامة الحرية السياسية للمصريين وقد وفدت على العراقيين وفود من جميع أنحاء القطر وسلبت لهم عرائض النيابة عنهم معلنة تضامنها معهم واطمان عرابي إلى أن الأمة تناصره بعد أن أصبح الجيش في قبضة يده فلما شابت إرادة الحكومة أن تشتت شمل العراقيين بنقل ألابي وعبد العال حلبي خارج القاهرة كانت

(١) أحمد شفيق : مله كراتي في نصف قرن ص ١١٨

(٢) ص ٩٠ ج ٤ مصر للمصريين سليم النقاش .

تعد عصمت نناطة العمل وتجليك من بهارتها. كحكومية مستقلة بتعليم مظاهرات
١٤ سبتمبر .

صمم عرابي على ألا يطيع الأوامر التي صدرت إليه بإبعاده هو وزميله
بأمر من (١) في يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ في اليوم التالي لصندوق هذه الأوامر
إلى وزير الخارجية بحجبه أنه هو وجنوده سيظلون أمام قصر عابدين بعد أن
انقضت كلمة الزعماء الضباط على إقامة هذه المظاهرة العسكرية في ذلك اليوم
اللتدعيم طلبات الأمة إلى الخديوي وأصحابها من مقاطع الوزارة وتأييد المجلس النيابي
وزيادة عدد الجيش بجانب مطالب أخرى ومحاولة انقلاب للرجل من زعيم عسكري
إلى زعيم سياسي البلاد . وانضم الجيش في الموعد المضروب في ميدان عابدين
وهذا أمل عرابي على الخديوي بمطالبة وضع الخديوي له مشروعاً كما أن
يكون تماماً مفاسد برياً نواصباً مستدعي شريف الخليفة الوزارة . وأجبت المطالب
الأخرى بحجة بها ومن ثم انصرف الجند لشكائهم بعد أن ضمن الجيش قلب
نظامهم المطلق إلى نظام الخديوي ، وقد عهد بناء على طلب عرابي إلى
شريف باشا أن يؤلف الوزارة الدستورية وي يدعو مجلس شورى النواب للانعقاد
في ٢٦ ديسمبر ، وبهذا طبعتم الحركة بالطابع السياسي وانتهت لجرها المشرق
في القضاء على التحكم التركي القديم .

ولم يقبل شريف الوزارة في بادئ الأمر بل ظل متردداً مخافة تدخل رجليه
الجيش الذي بدأت بواكيره في محاولة عرابي لإدخال بعض أعوانه ، وقد ترجم
شريف عن طبيعته التي تتحاشى الطفرة وتتجه إلى الاعتدال فلما أحس بالأمن
من ضباط الجيش وتسلم من أعيان البلاد ضمناً بإمضاءاتهم ألقيا (٢) في ١٤ سبتمبر
سنة ١٨٨١ ، وقد رفع إلى الخديوي كتاباً ضمنه الأسباب التي حدثت به إلى قبوله
وثلاثة الوزارة (٣) وبرناج أعماله .

(١) ص ١٢ مذكرة عرابي - تكلف النصارى ٢٢٦

(٢) الوقائع ١٧ - سبتمبر سنة ١٨٨١

(٣) المرجع السابق .

وفي الوقت الذي كاد النظام الجديد يستقر فيه بإعلان اللائحة الأساسية حتى لم يبق على إعلانها وصدور المرسوم بها سوى أجزاء شككية من تبادل الرأي بين المجلس والحكومة على التعديلات الطفيفة التي أدلت بها لجنة المجلس على المشروع توجه مالت قنصل إنجلترا وقنصل فرنسا في مصر إلى عابدين في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ وقدمتا للتخديو مذكرة مشتركة من دولتيهما مؤرخة في ٧ يناير ومكتوبة بصفة رسالة برقية من وزارتي خارجهما إليهما في مصر يعلنان فيها وتوقفا بجانب التخديو وتأييد سلطته وبقوة في حدود القواعد الصادرة . ولقد كان معنى ذلك هو تحريض التخديوي على الوقوف عند الاتجاهات الجارية وقد يوافق ذلك لئلا يكره بين خاصة الشعب ورجال الجيش بالسنخظ الكامل ويكتب لدونارد هالند في ٩ يناير يقول أن لئلا يكره أبعدت عنها كل ثقة . لئلا كان كل شيء يسير سيرا حسنا وكان ينظر إلى إنجلترا كما ينظر إلى دولة باردة عظيمة عظيمة لمصر . أنا الآن فالمصريون يعتقدون أن إنجلترا ألفت بنفسها في أحضان فرنسا وأن فرنسا تحمليها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا .

وجد التخديوي نفسه أمام دعوة صريحته للعبث بدستور البلاد ولبيكته لم يتجهل الأمور، لذلك كان من نتيجة هذه المذكرة إنحياز العناصر المعتدلة من الوطنيين إلى جانب المتطرفين فلبق بعد ذلك قانون شريف الأساسي الذي عرضه على المجلس معارضة فيما يتعلق بالميزانية بل تحول هذا المجلس وأصبح أقل مسالمة للحكومة .

وقابل الضباط المذكرة بالسنخظ العام فتوجه الوزراء وعلى رأسهم شريف إلى التخديوي وتداولوا في الأمر فاستقر رأيهم على إبلاغ المذكرة إلى تركيا مع الإعراب عن عدم قبولها وتوجه شريف إلى معتمدى فرنسا وإنجلترا وأنهى إليهما اعتراضه (١) على المذكرة ونفى الخلاف حول حق المجلس في مناقشة الميزانية وبالرغم من أن المشروع كان خلواً من حقه في النظر في حزية البنتاب العالی أو الأموال الخاصة بشئون الدين العام أو قانون التصفية أو الاتفاقات الدولية ولكن كان من جهة النظر في مرتبات الموظفين الأجانب والإدارة

(١) رسالة في ١٥ يناير سنة ١٨٨٢ .

الأوروبية عند نظره الميزانية وقد اختلفت نظرة الدولتين في فهمها لهذا الحق. حول الميزانية فكانت بريطانيا ترى عدم منع المجلس من نظرها ولكنها كانت تنجس إلى أن يراعى عند نظرها مصالح بريطانيا المالية. وقد كانت منصبية حول الإدارة الأوروبية بحيث موظفها بهذا الحق (١) للجلس.

محاولة فرنسا وإنجلترا للعمل بالإصلاح النيابي :

أثارت مظاهرة ٩ سبتمبر دبلوماسية أوروبا عامة وإنجلترا وفرنسا خاصة. ولم يتبع عراقى مشورة الذى أصدرته فى ذلك لعدم التعصب يشرح فيه بلمثل. الدول العسكرية الأمور التى دفعت الجيش إلى عمله وتعبده بحفظ ما لجميع رعائها الدول الموالية لمصر من المصالح عندما تنجلي بعد تأليف وزارة شريف الانجاء نحو دعم مصالح المصريين بجانب هذه الضمانات وقد أدى إلى الاصطدام بالاستبداد الداخلى وانتصار الثورة العرابية عليه إلى الاصطدام بالاستبداد الخارجى كما تمثله أوروبا .

وفى الحقيقة أن المساس بمصالح الأوروبين فى البلاد كما تمثلها المراقبة الثنائية كان لا بد منه ومصر تسعى إلى الاستقلال بالإدارة الداخلية التى بسطت نفوذها عليها ولا فقدت هذه الثورة معناها الاصيل .

وقد حاول الخديوى برئيس وزرائه وزعماء المجلس من الاعيان الاعتدال حتى يستطاع تفادى ذلك التضادم أو التخفيف منه غير أن ذلك لم يكن دأب جميع النواب فالجزبان اللذان قاما بالحركة النيابية كانا يمثلان طبقتين مختلفتين فالاعيان من الطبقة الموسرة وكثير منهم من الأتراك والشراكسة وعلى رأسهم شريف ثم الجيش وهو من الفلاحين ولم يكن دأب الطبقة الأولى أن تدافع عن طبقة الفلاحين الكادحة فلا تتبع إلا الاعتدال الذى يصون حقوقها وأن تكون ظلل للخديوى وهو ما لم يكن متوقفاً من طبقة الفلاحين . ولقد كان لفرنسا (٢) أثرها الكبير فى دفع الأمور إلى نهايتها .

(١) روتشجن فى المسألة المصرية ص ١٦١ من الترجمة .

(٢) شكل جيتيا وزارة جديدة فى فرنسا وكانت سياسته النهضاء على الحركة فى مصر قبل أن تمتد إلى شمال أفريقيا وقد رأى من الحكمة (ص ١٥١ روتشجن) فى ١٤ ديسمبر الاتحاد مع إنجلترا لتأييد الخديوى فى الوقت الذى كان فيه عراقى يتشاور على ميزانية الجيش .

أما فرنسا فكانت نظرتها متطرفة نحو الميزانية إذ كانت ترى أن إعطاء المجلس هذا الحق معناه القضاء على جميع التنظيم التي قررها قانون التصفية والمراقبة الفرنسية الإنجليزية .

ولقد طلب قنصلا الدولتين من شريف بإيعاز من الرقيين ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية وقدموا إليه في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى أثناء اشتغال اللجنة الدستورية بالنظر في اللائحة الأساسية لأن ذلك الحق ولو كان مقصوراً على المصالح التي لم يخصص لإرادتها للدين العام فإنه يضر بالضمانات المقررة للدائنين (١) ولاعتقادها بميول المجلس العدائية نحو العنصر الأوروبي في الحكومة ، وقد كان ذلك الاتجاه ممثلاً لمعتمدى الدولتين والرقيين وحكومتها وكان الموقف دقيقاً وعلى جانب كبير من الخطورة وقد رأى شريف أن يلتقي به في منتصف الطريق فيرجى المجلس البت في المادة المتعلقة بالميزانية ولكن عبثاً جأول كما فشل المستر بلنت فقد كان المجلس يتجه إلى استعمال حقه كاملاً وعرض شريف فكرة التأجيل عليه يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨٢ وذلك بأن أعاد إليه في ذلك اليوم مشروع اللائحة الأساسية بصحبة كتاب إلى رئيس المجلس يتضمن رأى القنصلين بحرمان المجلس حقه في تقرير الميزانية على أن تهمي المفاوضات فيها . وأن يتم الاتفاق بين الحكومة والنواب على باقي نصوص اللائحة وطلب (٢) من المجلس إقرار اللائحة كما عد لها مجلس الوزراء وأن تترك النصوص المتعلقة بالميزانية إلى حين ، وأن يمدى النواب رأيهم في أمر الميزانية لتجعله أساساً للمفاوضات بين الدولتين .

الإعراض عن شريف .:

أرتضى العراييون وخاصة البلاد من الأعيان والملاك بشريف ما دام عاملاً حتى إقرار النظام الذي يقضى على ذلك الاستبداد الداخلي الممثل في توفيق وبطانته والاستبداد الخارجي الذي يؤازره . فيفسد على الجيش والشعب خيانه

(١) من معتمد فرنسا إلى .

(٢) الواقع في ١٤ فبراير سنة ١٨٨١ .

فلما تقدم النقوذ الاجتبي لثبوت بمقومات الانجاء الجديد كان حزية أن يولب عليهم الخديو أيضاً عندما يجدا في ضللكم عملاً يستورد به هيبته فيستعيدهما كما لم مستبد في البلاد . ولذا كان قد توله عدم الاستعداد للإعراض عن شريف بسبب مشكلة الميراثية .

ولما كان ذلك يفسح المجال لظهور هذا الرجل بن وعزاي لمنسأ نمطاً التجاوب الطبيعي بين الطرفين فلما لمس البارودي الموقف دفعهم بحكم أهدافه إلى التطرف ليبتسح المجال أمانة للظهور فالتي الطرفان في نمطه ازداد الموقف بندا حدة .

اتجه العراقيون إذن والنواب إلى الإعراض عن شريف وقد استطاعت الأحداث التالية أن تزيد النواقع تعبيراً ووضوحاً .

فلما ظهر كتاب شريف في المجلس ظهر على جمهور النواب روح المعارضة ثم والبرلا اجتماعاتهم في منزل رئيسهم سلطان باشا وانتهت مناقشاتهم إلى قرار رفض طلب التأجيل وإسقاط الوزارة وقد اقرب الطرفان (١) من أزمة حادة .

وفي اليوم التالي لورود الخطاب للمجلس وضعت لجنة الدستور الجديد تقريرها عن كتاب شريف وعرضته على مجلس شوري النواب بجلسته الإربطاه سنة ١٨٨٢م وقد رأيت ضرورية عرض المسألة على هيئة المجلس مع التعديلات التي قررتها مجلس الوزراء ليقرر (٢) فيها ما يلي .

واجتمع المجلس في أول فبراير وعرض سلطان على المجلس تقرير لجنة الدستور وعرضت اللائحة الأساسية المرسله من اللجنة إلى مجلس الوزراء والتقرير الذي أدخله المجلس عليها ثم قرر المجلس اعتبار اللائحة قانوناً مستجيلاً واجتماع اللجنة في نظر التعديلات التي أدخلتها الحكومة على مشروع اللائحة وإعداد الجواب على كتاب رئيس الوزراء .

(١) رسالة سفنكس الى دي فرسينيه لى ٢١ يناير .

(٢) الوفاة لى ١٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

واجتمعت اللجنة فأقرت بعض تعديلات مجلس الوزراء على مشروع اللائحة
ووضعت نصاً جديداً للواد المتعلقة بالميزانية وهو : « أن تعرض الميزانية على
مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويبين من أعضائه لجنة مساهمة لمجلس النظار
عهداً ورأياً لتقريرها جميعاً بالاتفاق أو الغالبية فإن وقع بينهم خلاف وكان
العدد متساوياً من الجانبين وجب إعادة الميزانية للنواب ، فيما أن يؤيدوا رأى
النظار وإما أن يؤيدوا رأى لجنة النواب فإن كان الأول وجب تنفيذ الميزانية
وإن كان الثاني ولم يكن حصول الوفاق كان الحكم في ذلك حكم بند الخلاف
وهو أنه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على أمر ما أن ينفض مجلس
النواب وإما أن يستعفى النظار وفي هذه الحال أى إذا أيد النواب رأى اللجنة
وخالفوا رأى النظار تنفذ الميزانية في المهم الضروري منها لإدارة المصالح وعدم
تأخير الأشغال تنفيذاً مؤقتاً ويبقى أمر الميزانية إلى ما بعد تسوية المسألة
بأى طريق ووسيلة .

ووضعت اللجنة تقريرها وهو التمسك بإعادة الميزانية كما وضعتها لجنة الدستور
ورفض التأجيل بعد أن عرض بموقف شريف وردأت الرد (١) عليه عنقياً وثلاً
اجتمع مجلس شورى النواب يوم الخميس في الثاني من فبراير بدت مناقشاته
النواب تشف عما وراءها من الأخذ بنصيب كامل لحق المجلس بخروجاً عن
اتجاه شريف .

اقترح محمد بك الشواربي تشكيل لجنة تتجه للخديوي طالبة لإقرار ما استقر
عليه رأى النواب فينى إبراهيم أفندي الوكيل رأياً أكثر اعتدالاً وهو السير
أبو لا إلى شريف ليرفع إليه الأمر السوء للكتاب في المجلس ويطلب منه التصديق
على اللائحة فإن أبى فليكن التوجه للخديوي فيتجه أحمد أفندي محمود لاتجاهاً أشد
تحدياً فيرى ضرورة نشر تقرير اللجنة الذي تلى على النواب ، فيعلم لدى رأى
العموم ، .

(١) الوثائق في ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

١٠ - وانتخب المجلس اللجنة (١) لمقابلة الخديوي مكونة من ١٥ عضواً من زعماء المجلس وقد توجه هؤلاء في نفس اليوم لشريف فأبى التصديق على اللائحة وبها المادة الخاصة بالميزانية إلا بعد مفاوضة إنجلترا وفرنسا . عند ذلك توجه الخديوي في لحظة تعلقها الجراءة يعلن: إايه توقف شريف عن التصديق وطلبوا منه سرعة إنجاز هذه المسألة .

لم يكن للنواب في ظل نظام المجلس الأساسي والداخلي الحق في مثل هذا السلوك والمجلس لم يتخلص بعد من نظامه القديم ولكنه كان لو لنا من التجاوز وحمل بأصابع الرجعية على الرضوخ لأهدافه .

أما الخديوي - ذلك المغلوب على أمره - فقد سلك سلوكاً ذا مرمى بعيد إذ رضى بتغيير وزارة شريف ولكنه ترك للنواب اختيار غيرها متنازلاً عن حقه في ذلك ، ولم يكن اتجاهه غير دستوري قطعاً بل لم يكن مألوفاً أيضاً بنحس التقاليد المرعية ، كان اتجاهها يدل على تسليم ما كر للظروف ليترك لنفسه حرية العمل عند الاقتضاء عندما يلقي مسئولية ما يحدث أن يحدث من أحداث سياسية على عاتق المجلس ، وقد استغل المجلس ومن ورائه البراييون الموقف ومظهر الخديوي كالمغلوب على أمره في بساطة ورشعوا الرجل الذي وضع يده في أيديهم وآزرهم وحاول حماية ثورتهم وهو ، محمود سامي البارودي ولم يكن غيره ليصلح ليحمل مطالب البرايين من السياسيين .

وزارة البارودي :

واجتمع البارودي بالنواب الخمسة عشر في داره وهناك استقر الرأي على أعضاء الوزارة ثم صدر المرسوم (٢) إليه بتكليفه بتشكيل الوزارة ومالبس أن دفع

(١) حسن . باخا الفريسي . سليمان باشا أبانلة : محمد بك الضيفي : أحمد بك علي . أحمد بك الشريف . محمد بك الشواربي . أحمد أفندي محمود . أحمد أفندي عبد الغفار . أحمد بك السيوي . إبراهيم أفندي الوكيل . أمين بك القسي . علي بك شمير . عبد الشهيد أفندي بنرس . عمود سليمان . مهدي أفندي يوسف .

(٢) الواقع في ١ فبراير سنة ١٨٨٢ .

للخديوى كتابة بقبولها (١)، وأسماء أعضائها متضمنة بزناجه في الإصلاح الداخلى والعمل على صدور اللائحة كاملة دون المساس بالمبادئ النيابية كحقوق الدين والمعاهدات وصدور المرسوم بتشكيلها فكان البارودى رئيسا ووزيرا للداخلية وأحمد عرابى وزيرا للحرية والبحرية . وعلى صادق باشا للمالية ومصطفى فهمى للخارجية والحقانية وعبدالله باشا فكرى للمعارف وحسن باشا الشريعى للأوقاف وعمود بك فهمى للأشغال وقد استطاع التشكيل الجديد أن يحقق أطماع بعض الشخصيات وفى ظلها شمل الجيش حركة تزقيات شاملة وسعت كل الضباط الذين ناصروه وأيدوه .

صدور دستور الثورة :

وكان أبرز ما عنيت به وزارة البارود هو إعلان الدستور فاجتمع مجلس الوزراء يوم ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ برئاسة الخديوى للنظر فى مشروعه وبعد أن فقحه المجلس بعض التنقيح أقره قمام به وزير المعارف والأوقاف إلى المجلس لعرضه عليه وقد تقرر فيه مبدأ سيادة الأمة وحق المجلس فى نظر الميزانية .

كان الخديوى فى فبراير قد أصدر مرسوماً يحدد نيابة أعضاء المجلس بخمس سنوات ابتداء من يوم انعقاده كما أصدر بعد هذا أمرين أحدهما تعيين سلطان باشا رئيسا للمجلس فى هذه المدة والآخر بتحديد إجتماع المجلس فى هذه السنة على أن يكون يوم ٢٦ مارس ١٨٨٢ وبهذا تطور مجلس شورى النواب فاقسم بسبب النيابية من ناحية الحقوق وليس من ناحية الشكل فقد ظل كما كان من قبل طبقياً لا يمثل غير الممذ والمشايع والأعيان فى احتفاظه بالهيئة القديمة وهو

(١) ما أن تولى البارودى الوزارة حتى أرسل الباب العالي إلى الخديوى فى ٥ فبراير من طريق ثابت باشا مندوبه فى القسطنطينية من القراواتى . أصدرته تركيا فى هذا اليوم عن النزاع الذى قام بين مجلس النواب وشريف حول الميزانية متضمنا النصح بإيجاد الوفاق منسفا للتدخل الأجنبى . أنظر ملف ثابت باشا محفظة رقم ١٦٤ - خطاب ثابت إلى الخديوى دار المحفوظات الخارجية - أنظر المرجع فى الملحق هذا وقد أرسل القراواتى ردداً على سابق يطلب الخديوى باستعمال القوة لاختتام مجلس النواب .

من هذه الناحية لم يكن يحل للأمة تحيلاً كاملاً بالتمسك بالذي تعرفه الأمة وليكن
كل خطوة جريئة إلى الأمام.

ولم يهجم الناس بسدود الدستور واجتمع الأعضاء بين نشوة النصر
يتناقشون ولكن فيم داوت مناقشتهم؟ وبأى روح؟ روح العصر وفي حدود
الأهداف الحقيقية التي سعى الملاك من أجلها لتأييد الثورة لإتجاهها الآخر لإيجاد
نظام حكم تعاوني، وعاشت مصر فترة قصيرة من الحياة النيابية في عهد الثورة لأول
مرة في تاريخها الحديث تحكم نفسها بنفسها وتمارس سلطتها الشرعية بنوابها على
أساس كونها مصدر السلطات وتستقل بشئونها الداخلية من دون العناصر الدخيلة.
فهل ظل هذا الفجر مشرقاً لامعاً في أفق مصر تعالج على ضوئه شئونها وتلبي على
هدية قواهم طمأنينتهما في الخالص والتمام؟

كان التطور النيابي لونا منافياً لاتجاهات أوروبا فألبيت عليه بوحى من أهدافها
الاستعمارية وكما أنها أطلحت بعرضي اسمها على أساس أنه في ذمها - الموعود
لنضال القومى في نهاية حكمه - كان لا بد لها من أن تكتسح أمامها [عراي] [عراي]
بعد أن آثر مصلحة بلاده عليها على أساس أنه المقيم في رأيا لهذا النظام !!

في هذا الوقت كانت بريطانيا تعتقد انه على أن تفصل في الأمر بحمد السيف
وإنما كانت تنتظر حجة تتدرع بها في هجومها على مصر وما كاد التفكير يأخذ
طريقه بحل المسألة عن طريق تركيا حتى استقر على حلها بمقتضى مؤتمر بالستانة
بدعوة من رئيس وزراء فرنسا دي فريسييه فلبت الدعوة ألمانيا وروسيا
 وإيطاليا والنمسا وانجلترا وقبل أن يقرر المؤتمر قراره بدعوة عملية بالاسكندرية
بحجة قيام عراي برسيم الطواي وضربت الإسكندرية بالمدافع ليقيم المؤتمر أمام
الأمم الواقعة وتتفرد هي بوحدة النفوذ في وادي النيل.

قامت الحروب سجالاتاً بين مصر وبريطانيا وكنال الشحيق يقف بجانب جيشه يثبته
أورده بالصلوح بهنق الماوتلبي اللادية ولما احتل الإنجليز الإسكندرية بعد أن
أخلاها الجيش المصري والشعب إلى كنف الدوائر حيث اختار هناك موقفاً

حسيناً له عينه مهندسوا الجيش والثورة ووثيقين أركاناً حزينياً وبنحوة يعيد تنظيم قوائمه ويخصن مواقعها بمساعدة الآلاف من أهالي المديرية المجاورة.

وكان موقف الشعب وعنايته بقواته في هذه المرحلة من مراحل الثورة موقفاً يتم عن الشجائب بدافع البرعة الوطنية ولم يكن ثمة من يشك في أن جهاداً وطقاً يند أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان لاقتادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز .

وقد تبرع الأحرار والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية بالتقود اللازمة للجيش وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم شعورهم نحوهم وزاد التطوع للجيش وسائر الأشغال العسكرية .

وكان الناس من فلاحين وبيدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الإنجليز وكان سكان القاهرة يهرحون في المدينة ليلاً يتخون بمدج عراي .

وقد أبدى أعيان الوجهين البحري والقبلي شهامة عظيمة في إمداد الجيش بكل احتياجاته وبدأ على الأهالي شديد قلقهم للدفاع عن وطنهم .

ولما قامت الحرب لم يكن في خزائنة الحكومة شيء من المال فقد نقل الأجانب أموال الخزائنة وصندوق الدين إلى الأسطول وكان من الأهالي من تبرع بنصف ما يملكه من الغلال والمواشي ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن العرض لعدم قبحته على الدفاع بنفسه . وكانت تلك وقفة الشعب وعراي يوالي جهاده للحيولة دون نفاذ القوات المعتدية إلى القاهرة من منطقة كفر الدوار ، فلما نجح في ذلك إستدار العدو إلى الشرق وإستطاع عراي نقل قواته إلى الميدان الشرقي حيث كان له دوره الوطني في ذلك لولا التحيانة التي لم يكن يتوقعها من بعض ضباطه .

فند أن استقر الجيش وقواده بالتل الكبير أخذت البلاد ترسل إليه آلات الحرب وأخذ الجنود والأهالي يتناقشون في إكتمال الحصون وإقامة المتاريس . وقد تبعه الكثيرون من أهل الحرب حتى أصبح الميدان الشرقي غاصاً بالمتطوعين من زعماء الشعب وجاء إلى عراي عدد هائل من المشايخ والعلماء .

بمحاولات المساس بالوحدة الوطنية :

من الوسائل التي حرص الإحتلال البريطاني في مصر على إتباعها كي يستمر سخطه في البلاد إلى أكبر فترة ممكنة - سياسة التلون في المعاملة بحيث لا يبدو مسافرا . فلا يستخدم السيف في موضع اللين . فكان يرضى ولا يفضب ويفرق ولا يجمع . لتبقى يده هي العليا ، وهو بهذا إذ يحاول المساس بالإلتسجام الوطني - يبقى على مصر في حالة من التفكك والتبعية .

وكان من وسائله في ذلك إثارة موجة الاقليات ، وقد تعرضت مصر لهذه المحاولات بصور شتى .

وتجلى فلسفة الإحتلال هذه في كتاب اللورد كرومر (مصر الحديثة) واضحة ، فقد عبر عن رغبة عميل الإحتلال إلى خدمة بلده على حساب مصر وانظرته نحو : الشعب المصري ، فقد حل مصر على أنها ليست شعبا متجانسا والسكنها بلد خليط من الأجناس والأديان : مسلمون ومسيحيون وإقريقيون وآسيويون وأوروبيون ، نظرة إستعمارية تقليدية تجاه الحقيقة ولكنها تبرر الوصاية الأجنبية بحجة عجز هذه العناصر المختلفة عن حمل أمورها وإقامة وطنها وضرورة بقاء الأجنبي « الأرقى » ، لئلا يكون بذلك سلطة وميزانا وحكما .

ورغم أن الحكم البريطاني قد تحطمت محاولاته على صخرة الوحدة الوطنية الراسخة في مصر ، فلم يتوقف الإنجليز طيلة مدة إحتلالهم عن هذه المحاولات ، وقد إبتهم أكبر فرصة لذلك يوم إغتيال الورداني بطرس باشا غالي سنة ١٩٠٩ . فقد حاولوا أن يجعلوها فتنة دينية في البلاد رغم أن القضية كانت سياسية تماما كما كانت تنطق بطبيعتها وكما جاءت في مناقشات مجلس العموم البريطاني إذ ذاك . وكان بطرس باشا غالي يحاول إقناع الجمعية التشريعية بإصدار قانون بمد إمتياز شركة قناة السويس . وكان يشاركه في الوزارة بالطبع وزراء كلهم مسلمون .

وقد اغتيل قبله وبعده سياسيون مسلمون على أيدي مسلمين ، ولكن المحاولة الإنجليزية وضلت قمتها بعد الحادث القبطي في أسيوط سنة ١٩١١ ، ثم بعقد المؤتمر المصري ردا عليه في مصر الجديدة .

ولم تكن يد السير ألدون جورست المعتمد البريطاني بعيدة عن الدعوة إليهما .
وبما يؤكد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة لعقد هذا المؤتمر القبطي ، وهي التي
فكرت في إسناد رئاسته إلى مصطفى رياض باشا عميل الاحتلال، وأوعزت إليه
برئاسته رغم شيخوخته .

ولولا أن الاحتلال كان مقتبضا بهذه الحركة أو راضيا عنها ، لما فكرت
الوزارة في تأييدها ، وبما يؤيد ذلك أيضا أن جميع مواضيع المؤتمر القبطي ، قد
خلت تماما من أي معارضة إنجليزية للإحتلال أو انتقاد لسياسته أو مطالبة بتحقيق
وعوده ، في حين أن طابع المؤتمرات الوطنية في ذلك العصر والعهد - كان توجيهه
الامة لمقاومة الاحتلال والجهاد في سبيل الاستقلال ، وبما يستوقف النظر حقا
أن خطباء المؤتمرين لم يقولوا كلمة ضد الإحتلال، وبما يشرف تاريخ محمد فريد حقا
أنه لم يشترك في هذه المظاهر التي تتناقى مع منهج مصطفى كامل في تدعيم الوطنية .

وقد كتب محمد فريد عن ذلك في مذكراته : « في أثناء سجنى » ، شرع في
المؤتمر المصرى الذى جمعه محمد سعيد باشا بناء على رغبة السير ألدون جورست
لمعاداة الاقباط وبالتالي التفرقة بين الاقباط والمسلمين .

وشاء الإنجليز أن ينشغل المصريون بأنفسهم عن الاحتلال وأن يجدوا أعداء
من بينهم بدلا من التركيز على العدو الحقيقى ولكن عبثا حاولوا - فسرعان
ما احتوت هذه المحاولات وغيرها الحركة الوطنية المصرية الحقيقية وغرقت في
خضم حركة التنوير الليبرالية الكبرى التي عرفتها مصر منذ الإمام الشيخ محمد عبده .
ومن بعده ثم احتوتها ثورة ١٩١٩ التي وجهت أعنف الضربات إلى محاولات
الإستعمار فى هذا المجال ، وكان تعميق الوحدة الوطنية من أهم وأعنف إنجازات
ثورة ١٩١٩ وقيادتها التاريخية التي تمثلت فى زعامة سعد زغلول الامة المصرية .

النضال الوطني

الوحدة الوطنية

في ثورة الشعب ١٩١٩

لم ترض مصر بالتسليم، بإخفاقي ثورة غرابي سنة ١٨٨٢ بل ما كادت رويها
تتمكن مدة عشر سنوات حتى أخذت ترفع رأسها بين الجذوم لتجميع في مد قوتها
جديد، منذ بداية القرن العشرين أخذ الكتاب الصحفيون يدعون الشعب للوحدة
الوطنية والتناكسك لمعاودة مواجهة الخطر الاستعماري كما كانت تمثله بضفة خاصة
بريطانيا، باجتماعها مصر. حتى تبلورت الدعوة في النضال مصطفى كمال ومن
بعده وصلت الحركة الوطنية رجل الشارع في عهد محمد فريد، داعية النضال من
أجل الحرية على أساس الوحدة الوطنية للتسامحة الضامنة.

بخدا الواعي القومي ينتشر حتى نجاة الحرب العظمى الأولى فكانت ميلاد
عمل رى جديد.

ولقد بدأ الاختيار الثوري ينساب بين المجتمع المصري ضد الاحتلال عندما
بتطاع بذلك الاحتلال بوجهه السافر أن يصل إلى قلب المجتمع إبان الحرب
بتعارفه مباشرة ومساساً بالقيم التي كانت قوام ذلك الروح والتي كان يعيها وعياً
مباشراً ويجرب عليها حربه على كيانه وحياته. ومن ثم كان يمكن للاختيار
الثوري مع أكبر مصادره على الدفع الحركي ولما كان الاحتلال أكثر احتكاكاً
ومساساً بالقيادة الشعبية ونظراً لأنها كانت إذ ذاك وهي البيئة المحافظة تمثل
مكان هذا الروح في قوته كانت تلك تتأهل بطاقات ثورية كبرى.

كان الاختيار الثوري ينمو في فترة الحرب في ظل الحماية ضد الاحتلال فربط

مصر: بشعور واحد، فإن جعل مختلفاً في مستوي ياتيه بين فرد وآخر أو طبقة وأخرى بكل باختلاف النظر والاستعداد للتجاوب مع تحديات الاحتلال بين الفلاحين والغيار والبرجوازية من المثقفين .

أما العامل السياسي فقد كان أدخل إلى وعي المثقفين منه زلزال يوحى سائر الطبقات وكان هؤلاء ينظرون للقومية غاية وبكراهة ثم رومسية ، بهذا كان عظيم جن الاختيار الثوري القائم على الوعي السياسي يمثل خطأ وإفراً عالمياً .

يقول أن هذه الأسباب بالرغم مما كان لها من تأثير عظيم في الإسهام في الاختيار الثوري فإنها لم تكن تمثل السبب الرئيسي لذلك ، بل كانت تلك أسباباً ثانوية بمساعدة .

فصر لم تغضب فقط لشظف العيش والفاقة والمظالم الاقتصادية بالضرائب والمصادرة وغير ذلك بل بسبب أهم وهو ما وراء كل ذلك ، من المساس بكرامتها . فقد تحملت هذه كلها لو كانت لغاية وطنية أو فكرة إنسانية ولكن علام الاحتمال ؟ وهل إذا اكتسبت إنجلترا الحرب فتسكيل مصر بإغلال اليهودية في ظل الحماية وتحررها من حقوقها القومية السياسية أو تسكيلها للتمدد على غيرها ؟ ولكن ربما كان ذلك للشعور أدخل أيضاً إلى وعي المثقفين . وأوضح لديهم من خيرهم .

أما السبب الرئيسي العام الذي بحث الأمة بالاختيار الثوري فلم يكن فقط ما وراء المظالم من المساس بالكرامة السياسية بل المساس بالكرامة في قضا المرتكزة عليها في الأعماق أساساً ، الروح المصرية الذي يمتد بأصوبه في أعماق التاريخ المصري العريق ويقوم عليه كيان الأسرة إذ ذاك والمجتمع وهو وإن كان في مستواه قوياً عند الفلاحين والمحافظين إلا أنه كان يعتبر أقرب إلى وعي للشعب كله .

ولقد استطاع الاحتلال وهو ينصح عن طبيعته الظالمة الجارحة بأساليبه التي تجلت في مظالم السلطة العسكرية إلى حد كبير أن يوصل إلى قلب المجتمع حتى طرق مكان وجدانه طرقاً مباشراً حارقاً فيما احتواه من قيم روحية . ولقد عاش من أجلها الشعب في إطار الأسرة ومن ثم بعثه بمناقم على اختيار قومي .

كانت . مصر إذ ذلك تعيش في إطار قيم الأسرة بما انحدر إليها من غابر حضارتها وامتزجت بقيم من الحاضر بما تخلق منها كيانا روحياً قوياً ووحدة وطنية متماسكة صامدة عبر العصور .

وسرعان ما امتدت من القاهرة إلى سائر أرجاء مصر جذوة قوية مضطرمة وإذ فوجئ الاستعمار بالثورة فإنه لم يلبث بعد الصدمات الأولى أن حاول تفتيتهم فاستخدم الشدة في مواجهتها في الداخل ثم حاول عزلها خارجياً وبدأت الثورة بمظاهرات سلمية ألحقها الطلبة يوم ٩ مارس ١٩١٩ فتصدى لها البوليس ثم أضرب طلبة الأزهر وجميع المدارس وخرجوا في مظاهرة اشترك فيها الجمهور هاتفين بحياة مصر مطالبين بالحرية فلم يسع القائد البريطاني إلا أن أصدر أمراً بمنع المظاهرات منذراً المتظاهرين بالعقاب على أنهم برغم خروج بعض القووات البريطانية في الشوارع وفض المظاهرات لم يعبا بهم المتظاهرون .

ولم يلبث المحامون في ١٠ مارس أن أسهموا في هذه الثورة فأعلنوا الإضراب عن عملهم لإحتجاجاً على المرقف الذي تردت فيه البلاد وكان ذلك بمثابة دعوة لطوائف الشعب أن تلتهم في وحدة واحدة من الإضراب الشامل لإحتجاجاً وإبداء شعورهم الكاره للإحتلال فكان ذلك من عوامل نجاح الثورة . وما لبث أن قام إضراب المحامين الأهلين وتبعهم زملاؤهم المحامون الشرعيون ، ومن ثم تعطل القضاء في جميع المحاكم ثم امتدت جذوة الثورة لإشتعالاً فأضرب في اليوم نفسه عمال العنابر وعمال السكك الحديدية فتعطلت المواصلات ودواوين الحكومة ومواصلات الشركات الأجنبية وأقيمت الحواجز والمتاريس في كثير من الأحياء وهوجمت سيارات نقل جنود العدو كما خربت الخنادق .

وفي ١٦ من مارس قامت مظاهرة من النساء وقدمن لإحتجاجاً مكتوباً إلى معتمدى الدول الأجنبية برغم محاولات الجنود البريطانية الحيلولة دون تنفيذ عملهم وقد كان لوقع ذلك أثر في نفوس الشعب وقد عمل على تعبئة المشاعر وحث على المضى في ركب الثورة بحماس تحدوه روح التضحية .

ومن القاهرة إمتدت شعلة الثورة إلى الأقاليم بعد أن ضربت لها القاهر د مثلاً

في التضحية ورسمت لها الطريق إلى الحرية ومعنى الاهالي قدماً بنزعة قومية ووعى
سياسي وإن اختلفت مستوياته بين الجمهور فقد أظهرت القاهرة مستواها الاعلى
من الاختبار بين المثقفين .

وامتدت المظاهرات بين سائر المثقفين إمتداداً أفقياً من القاهرة . إلى سائر
مدن الإسكندرية وطنطا ودمنهور والمنصورة وشبين الكوم والزقازيق وبنى
سويق والمنيا والفيوم وأسيوط وسائر العواصم وما لبثت الثورة أن امتدت إلى
صميم القرية تتجاوب الفلاحون معها من خلال معاناة مساوية الإحتلال وقد استمرت
فكرة قطع المواصلات إبتداء من ١٢ مارس وما بعد استمرت في الوجهين القبلي
والبحري برغم إنذارات القائد البريطاني بالويل لمن يحاول العبث بالمواصلات حتى
إحضر إلى منع الانتقال من قرية إلى أخرى وتوجيه حملات إلى الأقاليم لقمع
الثورة وحراسة المواصلات .

ومع تماسك الوحدة الوطنية كان إمتداد الثورة إلى أعماق الريف وقد
امتدت كذلك في القاهرة وبلغت عمقا روحياً أثمر في نضالها الطبيعي فاشتدت في
ثورتها إشتداداً حتى عاد الأزهر كما كان من قبل في ظل الثورات المصرية
الأولى من تاريخ مصر الحديث ، قلب الثورة التابض ، فخل بالخطباء من كل
الطبقات والأديان .

وفي ١٧ مارس قامت مظاهرة كبيرة نظمت بإحكام وحرصت القيادة
البريطانية على حدم المساس بها حقنا للدماء التي قد تزيد من حماس الثورة فأرسلت
حكمدار العاصمة الإنجليزي ليسير في المقدمة حتى لا يصطدم الثوار بالجنود
البريطانيين . ولا غرو فقد جمعت بين جميع الطبقات من علماء وقضاة ومعلمين
وعامين وتجار ورجال أعمال وطلبة الأزهر والمدارس وطوائف الصناع إلا أن
السلطات البريطانية لم تلبس أن شددت على المظاهرات حتى لا تتكرر و برغم ذلك
مضى المد الثوري وخرج عمال العناير في يوم ٨ مارس قاصدين الأزهر فاعترضتهم
قوات المدو بوابل من نيرانها فسقط كثير من القتلى والجرحى ثم مالبت الذبائن
أن تاودوا الكرة في ١٣ مارس لإحتجاجاً على سفك الدماء وقد إتسمت الثورة

بالحرص على صيانة أهدافها القومية وإذ كانتا قتالفت جماعة من الثوار تولوا حفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي أثناء الاجتماعات التي تعقد وقد سميت هذه الجماعة التي توعدا الإنجليز بالويل والعقاب بالشرطة الأهلية .

وقد نجحت بريطانيا في حصار الثورة في الخارج بتأثيرها الدولي وإعتراف مؤتمر الصلح بالحماية، ثم محاولاتها استخدام العنف واللين تارة . في الداخل . ومن ثم كانت دار الحماية إذ ذاك بقصد أن ترى للشعب عدم جدوى ثورته وتدفعه لقبول الأمر الواقع ، وقد كان وقع ذلك الاعتراف ، بلا جدال بين الشعب مؤثرا ، فقد قابله بدهشة مقرونة بمرارة وألم .

على أن ذلك وإن ترك آثاره بحكم الطبيعة إلا أنه لم يؤثر على تماسك الشعب ولا صموده ، وقد تجلى ذلك في بقاء البلاد بلا وزارة وفي احتجاج عن قبول الوزارة حتى يأمنوا الخروج عليها ، وقد اضطر النبي علاجا لذلك بتحويل وكلاء الوزارات سلطة الوزراء ، وتجلى ذلك من ناحية أخرى في مواقف الطلبة وإصرارهم على استمرار الإضراب .

كان هؤلاء مضربين طوال شهرى مارس وإبريل ، فلما دعاهم النبي إلى المدارس ابتداء من ٣ مايو ظلوا على إضرابهم فأصدر بلاغا في ذلك اليوم أنذر فيه بإغلاق المدارس إذا لم يعد العدد الكافي لفتحها ، ورغم هذا كان رد الطلبة على هذا البلاغ بإقامة المظاهرات احتجاجا عليه بدلا من الإذعان له .

ولما لم يعودوا إلى مدارسهم في الموعد المحدد في البلاغ وهو ٧ مايو ، أمر بإغلاق جميع المدارس حتى يدعو بأستئناف العام الدراسي التالي فانتهر الطلبة هذه الفرضه واستمروا في إقامة المظاهرات الكبيرة وتعرض لهم الجنود البريطانيون فأصيب كثيرون ، كما قبض على آخرين .

ولما أعلن تعطيل الوزارة وسائر المصالح الحكومية في يوم الثلاثاء ٦ مايو أثار ذلك الإعلان غضب الجمهور فعمت المظاهرات نواحي القاهرة في ٦ مايو احتجاجا على ذلك .

واستمرت الثورة وإن اتسمت بأسلوب مسالم فقد كانت تتطوى على غضب
يخيم عليه سكون لسي .

وبدأت الحكومة تشعر بوجود ذلك السكون النسبي فأرادت إصلاح معظم
الخطوط الحديدية ، وأخذت السلطات العسكرية كثيراً من الثقة وأتاحت السفر
من القاهرة ومعظم مدن الوجه البحري ، بدون جوازات سفر اعتباراً من ١٠ مايو ،
كما ألغت جوازات السفر للوجه القبلي أيضاً ابتداء من أول يونية .

ومع هذا الهدوء النسبي أخذت تنساب إليه أنباء الخذلان أمام مؤتمر الصلح
فتجلى آثارها بين الشعب . وفي ذلك الوقت من شهر مايو أعلنت شروط الصلح التي
كان الحلفاء قد قرروها وسلمت إلى الوفد الألماني في مؤتمر فرساي في ٧ مايو ١٩٢٠
لجاءت النصوص الخاصة بمصر من المادة ١٤٧ إلى المادة ١٥٤ مؤيدة للحماية التي
فرضتها بريطانيا على مصر وقد قبلتها ألمانيا ضمن ما قبلته من شروط الصلح وأصبحت
جزءاً من معاهدة فرساي التي وقعت أبضت فيما بعد في ٢٨ مايو عام ١٩١٩ .

وقد كان لاعتراف المؤتمر بذلك أثر أليم في نفوس المصريين كما كان للاعتراض
السابق على الحماية من الولايات المتحدة أن يثير الشك في نفوس الشعب من جدوى
كسب المجال الدولي بجانب القضية المصرية وما لا جدال فيه أن الثورة في صدارتها
حتى هذا التاريخ ، كانت قد خسرت بالاعتراف الدولي بالحماية البريطانية على مصر
قوة لو كانت قد توافرت في هذه الفترة لحققت كل أهدافها .

ولم تكن خسارة مصر ثمرة سيطرة بريطانيا على الموقف الدولي فقط بل أيضاً
لعدم توافر الجوال الدولي لمصر في ذلك الوقت الذي ينظمه رأى عالمي حر أو مضاد
للاستعمار على نحو تستطيع به موازنة تلك السيطرة في المنظمة الدولية مثلاً ، فقد
كانت حركة التحرر العالمي في بدايتها .

وكان من الطبيعي أن ينتهي ذلك كله بانتقال الحركة السياسية إلى ساحة مصر
مستندة إلى تماسك الوحدة الوطنية .

ولقد أخذ شعور بريطانيا بالثقة في هدوء مصر يتجلى في خطبة القاها
المررد كرزون بأسم حكومته في ٥ مايو في مجلس اللوردات عن الحاجة

في مصر . فأقر بأن الحالة قد تحسنت عن دى قبل وإن لم تبعث هلى الرضا ، وأن النظام قد عاد . ثم أخذ يشير إلى بعض الأحداث التى حدثت كإضراب الموظفين والطلبة . . وغير ذلك ، ثم تكلم عن اعتراف ولسن بالحماية البريطانية على مصر وما سبقه من اعتراف فرنسا وروسيا بها على أثر إعلانها عام ١٩١٤ وما تضمنته ، معاهدة الصلح المعروضة على ألمانيا وحلفائهما من الاعتراف بها ثم قال : وعلى ذلك لا يمضى زمن يسير حتى تنال الحماية الاعتراف العام ، وتساوئ عن الفائدة التى جناها المصريون من الثورة ، وإنه إذا كان الغرض من هذه الثورة وما صاحبها من الخسارة فى الأرواح والممتلكات لإنهاء علاقة البريطانيين فى مصر وتحقيق استقلالها فقد قضى عليه بالفشل وأن حكومته لا تنوى مطلقاً أن تتخلى أو تغفل عن الالتزامات والنفقات التى تحملتها عندما وضعت مهمة حكم مصر على عاتقها وأن هذه الالتزامات والنفقات قد تأيدت بإعلان الحماية البريطانية عليها ثم أبدى عطفاً على الأمانى المشروعة فى دائرة الحماية . ورأت حكومة بريطانيا كعلاج للاضطرابات فى مصر إيفاد لجنة برئاسة ملتر لتحقيق أسباب ذلك ، واقترح القانون النظامى اللازم فى سبيل الحكم الذاتى وضمان المصالح الأجنبية فى ظل الحماية البريطانية .

ولم يأت خطاب كرزون مقرراً للواقع ، أو حقيقته ، فى كل ما جاء به ، بل كان فى جوهره تعبيراً عن شعور بريطانيا فى ثقة مزوجة بالتحدى من أنها قد حققت قسطاً من السيطرة على الثورة بما يعنى فى نظرها تهديد السبيل إلى حد ما لتقل الحركة السياسية إلى الداخل ، حتى لم يعد إلا الإصرار على إرسال لجنة ملتر للعمل على تثبيت الحماية ، كما كان إيذاناً بانتقال الحركة السياسية إلى مصر حول الحماية .

ولقد اضطر بريطانيا إلى ذلك السلوك موقفها من الثورة فى الخارج والداخل ورغبتها فى استكمال نجاحها فى الخارج .

وكان لزاماً على بريطانيا أن تستكمل تأييد الموقف الدولى للحماية بالحصول على موافقة المصريين عليها كى تصبح شرعية لاسيما وأن معاهدة الصلح مع تركيا لم تكن قد أبرمت فقد كان من المحتمل أن تصرح تركيا بأن مصر لم تقبل الحماية

فلا يمكن بهذا أن تعترف بها ، وبالتالي لا يمكن التنازل عن حقوق سيادتها الرسمية لدولة غير مصر إذا كان من الضروري أن تنازل عنها . على أن ذلك لم يكن ميسوراً لإنجازه بالرغم مما قطعت بريطانيا من خطوات للسيطرة على الثورة في الخارج والداخل بمجرد إرسال لجنة ظاهرها تحقيق أسباب الثورة وباطنها العمل على الحصول على اعتراف المصريين بالحماية ومن ثم تستكمل شرعيتها فلم تكن الثورة قد قامت بعد حتى يصبح من السهل أن يوجه إليها ذلك التحدى فيتلاشى غرضها القومى الاسمى .

كانت بريطانيا قد قطعت خطوات فى مواجهة الجبهة الداخلية لتمهيد الخواطر لقبول الحماية ، فلم يعد ممكناً لاستكمال ذلك إلا وزارة تشرى وتعيد النظام وتمهد الطريق لأعمال لجنة ملر .

ولقد جاءت خطبة كرزون إثباتاً للعمل ونقلاً للمركة فى اليوم الذى نشرت فيه خبايتها فى ٢١ مايو ١٩١٩ بدأت بريطانيا تنفذ ما اعترمت عليه ، فاستدعت رجلا كان بينه وبين سعد جفاء وطلبت منه تشكيل وزارة جديدة فألفها بنير برنامج قومى لا يهتما شىء إلا دفع الشعب للسكينة والتمهيد لتثبيت الحماية .

ولقد انتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين أعضاء الوفد وبدأت العمل بإرسال لجنة ملر إلى مصر لأمور منها فى نظرها على الأقل إنه إذا لم تنته إلى تحقيق الغرض فى الحصول على اعتراف المصريين بالحماية فهى بذلك توسع رقعة الخلاف بين وحدة الوفد بما انتهى إلى تصدع الوحدة القومية .

ومع بداية التحدى البريطانى أخذت الجبهة الداخلية تتحرك لمواجهة المركة فقد كان من الطبيعى مع بداية خذلان القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح وتسرب أنباء ذلك الخذلان إلى مصر ، أن يزداد اعتقاد المصريين بأن المسألة المصرية لم يعد فيها إلا أن نحارب على أرض مصر ذاتها وأن قوتها لتحقيق النصر هى وحدتها القومية ومن ثم بدأ الاهتمام فى الداخل بالحفاظ حول تماسك الجبهة الداخلية وما لبث ذلك عقب الإعلان عن إرسال لجنة إلى مصر لإمضاء معاهدة الصلح بما أيد الحماية البريطانية على مصر أن أصبح مسئولية تاريخية أقيمت على ماق

الوفد فقام بها الجهاز السرى بقيادة عبد الرحمن فهمى خير قيام .
وأخذ الطرفان يلتقيان فى معركة الحماية فى صراع سافر فى ظاهره منذ أن
تولى محمد سعيد رئاسة الوزارة ، وفى باطنه كان نضالاً ثورياً يدعمه الجهاز السرى .
بالشدة والضراوة للحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية بكافة الوسائل .

خرج الشعب بعد أن تألفت الوزارة يرد على تحدى بريطانيا بالاحتجاج على
تأليف هذه الوزارة (١) ويمضى فى تعبيره عن أهدافه بما يثبت استمرار الثورة
بعد ذلك ، وكان أروع تعبيراً فى مقاومته للجنة ملنز بما دفع بريطانيا أن تشعر
بقوة الثورة وبقوة تماسك الجبهة الداخلية وبفشل سياستها التى قامت على تجاهل
الوفد ، بما يدفعها لأن تتراجع عن غرورها ودعواها والاقتراب من
الأمانى المصرية .

كانت مهمة هذه الوزارة الأولى : إعادة السكينة والنظام فى مصر ، فوجه
سعيد جهده كله فى ذلك ، فمضى بسياسة كان ظاهرها كسب ثقة الشعب ، وباطنها
دفعه إلى الرضاء بالواقع ، لمحاول شغل الشعب عن الكفاح السياسى بالاهتمام
بالمسائل الجزئية الخاصة ، بزيادة أجور الموظفين والإفراج عن بعض المعتقلين ،
لمهدئة الخواطر ، فنجح فى ذلك نجاحاً كان موضع تقدير النبي .

ولقد كان من نتائج إمضاء معاهدة الصلح ونجاح الوزارة فى التعجيل بإعادة
السكينة أن تساهلت السلطات العسكرية وأذعن لإقتاعه بتحويل قضايا الوطن
من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية باستثناء حوادث الاعتداء على أفراد
القوات البريطانية وإن جاء إيقاف المحاكم العسكرية مؤقتاً ، كما استجاب النبي
بطلب الوزارة الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين كما ألغيت الرقابة
على الصحف .

على أن ذلك ما لبث أن تكشف مغزاه أمام الشعب فعرف باطنه من أنه لم يكن
مقصوداً لذاته ، بل كان مقصوداً لشغل الشعب عن الكفاح السياسى فكان الناس

(١) عبد الرحمن الرافى ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٣٩ وما بعدها .

يستريون بنياته حتى نغم عليه أحد الغلاة لقبوله الوزارة وتهيئة الخواطر للرضاء بالواقع فشار عليه ورماء بقنبلة في ٢ سبتمبر ١٩١٩ لم تصبه ولكنها هزت أركان الوزارة .

على أن النبي مالبث أن أدرك مباشرة حقيقة الموقف ، في ضراوة المقاومة ، من تماسك الجبهة الداخلية وذلك عندما علم الشعب بنبا إرسال لجنة ملنر ، فسرعان ماهاجت الخواطر فتواصى المصريون بمقاطعتها .

دور الجهاز السرى :

ولقد ظهر دور الجهاز السرى، في معركة الحماية ، يستمر في قوته وشد إزره وحمايته ضد الدسائس والخصوم التي شاء الاحتلال الاستناد عليها في هذه المعركة السياسية ، والحفاظ على الخط الثورى عموما متماسكا قويا ، والوحدة الوطنية صامدة بالتوجيه تارة والتنكيل بالدسائس تارة أخرى.

وصدرت الأوامر في أوائل سبتمبر عام ١٩١٩ إلى مصالح الحكومة ودواوينها لإعداد التقارير والبيانات والإحصاءات اللازمة التي ينتظر أن تطلع عليها اللجنة عند وصولها إلى مصر (١) .

وأعلن رسميا في ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ في لندن تأليف اللجنة برئاسة ملنر وزير المستعمرات ولقيف من العليمين بشئون مصر المدنية والحربية ، وقد تجلى منذ إنشائها البرم والسخط على تأليفها فقامت مظاهرات الاحتجاج في القاهرة والإسكندرية منذ أوائل أكتوبر ١٩١٩ والأيام التالية (٢) إعلانا للإحتجاج على تأليف اللجنة وقوبلت المظاهرات بالعنف البالغ، كما حاولت الحكومة فض هذه المظاهرات بمختلف الوسائل وما لبث الموقف أن تفتق من هذا الهياج عن ملاح صادرة من دار الحماية عن قدوم لجنة ملنر وذلك في مساء ١٤ نوفمبر ١٩٢٩ وحددت مهمتها بأنها ستقوم باقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحماية؛

(١) دكتور عبد العزيز رفاعى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ من ٢٠ وما بعدها .

(١) عبد الرحمن فهمى ، ثورة ١٩١٩ ، ص ٩٣ .

وقد رد الحزب الوطني على البلاغ في بيان إلى الأمة أعلن فيه سيامة عدم المفاوضة مع المحتلين ، وأعدت لجنة الوفد المركزية بيانا أذاعته في ١٦ نوفمبر ١٩١٩ احتجاجا على صدور ذلك البلاغ ووعده مخالفا للبادئ التي أعلنها الحلفاء والبادئ التي جعلت أساسا للمهدنة والصلح ، وإرادة الشعب المصري الذي يعترف ما هو مصير بلاده .

وعلى أثر صدور بلاغ دار الحماية، قامت المظاهرات في العاصمة منذ ١٥ نوفمبر واشتدت في اليوم التالي ، وانتهت إلى خسائر في الأرواح من الاصطدام بالبوليس والقوات الإنجليزية .

وحدثت في الإسكندرية مظاهرات في ١٥ نوفمبر إثر اطلاع الجماهير على بلاغ دار الحماية انتهت بتصادم ثوري بينها وبين البوليس والجيش البريطاني كما انتقلت المظاهرات إلى بعض الأقاليم مثل طنطا والمنصورة وشبين الكوم وغيرها .

ولم يدم الوفاق بين الوزارة والني ، فقد اختلفا في مسألة (١) ملتر .

كان النبي يرى أن امتعاض الشعب من قدوم اللجنة سبب كاف لتعجيل قدومها وإن إقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لا حساب لها هو مقدمة صالحة لقدوم اللجنة .

شاء سعيد إرجاء إرسال اللجنة انتظارا للقراخ من عقد الصلح مع الدولة العثمانية، تنازل فيه عن حقها في السيادة لبريطانيا ومن ثم تطعن الثورة في الصميم فأبى الغرور البريطاني في شخص النبي أن يرضى بذلك الاتهام بالضعف أمام ضجة المقاطعة وقد دفعه لتعجيل ماعله من بواجر التفكك الذي أصاب أعضاء الوفد في باريس فشاء الإسراع في استدراج العناصر المعتدلة لمزيد من الانشقاق .

وإزاء ذلك الخلاف لم ير محمد سعيد بدا من الاستقالة بعهد لشر بلاغ دار الحماية عن مهمة لجنة ملتر ، واشتداد المظاهرات فرفع كتاب استقالته في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ .

(١) دكتور-عبد العزيز رفاعي : ثورة سنة ١٩١٩ ص ٢٠٢ وما بعدها .

ونشطت الشائعات البريطانية في هذه اللحظة الحرجة التي كانت مصر تجمع فيها على مقاطعة لجنة ملتر التمهيد لمقدم اللجنة والعمل على نجاح أهدافها فشاء النبي محاولة ضرب الوحدة الوطنية في تماسك المسلمين مع الأقباط ، فعمد إلى تكليف أحد الأقباط وهو يوسف وهي بتأليف الوزارة فألفها في ٢١ نوفمبر ١٩١٩ بغير برنامج قومي ، ولكن عبثاً حاولت هذه السلطات بلوغ أهدافها أمام تماسك الشعب .

وإذا كان رئيس الوزراء قبلياً فقد أعلن الأقباط إذ ذاك استيائهم منه وسخطهم عليه وعمدت السلطات العسكرية أن توجه نشاطها لدعم مركز الوزارة بمناسبة قرب قدوم لجنة ملتر ولكن جاء رد الجهاز السرى عليها رداً قوياً قوت عليها أغراضها في ذلك ، ولما كانت تستهدفه من ضرب الوحدة الوطنية .

فقد حدث أن استدعى النبي قبل تأليف الوزارة محمود سليمان رئيس اللجنة المركزية للوفد وإبراهيم سعيد وكيلها وطلب منهما مغادرة القاهرة إلى بلديهما مع بقاء عبد الرحمن فهمي تحت المراقبة في القاهرة . ولما لم يذعن الأولان ، رحلتها السلطات العسكرية كما رحلت على ماهر إلى الأنصر واعتقلت غير هؤلاء من زعماء الحركة في الأزهر .

وقد رد عبد الرحمن فهمي على ذلك رداً قوياً على بريطانيا أغراضها إذ جمع اللجنة المركزية وعين مرقص حنا عضو اللجنة وكيلها ورئيساً بالنيابة ثم كتب إلى سعد في ٣ ديسمبر ١٩١٩ - يشرح فكرته من وراء ذلك فيقول :
أعتقل صاحب السعادة محمود سليمان باشا وإبراهيم باشا سعيد (١) وقد خلا بذلك محلا الرئيس ووكيله ، ونظراً لأننا فهمنا من سياق الحديث أن السلطة المنصرفه في شئون مصر الملتفين حولها أرادت إسناد مركز الرئاسة إلى يوسف وهي باشا معلين ذلك بأن يكون هذا سبباً من أسباب تعدد القلاقل بين صفوف الأمة .

ويسترد فيقول : في هذه الظروف الحرجة ذاتها استصحبت ستة من

(١) عماد أنيس دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ص ٥٠

أهوانى أعضاء الوفد باللجنة المركزية وتوجهنا إلى الكنيسة يوم الأحد ٣ نوفمبر
للماضى وأبدينا مشاركتنا لهم في تألمهم من قبول رئيس الوزراء لمركزه
الجديد وأكدت لهم أن هذا لا يمكن بحال من الأحوال أن يسبب أى نفور في
علاقتنا لأنه إذا كان وجد من بينهم من قبل الوزارة في هذه الظروف المرجحة
فقد وجد بيننا سبعة بحواره من المسلمين (يقصد أعضاء الوزارة)

حضور اللجنة :

ولقد وصلت اللجنة مصر في ٧ ديسمبر ممثلة بجميع الأطراف الإنجليزية
ومؤلفة من رجال مشهود لهم بمعرفة الشئون المصرية السياسية ووبرئاسة ملتر
وزير المستعمرات البريطانية .

وكانت بريطانيا تأمل في عهد وزارة يوسف وهي أن يقابل الوفد بالترحاب
ولسكنها ما كادت تستقر حتى أحست أنها في حصار لا يجد له منفذاً إلى لقاء .
فقد قابلها الشعب بامتناع ، كما كان متوقفاً ، وانتشرت الإضرابات
احتجاجاً على قدومها .

ثم قام الطلبة في اليوم التالي بمظاهرات عدة في ضواحي القاهرة ، ثم انتهت
الاحتجاجات على اللجنة .

وكانت المظاهرات في الاسكندرية وكثير من العواصم قد قامت احتجاجاً
كما قام المحامون بالإضراب أسبوعاً من ١٧ ديسمبر احتجاجاً على قدوم اللجنة .
ثم وقع حادث ألم ولكنه غذى الثورة بالحرارة ، ذلك هو عدوان الجنود
الإنجليز على الأزهر في ١١ ديسمبر ١٩١٩ .

هذا وقد بدأت مظاهرة صبيحة ١١ ديسمبر من طلبة الأزهر وغيرهم فلما
قطعت في سيرها شوطاً أدركها الجنود الإنجليز بالسيارات فهاجموها وعادوا
إلى الأزهر ودخل كثير منهم فدخل وراءهم الجنود الإنجليز بتعاليمهم على كل ما صادفهم .
فاحتج العلماء على الحادث (١) وأرسلوا باحتجاجهم إلى السلطان ورئيس

(١) عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، ص ١١٨ .

الوزراء والنبي . لحرك ذلك الحادث العلماء للعمل الجدى .
وقد كان طبيعيا أن تتجه الثورة لإبقاء على الوحدة الوطنية ، إلى استخدام أسلوب الاعتقالات السياسية ، ترهب به أعداء الثورة والمتقسمين من البخونة ، لم يعلن من قبل أن كل من يتولى رئاسة الوزارة في ظل الحماية يعتبر طائعا لبلاده .
وليس في الخطابات السرية ولا في مذكرات سعد زغلول ما يدل على (١) أن سعد هو الموعز بهذه الخطة والاعتقالات لكننا لانجد مع هذا في تعليمات سعد السرية كلمة واحدة عن رأيه ، أنه لا يوافق على هذه الاغتيالات ونحن نميل إلى القول بأن سعد كان يرحب بهذه الاغتيالات ولا يحرص عليها .

ولم يميل الجهاز السرى يوسف وهبى رئيس الوزراء ، حتى اضطر فى النهاية للاستقالة وأرسل عبد الرحمن فهمى إلى سعد فى ٢٣ ديسمبر يخبره بأن : د ألقى طالب من طلبة الطب قبلتين يوم ١٥ ديسمبر الجارى على رئيس الوزراء ، ولكن أخطاه ، وضبط ذلك الشاب وهو يتخذ خطته (٢) .

ولم يميل الشعب اللجنة بل خرج محتجا فى مظاهرات عدة وانطلق الجهاز السرى يهدد الوزارات ، وأخذ الجهاز السرى ينظم حلقة من الأعمال لحصار هذه اللجنة ، ويحدثنا عبد الرحمن فهمى عن الأسلوب الذى اتبعه فى هذه المحاضرة فى مذكراته الكبيرة (٣) .

كان لابد للثورة أن تمضى فى ماركها حتى تحقق أهدافها القومية وكانت بريطانيا تتطلع إلى مخرج للوقف .

ولما كانت السياسة البريطانية إذ ذاك قد عثرت على عدلى على مائدة مسرح مفاوضات بنعد ملتر كأقدر رجل ترضى به ، فى استطاعته أن يمثل النواة التى تجمع حولها جميع المعتدلين بما يمكنها من بلوغ أهدافها . فقد كانت بهذا قد ضمنت وقوف هؤلاء بجانبه وضمته زعما للمعتدلين إذ ذاك فيما قام به من وساطة بين لجنة-

(١) د محمد أنيس ، دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ - س ٥١ .

(٢) د عبد الله رفاعة ، ثورة سنة ١٩١٩ س ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) للرجوع السابق .

حازر الوفد وما بذله من جهد أثناء مباحثات الهيئتين للتوفيق بينهما بما كان يرشحه لأن يكون الزعيم المصرى المنتظر .

وكانت بريطانيا تبني خطتها على فكرة إقناع الزعماء المصريين بقبول التسوية الملترية في جوهرها كما بنتها أيضا بجانب هذا على فكرة إبدال الحماية بنظام آخر قبله مصر .

وبدأت بريطانيا تمهد السبيل لدخول المرحلة التالية لفشل مفاوضات سعد ملتر لتحقيق أهدافها . فأعلنت الحكومة الإنجليزية السلطان في ٢٦ فبراير ١٩٢١ بقرارها الآتى نصه :

« إن حكومة جلالة الملك، بعد درس الاقتراحات التى اقترحها اللورد ملتر استنتجت أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى مصر فيها تجاه بريطانيا العظمى . ومع أن حكومة جلالة لم تتوصل بعد إلى قرارات نهائية باقتراحات اللورد ملتر فإنها ترغب الشروع فى تناول الآراء فى هذه الاقتراحات مع وفد يمينه عظمة السلطان فؤاد (١) .

وبدأ الحديث فى أوساط مصر السياسية (٢) عن تولى الوزارة المفاوضة وهل من الخير استئناء سعد للحضور ليشارك فى المشورة . أم ينتهى الأمر إلى حل المسألة فى ذلك بالتشاور ؟ وانتهى إلى عدم اشتراك الوفد فى الوزارة وكان الخلاف الذى بدأ بين أعضاء الوفد يجعل اشتراكهم فى المفاوضة أمراً غير ميسور .

ولما كان عدلى كرشدى يشعر بأن عليه واجبا يؤديه لينخلص مصر بما ورطها فيه، من الحماية قبل الوزارة، فأعلن قبل السلطان استقالة وزارة نسيم فى ١٦ مارس ١٩٢٠ حتى عهد فى اليوم ذاته إلى عدلى يكن بتأليف الوزارة الجديدة وضمن عدلى جوابه برنامج وزارته فأعلن أنها ستجعل نصب عينها فى المفاوضات الرسمية أن

(١) محمد شفيق غربال ، المفاوضات المصرية ، ص ٨٤ .

(٢) محمد حسين هبكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١١٥ .

تصل إلى اتفاق لا يحصل بجالا للشك في استقلال مصر. وأنها استدعو الوفد المصرى. للاشتراك فيها وأن الأمة سيكون لها على لسان ممثليها في جمعية وطنية القول لتصل في هذا الاتفاق ، إن هذه الجمعية ستكون أيضا جمعية تأسيسية تضع الدستور وستكون الانتخابات لها حرة بحيث تمثل رأى الأمة تمثيلا صحيحا . فوعد بالعمل على رفع الأحكام العسكرية وإلغاء الرقابة على الصحف وبالامتناع عن إحداث كل تغيير جوهرى قبل تنفيذ النظام النيابى (١) الجديد .

كانت الوزارة في ظاهرها محاولة لحل القضية المصرية ، ولكن على طريقة أعضاءها من المحافظين على الثورة والناقين على الوفد والأخذ بالانصاف الحلول .

الوحدة الوطنية من جديد :

وانتظمت مصر كلها في ركب سعد موكبا واحداً للحفاوة به ، وأحس الشعب في ذاته بقوة فانبعثت به إلى حيث يتلاقى أفواجه وتزخر أمواجه . وكان سعد هو بلا جدال حيران تلك القوة . كان استقباله في الإسكندرية يوما مشهودا ، فلما استقل القطار إلى القاهرة تلاصقت معه جموع الشعب على طول الطريق .

وفي القاهرة كان اللقاء عظيما ، حارا ، فأن لاح في سيارته حتى استقبلته القاهرة وكانت مصر في موكبه في احتفال كبير .

وعاد سعد ، واستهل جهوده في مصر شاكرآ الأمة على ثقها وحفاوتها^١ ثم قال :

بلاننا لم نعد إلا لتقوى عزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ونشد أزرنا باتحادهم .
وتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية الذى دعته الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التى وضعتها الأمة وعاهدناها على احترامها ، ومع النخلة التى رسمتها وتعهدنا بمتابعتها ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع

(١) عبد الرحمن الرامى ، ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٢٢٣

كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة وبماملة على تحقيق غايتها السياسية (١)،
ولقد أثبتت الحوادث ، أن الوزارة الجديدة كانت تود الاستعانة بالوفد
بغير المبادئ التي يراها كمثل للأمة .

ثبتت الثورة حفاظاً على مبادئها أمام اتجاه المتحرفين الذي بدى به الوزارة
هادفة وضع التسوية القومية في إطار التسوية الملترية ولكنها لم تكده تصمد
حتى أخذ ذلك الاتجاه يجذب إليه العناصر المنقسمة بين الوفد من المعتدلين فإذا
بها أمام ذلك الاتجاه في شكل تحالف رجعي يستهدف في باطنه تحوير الثورة إلى
حركة أعيان .

ووقف سعد صامداً بالاتجاه الثوري في مواجهة الرجعية مع قلة من أعضاء
الوفد ولكنه كان يستمدقوته من تأييد الأمة وثقتها الكبرى كقائد وزعيم ، وامتد
الموضوع من الوفد إلى صفوف الأمة ، فأخذت الحركة إلى القاعدة الشعبية تعبر
عن ذاتها بمختلف الوسائل ، بين مظاهرات في شوارع المدن وبين الصحف
والاجتماعات وبالخطب ومختلف الأحاديث . ونهضت الثورة في مواجهة الرجعية
عموماً ، كما مثلتها الوزارة لخروجها عن إرادة الأمة وتحديها . فحدثت ثمة مظاهرات
عدائية للحكومة في طنطا في ٢٩ أبريل عام ١٩٢١ ، تعرضت لها قوات الشرطة
ولما عجزت عن تفريقهم لكثرة عددهم ، أطلقت عليهم النيران فأصاب الكثير من
المتظاهرين حتى لقد بلغ عدد الجرحى ٤٠ جريحاً الأمر الذي زاد من حرج
الوزارة . ولصق بها تهمة حكم الشعب بالقوة وعبثاً حاول عدلى إراء ذمته منها
فقد تركت آثارها عميقة بين الشعب .

وسافر الوفد أول يونية سنة ١٩٢١ إلى لندن ، وبدأت المفاوضات بينه وبين
كرزون وزير خارجية بريطانيا وكانت مرهقة جداً .

وما أن علبت الجماهير بتأليف ذلك الوفد الرسمي دون اشتراك الوفد ، حتى زادت
المظاهرات عنفاً ، لمواجهة أي تصدع وذلك في القاهرة والاسكندرية وفي كثير من المدن ،
فواتخذت طابع العداء لكل من يخالف سعدا في رأيه ، وانتقل الاختلاف في الرأي

(١) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، ص ٢٥٨ .

إلى التحريض ضد الخصوم ، وازدادت المظاهرات عنفا في الاسكندرية وتحولت إلى اضطرابات بين المصريين والأجانب حتى تدخل الجيش والشرطة لقمعها، ولما انحرفت المظاهرات عن معناها نشر سعد نداء في ٢٤ مايو حث فيه الشعب على حسن معاملة الأجانب ونشر في اليوم التالي نداء آخر بوقف المظاهرات اتقاء لما يثيره أهل الفتنة فيها من الاعمال واكتفاء بما أظهرته الأمة ، وكان لحوادث الاسكندرية وقعها السيء بين انجلترا .

صممت الوزارة إذن على المفاوضة ولم تتردد في انجاز ذلك بدون اشتراك الوفد ، وسافر الوفد الرسمي إلى لندن لمفاوضة المسئولين فانصرفت جموعها في مضر بعد سفر ذلك الوفد الرسمي إلى الثقة بالوزارة ونزع الثقة من سعد وتكفل بهذا وزير الداخلية إذ ذاك عبد الخالق ثروت .

ولقد كانت الفكرة التي ألم بها المستر لويد جورج على حد تعبيره : (هي أنه وإن كان يثق بأن الاتفاق ممكن من جانب الطرفين إلا أنه لضمان الهياج الذي أحدثه بزغلول في مصر وبعث الرأي العام هنا على القلق والحذر ومن شأنه أن يجعل البرلمان الانجليزي لا يطمئن إلى مد نفوذ زعمائه إلى مثل ذلك الشغب والهياج وأن يجعله على الضمانات ، بحيث يصبح الاتفاق متعذراً ، وقد تساءل هل يحسن تأجيل المفاوضات إلى وقت يسود فيه الهدوء وتكون الأحوال أكثر ملاءمة وادعى للثقة والاطمئنان بما هي عليه الآن ، كما أنه لم يخف دهشته من ترك زغلول حراً في ايقاعه الفتن واحداث الاضطرابات .

وفي العاشر من نوفمبر ، سلم كرزون بعدلى مشروحا بريطانيا وراي الوفد الرسمي أنه لا يحقق الغاية التي سافر من أجلها للمفاوضة وأهم مواد المشروع :
و انتهاء الحماية والعلاقات الخارجية للإدارة القضائية بالسودان واستخدام الموظفين للإدارة المالية — والأحكام الخاصة بالمسئولية العسكرية ، .

الوحدة الوطنية في مواجهة التآمر :

ونجحت الوحدة الوطنية في مواجهة الاتجاه البريطاني الأخذ صورة الرجعية

بما أفسد عليه خطه وأهدافه .

وبالرغم من أن الوطنية المصرية كانت قد خرجت من معركة الرجعية متصدعة الوحدة . فقد ظلت مستمرة ، وكان لها أن تمضي ، بقوة الاندفاع الأول ، حتى تحقق كل أهدافها القومية .

وكان أمام بريطانيا إثر فشل المفاوضات خطتان : الأولى ترتيب حالة مؤقتة وفق قواعد مشروع كرزون ، والثانية وهي إخراج عدلي ، لتنفيذ الأحكام التي تضمن ذلك المشروع والاعتراف بهما للمصريين وتأجيل ما اختلف فيه الطرفان إلى أن يتم الاتفاق عليه .

وسواء أخذت بريطانيا بالأولى أو الثانية فقد كانت إذ ذاك ترى استحالة إنجاز ما تستهدفه ، والثورة بزعامة سعد تسيطر على مصر بما يفقدها معاونة ذوي النفوذ من المصريين لتنفيذ خطتها ، لذلك كان لابد لها من أجل أهدافها عزل سعد على رأس المتطرفين ، عن السياسة ، ثم ضمان معاونة ذوي النفوذ من المصريين على تحقيق غايتها .

وعاد عدلي إلى مصر بعد فشل المفاوضات وكان الجو بعد عودته وفشل هذه المفاوضات يفيء بأنه سيكون جوا سياسيا مكفرا مليئا بالتهديد والوعيد . ولقد عبرت بريطانيا عن طريق النبي عن ذلك في خطاب وجهته إلى السلطان قالت فيه عن اقتراحاتها :

د أنها تعتبر اقتراحاتها هذه سخية في جوهرها واسعة النطاق في نتائجها ، ثم خلصت من ذلك إلى الوقيعة بين السلطان والمتطرفين ، .

ولقد آمنت بريطانيا أنها لا تستطيع بلوغ غايتها عن طريق المعتدلين دون القضاء على الثورة في العناصر المتطرفة منها ، ويعني ذلك وأد الحركة الوطنية وقالت عن السياسة التي تبعتها في الحاضر بأنها لا يمكنها تنفيذ اقتراحاتها بدون رضا الأمة المصرية واشترائها ولكن حكومة بريطانيا تحافظ على الرغبة التي كانت لديها على الدوام .

(١) عباس محمود العقاد ، صدر زغلول ، ص ٢٧٥

وهي العمل على إتمام مواهب المصريين وزيادة عدد الموظفين منهم في كل نوع
سواء الفروع الإدارية والمالية التي كثر فيها عدد الموظفين الأوربيين .
ثم خلصت من ذلك إلى التهديد من جديد للمتطرفين فقالت :

« إذا كان الشعب المصري يستسلم إلى أمانيه الوطنية فهما كانت هذه الأمانى
صحيحة ومشروعة في ذاتها ودون أن يكثرث أكثر مما كافيا للحقائق التي تستحكم
في الحياة الدولية فإن تقدمه في سبيل تحقيق مثله الأسمى لا يصيبه التأسر حتى
لا يتعرض للخطر تعرضا تاما، إذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن
ما على الأمم من الواجبات ومعظم ما لها من الحقوق وأن الزعماء المتطرفين الذين
يدعون إلى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون حريتها بما كان لهم من الأثر في
مجرى الحوادث وما قد يهدد أمن بعض الدول الأجنبية خوفا على مصالحها بما أثاروا مخاوفها
وكذلك عملوا في الأسابيع الأخيرة على التأثير في سير المفاوضات بندايات
مبهمة استثاروا بها العامة، وأن حكومة جلالة الملك لا تعتبر أنها تخلم مصالح مصر
بتساهلها إزاء تصريح من هذا القبيل وإن يمكن لمصر أن تسير في سبيل الرقي إلا متى
أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل منع هذا التهييج ، لأن العالم يتألم
الآن من جهات عديدة من الاندفاع في نوع الوطنية المتعصبة ، وحكومة جلالة
الملك تقاوم هذا النوع بشكل شديد سواء في مصر أو في غيرها .
ولقد كانت النية تتجه للأخذ بالنقطة الثانية .

وكان الانبي يسيطر على فكره عاملان أحدهما اعتقاده أن نفوذ بلاده
يتوقف على سيادتها البحرية في البحر المتوسط وطالما احتفظت بهذه السيادة
فلاضير من أن تساهل مع مصر تساهلا مقولا كما كان يسيطر عليه عامل آخر
وهو ضرورة الوصول إلى مخرج من الأزمة التي أحدثها إخفاق الوفد الرسمي
البريطاني واستقالة عدلي (١) وكان هذا المخرج هو التهديد لتطبيق الخطة الثانية
بني سعد وضمان التعاون مع ذوى النفوذ من المصريين .

(١) محمد شفيق غربال ، المفاوضات المصرية الانجليزية ، ص ١٠٨ .

ومهما يكن الأمر فقد استعدت بريطانيا بهذا للتكامل بالمتطرفين تمهيدا للسيطرة
الرجعيين على الثورة في محاولة للوصول بهم إلى مخرج من الازمة التي حدثت من
إخفاق الوفد الرسمي في المفاوضات وكان على رأس المصريين المتطرفين سعد زغلول
ومع أن ذلك إذا كان سهلا لدى بريطانيا فقد كان متوقعا أن تكون آثاره صعبة
على مصالحها، ولما سمع الزعيم الكبير ذلك قال : «أهددوننا بنصب المشانق،
ليكن ، نحن مستعدون ، ولم يسعه إلا أن نشر نداء ناشد فيه الأمة على التمسك
بالاتحاد والعمل على نزع الشبهوات الدنيئة منها وكذلك الأحقاد، كما نادى بالتجرد
من الهوى فلا يطيب العيش للمصريين حتى يطلق الوطن السجين، ويتمتع باستقلاله
التام ، ولم يعتبر ثمة خصم للمصريين إلا الذين أرادوا احتلال مصر .

ونتم نداء بدعوة للتماسه بقوله : « انكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية في العالم
وقد خلقتم أن تعيشوا أحراراً أو تموتوا كراماً ، فلا تدعوا التاريخ يقول دوما
عنكم ، اقسموا ولم يبروا بالقسم ، فثقوا بقلوبكم كلها اطمئنان ونفوس
ملؤها استئثار بالاستقلال التام أو الموت الزوأم .

ونفض النبي بتنفيذ إجراءاته وأرسل النبي في ٢٢ ديسمبر بلسان مستشار
الداخلية إلى سعد تعليمات تحظر عليه على حسب الأحكام العرفية الخطابة في الناس
أو شهود اجتماع عام أو الكتابة في الصحافة أو القيام بأي عمل من الأعمال السياسية،
وعليه أن يغادر القاهرة ليقم في منزله في الريف تحت مراقبة المدير ، وما هي إلا
ساعات حتى عاد إليه الرد (١) عن طريق مستشار الداخلية جاء فيه : أنه تسلم
خطابه ثم قال :

« ... وهو أمر ظالم احتجاج عليه بكل قوتي ، إذ ليس هناك ما يبرره ، وبما
أني موكل من قبل الأمة للسعي لاستقلالها فليس بغيرها سلطة تخليني عن القيام
بهذا الواجب المقدس . لهذا سأبقى في مركزى مخلصاً لواجبي وللقوة . أن تفعل
ما تشاء إذا عقدت اجتماعات ... »

(١) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول من ٣٨٢

وانتشر الخبر في أحياء القاهرة فاجت بالحركة وعاهدت سعد على الثبات في الجهاد فكانت الجموع تتلاقى في غير اتفاق سابق متجهة إلى بيت الأمة وكان سعد إذ ذاك يتوقع نفيه للمرة الثانية ولكنه كان يؤكد لإيمانه بتغلب الحق على الباطل .
شاء النبي بهذا أن يوقع اليأس في قلوب المصريين . فلقد أرسل تقريره إلى كرزن بإبعاد سعد وشركائه قائلاً : بأن سيلان أوفق مكان لأنها معروفة في الأذهان باعتقال عرابي وذلك من شأنه أن يحدث بين الشعب تأميراً عظيماً ، وأرسل كرزون إلى النبي في ٢٣ ديسمبر رسالة يعلن فيها موافقته على إبعاد سعد وأنصاره إلى سيلان في أول فرصة كافتراً حمله في تلغرافه المؤرخ في ٢٣ ديسمبر .
ونفى سعد ولجأت السلطات العسكرية إلى عزل سائر المتطرفين عن الميدان السياسي .

تلك كانت بداية المؤامرة التي اضطلمت بها بريطانيا لتخلص البلاد من الثورة فتعلن الرجعية التعاون معها ، وتتمكن هي بالتالي من إيجاد حل يصحح مركزها في وادي النيل على أساس اعتراف المصريين .

على أنه إذا كانت بريطانيا قد شاءت بنفى سعد وعزل المتطرفين عن السياسة وانحداد الثورة ، فقد اسرفت في سوء فهم الموقف وتقديره .

فما أن علمت مصر بنفى سعد للمرة الثانية مع صحبه ، حتى تجددت ثورتها بشكل أثبت به فشل خطة النبي بما عرض المصالح البريطانية في مصر لمزيد من الخطر . عادت نزعة توحيد الصفوف من جديد ، وأخذت هذه العناصر تستعد لمنازلة الاحتلال والمنشقين عن وحدة العمل الثوري .

وكانت مواضع الخلاف بين المندوب السامي وحكومته تنحصر في أن الحكومة كانت على استعداد لأن تلغى الحماية بموافقة البرلمان وتعترف باستقلال مصر بشرط أن يقبل المصريون شروطاً تتعلق بضمان المصالح البريطانية، وكان النبي يرى في إلغاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ، وأن تعلن في الوقت نفسه احتفاظها بحرية العمل في بعض الشئون ، وفقاً لتقتضي مصالحها حتى قيام التسوية . . .

وعرضت بريطانيا عليه ذلك ، ورد النبي بأن تفوق دولته لا يتوقف
الحماية بل على قوتها البحرية والعسكرية المرابطة في مصر فإذا ما أبلغت برية
باحتفاظها بموقفها فلا خطراً ذن من الاعتراف لمصر بالاستقلال عندئذ يمكن .
للساسة المصريين التعاون مع المندوب السامى .

وما عاد النبي إلى مصر حتى أعلن التصريح المعروف بتصريح ٢٨ ف
١٩٢٢ ، وعلى أثر إعلانه تألفت وزارة عبد الخالق ثروت في أول مارس .
ولقد اعترفت بريطانيا بالتصريح بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع احتيا
بصورة مطلقة ، بمسائل أربع لمفاوضات مقبلة يبقى الحال في شأنها كما كان هو
وهي : الدفاع عن مصر وحماية الأجانب وحماية الأقليات والسودان .

ولقد جاء ذلك التصريح بعد اعتقال الزعماء ونفيهم ثمرة لتحالف الرجعية ،
رأسها ثروت مع الاحتلال ، خيانة كبرى لوحدة النضال الثورى ، واستـ
لسابق التأمر على الثورة بنفى زعيمها سعد زغلول انتقاماً من قدر العمل الثو
وبداية تحويلها إلى حركة الأعيان بل ومسا لحقوق الأمة فيما جاء
من مميزات سلبت بها بريطانيا .

على أنه بالرغم من هذا فقد دفع ذلك التصريح مع توافقه ، مركز
السياسى القومى بخطوات إلى الإمام، وكان من الممكن الاستفادة منه في المزيد
الجولات الناضجة لاستكمال ما كسبته الأمة ، وإذالم يكن قد واد بين أمة قدم
بالانقسام وقد جاء التصريح يسترضى المعتدلين والرجعيين ويشير الثوريين
فكان متوقفاً أن تشهد مصر في ظل مرحلة من الصراع السياسى المضطرب .

استثار التصريح العناصر الثورية والرجعية فانقسمت الأمة إلى معسكر
سعديين وعدليين وجذب عناصرهما إلى صراع في البداية حول المبدأ ، و
سعد فى المنق ، فاجامت الأنباء برأيه فى استنكار التصريح واعتباره نكبة وط
حتى بلغ الانقسام أشده ومالبت الصراع أن تحول فى النهاية إلى صراع حول نظ
الحكم الداخلى فى ظل الاستقلال ، ومن ثم كان التصريح بداية تحول النضال القومى
إلى نضال سياسى يتناول المسألة المصرية بالعلاج على أساس التجزئة .

وظلت ، الوحدة الوطنية رغم هذا ، متماسكة في جوهرها تلتف حول مصر والمصالح العليا ، وتترك آثارها على شتى مناحى النشاط في مصر بتجاريتها ودروسها على السواء .

ومن نبتة هذه الروح التي غرستها الثورة في النفوس قامت الدعوة المتابعة للبعث الاقتصادي الذي غرست أصوله قبل الثورة فما أن ظهرت دعوة طلعت حرب إلى تأسيس بنك مصر في أغسطس ١٩١٩ حتى ناصره الشباب تطلعا نحو الاستقلال الاقتصادي فنجحت الدعوة وتأسس البنك .

ومع هذه الروح التي بثتها الثورة ، مكنت الشعب بنتائجها السياسية من السيطرة على مقادير بلاده في ظل الحكم الدستوري ، وجدت روح الثقة والتجدد والتطلع بحالا للإنتاج وكشفت الثورة للشعب رؤية الطريق وهو ينهض في أعقاب الثورة مستغلا نواحي الضعف والقوة فيه كما عرف الخصوم والأصدقاء وعرف من تجربة الثورة ما كانت مصر في حاجة إليه لكسب الجولة الأخيرة من أجل التحرر الكامل والحاجة إلى الجيش القوي والنهضة الاقتصادية ، والقضاء على الاحتلال البريطاني .

وفي ظل الحكم الدستوري على ما كان به من عيوب تمكن الشعب من أن يقوى أدوات النضال القومي وهو الدستور كي يعض في الدفاع عن استقلال الأمة .

الوحدة في أعقاب الثورة

وقد ظلت القيادات السياسية الوطنية الواعية بعد ذلك تسمى هذه الوحدة ، المقدسة بكل قواها ضد كل المحاولات غير المسئولة من الداخل لتغيير شكل الدولة العثمانية أو من الخارج تطبيقا لمبدأ « فرق تسد » .

ف عندما أخذ الملك فؤاد يرنو إلى الخلافة الإسلامية يريد بها توطيد سلطته الإثنية الأتوقراطية في الداخل على حساب الحكم الدستوري ، وكان ينازعه فيها الحسين ملك الحجاز وفيصل ملك العراق ، فاجم سعد زغلول هذا الاتجاه وتبعه أنصاره والصحف الموالية له .

وكان الاتجاه أن تصطبغ حقيقة توليته العرش بالصبغة الدينية ، ولكن

مصطفى النحاس وقف في وجه البدعة التي ابتكرها ذهن الأمير محمد علي المعصب ، ورأى فيها داءا قاهما للدين فيما ليس من شئونه ؛ ولإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية ، وعبر عن رأيه في هذا التيار أمام النواب قائلا : الإسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده .

ونلس صدى غضب النحاس لتحركات الرجعية الأوتوقراطية المفرضة في الحقل الديني ، وعلى رأسها الملك فاروق والأمير محمد علي ، وفي المراسلات السرية بين السفير البريطاني المستر مايلز لامبسون ووزير الخارجية البريطاني المستر أتوني ايچ . ففي رسالة الأول إلى الأخير يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٣٧ كتب يقول أن النحاس باشا قال له أن الملك ديزاول أشد الأفعال خطورة في الحقل الديني ، وأنه يعمل كما لو كان أحد أئمة الدين ، وأنه (أي النحاس) قد اعتزم أن يقاوم أي ميل نحو اضطهاد الدين فان قانون البلاد قانون مصري . وفي الواقع الذي كانت تلعب فيه الرجعية بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ م . بأمل تغيير شكل الدولة القومية المملانية وإحياء فكرة الخلافة الإسلامية لتثبيت حكم الأوتوقراطية ، وكان السفير البريطاني يكلف أحد أعضاء السفارة البريطانية (وهو هاملتون) بدراسة شاملة لوضع الأقباط في مصر بعد معاهدة ١٩٣٦ ، لبحث امكانيات الاستفادة من أي الشقاق بين عنصرى الأمة في الظروف الجديدة التي كانت تمنع التدخل في شئون مصر الداخلية .

وقد بعث السير مايلز لامبسون بهذه الدراسة في تقرير هام يوم ٥ يولية ١٩٣٧ صدره بملاحظاته . وفي هذه الدراسة التي تحفل بالمتناقضات ، اعترف هاملتون بأن الدين الإسلامى ليس في حد ذاته عقيدة غير متسامحة ، وأن القرآن قد أمر بالتسامح ولكن (هاملتون) مع ذلك ادعى وجود شعور محسوس معاد الأقباط ، وفي مصر بعد الاستقلال كذلك فقد اعترف هاملتون بما يملكه إد مكرم عبيد ، من نفوذ في سياسة حكومة الوفد ، واعتبره د أكثر الناس نفوذا في السياسة المصرية ، ولكن من جانب آخر نسب إلى حكومة الوفد الميل إلى إصبغة الإدارة الحكومية د بلون إسلامى متزايد ، كذلك اعترف

و هاملتون ، بأن طبقة الفلاحين الأقباط والطبقة الثرية لن تتأثر بالميلول الإسلامية المزهومة لحكومة الوفد ، وأن نفوذ الأقباط و يتجاوز كل نسبة عددية لهم ، ولكن مع ذلك أخذ يبدى شماتته في الأقباط لما زعم من أنهم و سوف يفقدون عددا من الوظائف الحكومية خلال الأيام الأولى للاستقلال ، وأضاف : و لم يكونوا من بين أعلى الأصوات التي تطالب بالاستقلال ؟ وهل يمكن الآن التراجع والاعتراف بخطئهم في مساندة الحركة الوطنية ا .

ويعتبر حجر الزاوية في هذا التقرير ماورد في الفقرة الثامنة منه ، وحيث حاول و هاملتون ، عبثا تلس¹ نقطة الضعف في البناء الوطني والقومي المتناسك للأمة المصرية تنفذ منها السياسة البريطانية عند اللزوم ، بعد ان استطاع هذا البناء المتناسك أن يحرر مصر من كثير من القيود في ذلك الوقت ، فقد زعم أنه يوجد في الجوا ، دون شك ، شعور محسوس معاد الأقباط ، وهذا الشعور ليس خطيرا في الوقت الحاضر ، وقد لا يصبح كذلك اطلاقا ما لم يستغل إثارة اضطرابات معادية للأجانب ، و من هنا يمكن الربط بين هذه الفقرة التي أشرنا إليها والتي يبدى فيها هاملتون شماتته في الأقباط لدورهم المؤثر في الحركة الوطنية . ولكن أعداء مصر لا يتعلمون والتاريخ يعيد نفسه . فبالرغم من أن مصر لم تنعم بحكم ذاتي مستقر في تحقيق أمانها من فبراير سنة ١٩٢٤ - ١٩٥١ فقد كانت تنعم بوحدة وطنية متناسكة وكان الحكم قاعدة نشطت بطريق مباشر على تجديد المجتمع بعناصر جديدة طليعية و بطريق غير مباشر ، أداة غذت هذا المجتمع بعمان جديدة ومكنته بالتالي عن طريق النضال الثوري ومهدت الطريق لميلاد ثوري جديد على يد جيش مصر ، وبقدر ما كانت مظهراً لهذه الوحدة زادت الوحدة الوطنية به تأكيداً وتماسكاً .

الباب الثاني

أصالة الطابع الوطني

في الشخصية المصرية

نشأ الطابع الوطني للشخصية المصرية وتطور عبر التاريخ ثمرة للبيئة الطبيعية والاجتماعية على مراحل في وحدة من السمات مستمرة تنتهل من البيئتين قدرة على الاستمرار على نحو لا يتغير إلا بقدر تغير البيئة الاجتماعية تغيراً لا يمتد إلى الأعماق فهو طابع يكاد ينتمي بطريقة ما إلى طابع آخر دون أن يكون هناك فهو بتأثير البيئة الجغرافية يوجد في مصر ولكنه يمتد بسبب ما إلى تأثير البيئة الاجتماعية الاستعمارية عبر التاريخ وهو طابع مصري فرعونى بالجدول لكنه عربى أيضاً بالأب . ومعنى هذا أنه خليط بين أصداد يجمع بين سمات متعددة شذوية خصبة على نحو يولد فيه موازنة الوسط .

ولقد سلك الطابع القومى أماس لسانى واحدا قام جوهره عليه منذ أن نشأ، وإن اختلفت مراحل اختلافاً في الدرجة وبالتالي من حيث الإيجابية والسلبية لم يكن الفرد ولا الفردية محور بناء الجماعة المصرية كأنعكاس تأثير البيئتين الطبيعية والاجتماعية بخصائصهما الخاصة ومن ثم قامت الجماعة المصرية على أساس النزعة الجماعية، فلا غرو أن اتسم الطابع القومى بهذه السمة الإنسانية وبالرغم من ضعف الفردية منذ النشأة الأولى فقد كان الطابع القومى إيجابياً فن خلال معايير الجماعة ومنظمتها ومنذ أن توحد الكل في واحد كان الفرد يستعيد الثقة والشعور الذاتى والأمن والنظام على نحو قام على وعى لسانى يمنح ويعطى أكثر مما يأخذ، فكان ثمة الرضا والقناعة والكرم والاستغراق في الوعي الدينى والتوحد والطاعة والتوسط والإيزان وكلها سمات تتميز بالإنسانية، ولما انتقل الطابع القومى

إلى عهد التبعية (١) السياسية أخذ يفقد في صراعه معها جزءاً من مكونات إيجابيته فبدأ إيجابياً في سلبيته من هذه البيئة في عزلة ثم تتبع ذلك بصراع مع هذه التبعية في معركة خيرة متكافئة وفي ظل كفة العدوان أخذ يتسم بخصائص من السلبية لافتقد بها جزءاً من إيجابيته ، وكان من مظاهر ذلك سمة اللامبالاة وما تفرع منها التي ظلت واستمرت بما وجدته من غذاء في العهود التالية دون تغير إلا قليلاً .

وأخذ الطابع القومي في ظل المسيحية والإسلام يتحد بنمو الفردية ولا يتغير بتغير الجوهر وهو الجماعية التي كان يقوم عليها المجتمع . وقد بدت هذه النزعة في ظل الإسلام متوازنة تسم سماته بلون جديد من الإيجابية ولكن ما كاد الإسلام يمضي في ذلك حتى كان عهد الإقطاع الشرقي بما فرضه من ألوان التبعية . إذ ذلك وجدت السلبية في ظله زاداً جديداً يتجلى بشتى أساليب التسيير حتى إذا ما انتقل إلى العصر الحديث واجه تغيراً أعمق إذ أخذت الفردية تقتحم عليه مكانه ومعاقله لتغير من سماته ولكن برغم ما عتراه من تجدد لم يبلغ التغير جوهره لأن التجديد كان يتجلى من خلال روح هذا الطابع التي نهلت أولاً من ينابيع البيئة المصرية وإن تمكن في العصر الحديث من المزيد من الإيجابية على أسس حديثة .

وقد أتم الطابع القومي للشخصية المصرية بالوحدة والاستمرار عبر التاريخ بالإيجابية والسلبية على السواء ، ولكنه إذ يبدو اليوم في غير توازن بين الناحيتين فقد بدأ التسكافؤ يتجلى بينهما ويزداد مع الأيام طابعاً قومياً غريباً إسلامياً قاعدته من روح البيئة المصرية وسطحه مزيج من بناء عربي إسلامي حديث في صدق تاريخي ويعطيها زاداً على الطريق الطويل من ناحيتها وقدرة على الاستمرار بما وطنت عليه من صلابة وإصرار وحكمة . فالشعب الذي استطاع أن يصمد محتفظاً بهذه الوحدة رغم الكوارث والغزوات الأجنبية له قوة سرية قادرة على الاستمرار في الحاضر في مواجهة العصر الحديث على أن الأمر في حقيقته لم يقف عند ذلك بل جاوز حد الاعتدال .

(١) د . عبد العزيز رفاع ، الطابع القومي للشخصية المصرية ص ٨٣٠

الفضل الأول

الوحدة الوطنية

إحدى سمات الشخصية المصرية

تجلت الوحدة الوطنية عبر التاريخ سمة أساسية من سمات الطابع المصرى قوامها قناعة ورضا وتقدير وإعجاب وحب وطاعة وقد نبعت أصولها من الماضى العريق كسائر سمات الطابع المصرى من البيئة الطبيعية ولكن غلبت عليها أحيانا السمة الحضارية للأسرة كانت الأسرة فى الماضى ثمرة بيئة صالحة لاستنبات معايير إجتماعية مصدرها الحضارة فقد أغنى الحكيم بتاح حنب الأدب المصرى القديم بالنصائح فى آداب الأسرة حائما على رعاية الأم والزوجة بما يشع الرحمة والحب فى البيت ولقد أصل قدم مصر الزراعية بالحضارة حب الأسرة حتى غدا ذلك سمة يعرف بها كل مصرى تقريبا .

ومن خلال الأسرة تكون نظرة المصرى معبرة عن معاييرها مؤثرة بها فى السلوك الاجتماعى وهى فى نظر المصرى جوهر العلاقات كلها وقد يتمرد المرء على كل شئ ولكن يقف تمرده عند حدود العلاقات البيئية وتتجلى تلك النزعة بين جميع أفراد الشعب تقريبا حتى الصوص والمعوزين والشيوخ لتأخدم هذه العاطفة العميقة الجذور .

وتبدو الأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ وهى قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته وفى الأدب المصرى القديم تعرف وصايا الأسرة كما تجلت فى وصايا د بتاح حنب ، التى كتبت قبل أكثر من ٤٦ قرنا وقد جاء فيها ، إذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قريفتك الحب الجميل وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها وأدخل السروو على قلبها طول حياتها ، ولا تنسى الوصية توقير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك وفى نسخة من وصية محفوظة فى

مخطوطات الأسرة ، يقول الحكيم : واتخذ لك زوجة في شبابهك تنجب لك ولدا
زويده وأنت في صباك وتعيش حتى تراه في عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذي
له أسرة كبيرة إن الناس يوقرونه من أجل بيته ، وفي هذه الوصايا يقول الحكيم
وضاعف لأمك خيرها واحملها كما حملتك . لقد أثقلتها وظلت تحملك بعد ميلادك
وظل ثديها ثلاث سنوات في فمك فلم تأنفس من تنظيفك ولم تقل قط ماذا أصنع
بهذا وأرسلتك إلى المدرسة تعلم الكتابة ووفرت لك الخبز والشراب كل يوم.
تنتظرك . واذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف رببتك.
وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة عسى ألا يصيبك الضرر ولا ترفع يديها إلى الله
بالنساء عليك ولا يستمع الله منها إلى شكاية .

وبمثل هذه الوصايا التي كانت من معايير المجتمع الفرعوني القديم قويت الأسرة
ولم تتغير بهذه الوصايا فقد زادها الإسلام دعماً والعصر الحديث فهدماً ومن حسب
الأسرة نستطيع أن نفهم كيف يكون المصري محافظاً شديد المحافظة تاراً
متأهباً للتمرد فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على ثرائها من أجل المحافظة على
التراث مستعد للثورة لصيانة الماديات والتقاليد وقد يعجب المرء كيف يشور شعب
وديح . إن الذي يشور هو الوديح المحافظ المغرق في المحافظة .

إن المصري ينسى كل شيء إلا وشائج الرحم والأسرة ومن الأخلاق التي
تلازم حسب الأسرة غيرة الزوجة وصيانة المرض واستهجان التعريط فيه . فالمصري
يروض نفسه على العنك ولا يروض نفسه على ابتذال البيت وثمة فرق
بين المصري في هذا وبين البدوي كلاهما يأنى أن يبتذل عرضه ويشور على من
ينتهك حرمة ولكن الأول يأنى ذلك كما تأنى أن يبداس على مصادر عيشه وموارد
مياهه وهو يغضب للزوجة وكأنه يغضب في الحرب فالاعتداء على الزوجة عنده
هو بمثابة هزيمة في حرب أما المصري فيغار على الزوجة إبداعاً كما يداع الحضارة
اعتزازاً بصداقة وأزحاماً أمينة وضناً بعلاقات ألفها وهو إذ يغضب إنما يغضب
لقراءة تقطع أو محراب يهان وثمة فرق إذن بين غيرة منشؤها أدب الأسرة
وغيرة منشؤها سلوكي وطبقي وهو القتال .

إن المصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وهو أقوى ما يربطه بالمجتمع والامة فلم تمكن الحكومة لديه عموماً تمتزج بنفسه امتزاج الالفة وكان اعراضه هنا أمرا زاد اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الإنسانية في علاقاته البيئية في جميع العصور لأنها كانت مهرباً أميناً من القوة والمظالم وغاية ما يخامر به من أمر الحكومة أنها أمر يدارى . علاقته بالحكومة مهادنة محتملة وليست علاقة ود إلا نادراً ثم كان محافظاً ومتحفزاً للتغيير في وقت واحد وغاية ما يظفر منه الإصلاح بالترحيب أن يتمزج ذلك بنظام البيت والأسرة ويتسرب إلى حياته من خلال عواطف الأرحام فلم يكن اشتغال المصريين بالسياسة يتعدى جانب التحرى والمصرى . إذ ينقاد للسياسة ينقاد لأن الطاعة في ذلك أشبه بنظام الأسرة .

ومن خلال الأسرة، تكون علاقة الإنسان بالآخرين في المعاملات وشقى التقاليد ففي مراسم الزواج يحتل العزف مكان الصدارة إذ يقضى بتفضيل الزواج من الداخل على الزواج الخارجى فالبناء العم الأولية على أبناء الخال وفي ظل ذلك كله تتجلى آثار الأقوال التى تنظم السلوك فثمة من يقول « احترم أبوك ولو كان جعلوك واحترم كبيرك يحترمك صغيرك ، ويتعدى حب الأسرة حتى النظر من خلال معايرها إلى الجيران ، فالأمثال توصى بالجار خيراً فبتها « أحسن لجارك ولو أساء .. اختار الجار قبل الدار ، في هذا المجتمع يسود التعاون والترابط الروحى وتذيع فيه أقوال بالتعاون مثل « اللى ياكل لوحده يزور ، ولید على إید تمكتر وتزید » .

ومن خلال العلاقات الأسرية وقيمتها يكون اندماج الفلاح بأرضه حيث تستقر العائلة وتمنح عليه البيئة بخيرها فهو يرتبط بها بوشائج عميقة .
ومن خلال حب الأسرة ، كانت عنايته بالموتى والعالم الآخر عنايته بالندرية حتى لا تصيب في ظنه تماماً . وقد كان من ذلك اهتمام المصرى بتحنيط الجثة قديماً لتكون مصدر الحياة بعد الموت ولا تعدو التقاليد والعادات الجنائزية اليوم جزءاً من حب أسلاف الأسرة ومن الوفاء للأسرة يفسر البكاء الشديداً والنحيب على المفقودين وعلى الغرباء والمسافرين وهو جزء من البكائيات الجنائزية وإذا يبدو

هذا الارتباط بالأرض والقرية مرتبطاً بسكان الأسرة فإنه متصل أيضاً بذلك. عن طريق آخر وهو ارتباط الفلاح بماضيها فهو يوفر ماقاله السابقون، ويوفر كذلك حكمة الشيوخ لمستوى فعاليتها لفعالية حكمة الآباء ، فالرعاية تجمع بين الطرفين وما دام المصري محافظاً من خلال الأسرة ومجتمع القرية وما دام ميراثه من الماضي ومن مسلماته وما دامت البيئة توفر له الاستقرار لذلك فهو يتحرز عن كل جديد. وتكشف الأمثال ذلك ومنها مايقول «اللى مالوش قديم مالوش جديد، واللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش» ويتمثل ذلك بين جميع المصريين طابعاً قومياً ولكنه يتجلى واضحاً عميقاً بين الفلاحين والعامل. ويبدو خفياً بين الصفوة من سكان المدن التي انسحبت عليها الحضارة الحديثة ولكن دون أن يفقد أساساً. فتح امتداد الحضارة الغربية نشأت الفردية شعوراً ذاتياً يتجلى في البداية من خلال الولاء للأسرة ويتهياً لأن يتعدى حدودها إلى الولاء للأسرة الكبرى الأمة. وغدا المرء ينظر المجتمع من خلال ذاته ومن ثم أخذت بعض العادات تتفكك وتتلاشى بوصفها غير ذات موضوع وأخذت النظرة للمجتمع تقسم بالهلمانية بعد أن كانت من قبل وجدانية فخرت الأسرة من الغلو في المشاعر والعلاقات الاجتماعية. فهي تعبر عن عواطفها في حدودها ولا يمثل ذلك إلا من الصفوة فقد غدا المجتمع بهذا وذلك ينظر إلى الأمور بمعايير أحدهما تقليدي والآخر تجديدي حديث ولكن دون انفصال لأن الحديث يقوم في أصوله على القديم وبيننا نجد السرية بين الريف نجد الازدواجية في فرد المدينة على نحو لا يمثل انفصاماً مرضياً في الشخصية .

لقد عاشت الأسرة المصرية ولا تزال متماسكة فلا غرو أن تكون الوحدة الوطنية قوية وهي نبعها الكبير .

الفصل الثاني

الطابع الوطني المصرى

بين طوابع الشعوب

يتميز الطابع الوطنى للشخصية المصرية بسماها تميزه عن غيره من شعوب المجتمع الدولى ولكنه من حيث الجزء قد يشترك مع هذه الشعوب أو تلك ببعض السمات ، وقد يختلف معها من حيث الدرجة فهو فى الغرب ولكنه ليس غربياً وهو فى الشرق ولكنه ليس شرقياً . ولكنه ككل طابع قومى متميز يتجلى ذلك إذا نظرنا إلى الشعوب المجاورة نظرة مقارنة فباختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية بين مصر والصحارى المجاورة كان ثمة اختلاف بين سكانها على نحو يتسم بطابع خاص فى نوع المعيشة والأخلاق . ويقوم الفرق بين مصر وجيرانها عموماً فى هذا المجال بمقدار الفرق بين الفردية بين الجانبين فالنزعة الفردية لدى أهل البادية واضحة لاتعلوها مساحة اجتماعية إلا فى إطار القبيلة ولكنها لدى المصرى فردية اجتماعية إنسانية قبل كل شىء فليس لدى البدوى ما لدى المصرى من سمات الرضا والقناعة . والفرق بين الاثنين ليس فرقاً بين بيئة الجنوب وبيئة الغرب . ولكنه فرق يرتكز على درجة الفردية ، فالفردية بين البدوى واضحة تؤثر فى جميع مستويات السلوك الاجتماعى بحيث الاستقرار فى نظم الحكم والحياة بين المصريين لا نرى البدو إلا متنافسين حول الرياسة وقل أن يسلم الواحد منهم الأمر لغيره . ولو كان أباه أو أخاه أو أكبر عشيرته ، تتعدد بينهم الحكام والأمراء وتختلف بينهم الأيدي على الرعية . وبينما ينطبع المصرى على الطاعة نجد البدوى من أصعب الأمم قيادة ، فالحياة السياسية بين المصريين مستقرة طوال عهدها بالسياسة والحكم على نحو يفوق غيرها فى الشرق والغرب . إن المصرى يشور لكرامته ولكن فى غير تعصب بينما يفضب البدوى لأقل شىء ويسرع إلى الحرب ويميل الطرفان

الحرية ، ولكنها فردية عند البدو واجتماعية لدى المصري . وينزع الطرفان نحو المساواة ولكن الاول يمارسها في حدود القبيلة ويمارسها الثاني من خلال المعايير الانسانية والبدو شجعان كالمصريين وكلا الطرفين يقوم بالمدافعة عن نفسه ولا يكلها إلى سواه ولكن ثمة فرق بين شجاعة الاثنين شجاعة شعب مصرى مستقر في بيئته لم يكن في حاجة للعدوان إلا بقدر الدفاع ولكنها قبل كل شيء شجاعة الكريم الذى يندفع في سلوكه من خلال المبدأ لنصرة الخير فيضحي من أجل ذلك بالكثير . ويشترك الاثنان في العطاء والكرم ولكنها يختلفان في ذلك من حيث الطبيعة والدافع .

لقد كان البؤس هو الذى جعل الكرم وإطعام الفقير في البادية وإيقاد النار ليتهدي بها الضيف في مقدمة الفضائل، الفقر هو الذى حجب إليهم الإغارة على ما شاءوا وقد جعلتهم الحياة في حاجة إلى أمن ومن ثم كانت الحاجة إلى الشجاعة والوفاء من كبريات الفضائل عملاً وظيفياً . فالكرم في مصر كرم في النفس والبيئة وهما أولاً مصدر العطاء الوفير يمارسه المصريون من حيث المبدأ .

ويختلف الاثنان أيضاً في النظرة إلى الإحسان فالإحسان يأخذ من المصري مبلغاً كبيراً ولكن بينما يثير الإحسان في البدوى الحقد على مصدر الإحسان والشعور بالخضوع والكراهية نجده لدى المصري يواجه بالامتنان والشكر وبين البدوى والمصري حب الأسرة ولكنها يختلفان من حيث الدرجة في الطبيعة وفي النزعة الاجتماعية ، فبينما نجد طاعة البدوى الأسرة طاعة قد تعلو عليها سلطة الفرد نجدها لدى المصري طاعة مطلقة ومصدر استقرار وتماسك فالبدوى يدافع عن شرف الأسرة كمن يخوض في معركة يستهدف منها النصر . والمصري عندما يدافع عن شرف الأسرة يعكس مدى إيمانه بالمبادئ وليس البدوى كالمصري محباً للفسحة لاختلاف البيئة الطبيعية وموسيقاها ورقتها في النفوس ، بينما تبدو موسيقى الصحراء في وحدة متكررة عابثة رهيبه فلا عجب أن ترى أهل الصحراء وقد استولى عليهم انقباض النفس أو الكتابة أو الوجد . والفسحة لدى المصري دلالة ذكاه أما البدوى فيستتبع مزاجه العصبي أنه يظهر ذكاه

في تعبيراته ولكن ثمة فرق بين الذكاءين فذكاء المصري خلاق أما البدوي فلسافه
أمهر من عقله .

والبدوي عكس المصري من حيث الخيال فخيال الاول محدود قلباً يرسم له
ولكن المصري يمتاز بخصب الخيال وقد كان ذلك سبباً لمعرفة المثل العليا ويتجلى
خياله في شتى الفنون .

ومن الشعوب المجاورة أيضاً شعوب البحر المتوسط وهنا نجد أيضاً في الطابع
القومي المصري تميزاً واضحاً ففيها من هذا الطابع الكثير كما في هذا الطابع منها
الكثير ولكنه يظل طابعاً مصرياً محيراً كمثل . والاختلاف بين الطرفين هو بقدر
اختلاف البيئتين لاسيما البيئة الطبيعية فناخ مصر يدعو للسكينة والهدوء بينما يدعو
في البحر الأبيض المتوسط إلى الإثارة ، فثمة بين سكان فرنسا رياح عانية تلعب
دورها في حياتهم وتؤثر على السلوك الفردي ورياح شمالية تثير الأعصاب . ولكن
لا يتصف مناخ مصر بذلك ، ومن البيئة الجغرافية تكونت روح الشعوب حيث
تكونت الروح المصرية وتكونت الروح اللاتينية من جغرافية البحر المتوسط
وباختلاف الفئتين اختلفتا في محور الطابع القومي وهو الفردية فبينما مصر لا تميل عامة
إلى الفردية تميل إلى ذلك بيئة البحر المتوسط بيئة الأراضي المقسمة والسهول المنعزلة
عن بعضها البعض والمحاطة بالجبال والسواحل الممتشابهة ، جغرافية الجفاف والفيضانات
الغزيرة وثمة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اللاتينية فرق تام على أساس
الفرق بين درجة الفردية بين الاثنين وبينما تعتبر سيكولوجية الشعوب اللاتينية
سيكولوجية الشباب الذي بلغ سن الرشد نجد هنا في مصر سيكولوجية شعب ظهر ونضج
مبكراً لا يعد في سلوكه ارجلا في سن الوقار وتختلف السمحات بين الطابع القومي
المصري وطوابع هذه الشعوب اللاتينية من حيث الدرجة فالقناعة والرضا في
سمات الطابع المصري موجودة واسكنها أمر نسبي بين طوابع الشعوب المحيطة وكان
من آثار ذلك الكثير ، اتسام هذه الشعوب بالشك وتميز المصريين بالتناؤل
في استطاعة اللاتين التفريق بين المبادئ وطرق تطبيقها بما يباعد بينهم وبين النفاق
والمداهنة والرياء وعدم المبالاة . ويدين المصريون للحضارة المصرية والإسلامية

بمعايير الاخلاق والتكوين الإجتماعى الذى يقوم على الأسرة كما يدين اللاتين لروما :
بطابعهم الخاص فى ذلك التكوين الإجتماعى الذى يقوم على الأسرة والقبيلة وكذلك :
يدينون لها بمفهوم القانون .

ومفهوم القانون عند الطابع المصرى غيره بين شعوب اللاتين . فالأول يقوم على
الثقة التى تعتبر أيضا جوهر القانون الانجليزى ، بينما يقوم ذلك بين الشعوب اللاتينية
على التحرر والواقعية وهو بهذا قانون مكتوب وعند اللاتين تعتبر سلطة الدولة
خارجة عن سلطة الفرد وأعلى من السلطة وكأنها سلطة عظيمة الخطر وواجب
الفرد حماية نفسه من هذه السلطة فالدول بهذا لا تبدو أمام الفرد رحيمة ومن هنا
كان سر العاطفة الحماسية التى تتسلح بها الشعوب اللاتينية فى معاركهم السياسية ، بينما
تعتبر الدولة لدى الأنجلو ساكسون تعبيراً عن الجماعة وأداة المواطنين ، ولا جدال
فى اختلاف الطابع الوطنى المصرى فى ذلك حول مفهوم الدولة فرغم امتداد
الحضارة الغربية إيانا لا يزال ذلك الخلف المنحدر من القديم ممثلاً فى هجمات ذلك
الطابع القومى فالفرد ينظر إلى الدولة من خلال نظرتة للأسرة ويجد من المعايير
القديمة ما يعمل على إدماج الكل فى واحد إذا ما كانت الدولة إمتداداً لهذا الكل ،
عندئذ لا يحاسبها وقد يختلف معها فلا يملك من موقف غير العزلة منسحباً إلى
داخل ذاته فهو لا يهتم صلاحها بقدر ما يهتم صلاح الأسرة ولكنه يحاربها إذا
ما امتدت بالمساس بمقدسات هذه الأسرة لأنها عندئذ تكون ، قد خرجت على
معاييرها . والشعب اللاتينى أقدر من المصرى فى القدرة على التحليل لأن المصرى يميل
إلى البساطة والوضوح ولا يميل فى تفكيره إلى الالتواء ، فنظرتة إلى الأمور بهذا
تبعدة عن الفلسفة وهو بهذا أبعد عن التعميم أما فيما يتعلق بالمصالح المادية بالمصرى
لا يميل بذلك الوضوح إلى الانتهازية الرخيصة كما يميل إليها اللاتينى ، ومن هنا
الفرق الأساسى بين الشخصين يتميز الطابع المصرى متمسكاً بالكرم والعطاء أكثر
من الأخذ على نحو لا يعرفه اللاتينى قدرأ لا نوعاً وعلى ذلك تجد الفرد فى مصر
فى إطار الفردية الاجتماعية يتشم بالتواضع بينما يتشم اللاتينى من خلال نظرتة
الفردية بالسكبرياء والزهو قد يضحى فى سبيل نجاحه الشخصى غير متورع بنجاح

الجماعة أما في طريقة الحاجة فيؤمن بالشك ويملك الإحساس بالواقعية وهي سمات يأخذ منها المصري بتدر وامتداد واحتمالها ليست من سماته، وثمة سمات مشتركة بين الشعبين بين عنصرى الفلاح والسكّان الفرنسى، فكلاهما يرتبط بشده بأسرته وأرضه وبكل ما يشده إلى بيته . وكل ذلك يتجلى (١) في فرنسا في الحياة الخاصة ويتجلى في مصر على أوسع الحدود وكل من الشعبين يحب الأسرة كسائر الشعوب، ولكن حب مصر الأسرة فياض بالإنسانية، فنجد الفرنسى كرب عائلة وعوضاً في هذه الأسرة يحرص على المصلحة المادية في عاطفة مشبوبة تجاه الملكية الفردية، ويتسم بروح الادخار التي قد تتحول إلى ضيق في الأفق وهو أمر يناقض اتجاهها واضحاً نحو الجماعة المثالية، وهو إذا ما اطمأن على مصالحه يسمو إلى التحرر الفكرى، أما المصرى فسمح في العطاء ولا يحرص كثيراً على المال، والفرنسى بفرديته يفكر بنفسه ولا ينحنى أمام سلطة، إذن فهو ليس من أولئك الذين يؤمنون بالدكتاتورية، ولكن المصرى لو اتبع أمراً أقامه بنفسه لإساق إليه بطبيعته الطيبة لانخفاض مستوى الفردية عند الشعوب اللاتينية، فلا عجب إذن أن يتسم الحكم في مصر بالاستقرار والدوام والبعد عن الاضطراب، وبينما يميل الشعب المصرى إلى مخاطبة الوجدان والعقل، يتميز الفرنسى بمخاطبة العقل والمنطق. فثمة فرق بين شعب يقدم العقل على العاطفة وآخر يفعل العكس، وبينما يتطلب العرف في مصر أن يكون الفرد طيباً أولاً يجرى العرف في فرنسا على أن يتكون عاقلاً أولاً .

لقد خضعت فرنسا للدين كما خضعت مصر ولكن كان ثمة فرق في النزعتين انعكاس للفرق بين طبيعة الشخصيتين، كان خضوع مصر ولا يزال استغراقاً في الوعى الدينى ولكن فرنسا قاومت الدين عن طريق مذهب الشك وهو إذا كان متشككاً في الدين فإنه يتصرف في حياته ويعيش في إطار الفكر الرومانى بينما يمكن المصرى متزماً متشككاً، إنه يعيش في الحاضر من خلال قيم القديم، وكما يختلف الطابع القومى بين مصر والشعوب اللاتينية، عامة كما تجلى على سبيل المثال في فرنسا يختلف أيضاً مع الطابع البريطانى والألمانى وغيره، فالشعب البريطانى

(١) ستيفريد سيكولوجيا بعض الشعوب ص ٤٧ مترجمة

وهو جماع من السكت والسكسون يقوم بناؤه على تكوين تاريخي لهذه الشعوب ، وهي بيئة الطبيعة فبينما يمثل طابع مصر طابعاً عريقاً يتمثل طابع بريطانيا بالحدائثة في الوجود ، ويختلف المصري عن الإنجليزي كلية فقد طبعه المناخ البحري على سمات خاصة والإنجليزي لا يتواضع في أن يصور نفسه بالغباء ولكنه ذا طبيعة خاصة فهو ينفر من الذكاء القائم على المنطق كذكاء الفرنسي ، ويرى أن المشا كل لا تحل بطريقه هندسية ، وهو عكس التفكير المصري فالإنجليزي وهو من بيئة بحرية يتصرف في حياته تصرف ربان السفينة بتطور في جو من عدم الاستقرار ويؤمن بالتطور في غير عنف ، والمصري فردي اجتماعي خلقياً والإنجليزي فردي ذاتي ، وثمة فرق بين الازعتين ، والمصري مطيع عن طابعه وطبيعة الإنجليزي مطيع برغبة ، والمصري يميل إلى النظام في إطار الولاء نحو النظام أما الإنجليزي فولائه للنظام في حرية ، والفردي في مصر إجتماعية وهي مغايرة لوجود الفردي بين الإنجليز والفرنسيين .

ويختلف الطابع المصري أيضاً عن الطابع الألماني تميزاً إن لم تعرف العنصرية ولا التعصب الديني ولا رفضت الاختلاط الصحي بالغير . كان التسامح الديني أسلوبها ولا يزال والتعصب الديني والحروب الدموية الداخلية لم تعرفها . كما عرفتها أوروبا وكان التشيع والإضطهاد يأتيها من الخارج كما حدث في فترة الإضطهاد الديني في المسيحية الأولى وكما حدث في عهد الفاطميين عندما أدخل هؤلاء الشيعة .

ويبرز التوازن والاتزان عن طريق الاستعانة والتعايش بين القديم والجديد ، وأصبح من الممكن أن ترى كيف يعيش الماضي في حاضر مصر ، إن الطريق المصري هو التوسط تقبل التجديدات دون نبذ القديم والتمسك بالاثنين جنباً إلى جنب والتوسط والاتزان سمات عامة في كل جوانب الوجود المصري ، وقد تجلت هذه السمة على التوازن بين سائر السمات فزعة القديم بل عن حذر وتقدير ، والبساطة ليست في غلواء والطاعة ليست خضوعاً وسلباً ، واللامبالاة ليست مطلقة والفكاهة ليست هذراً ، وانك لتجد هذه الملامكة في مجرى التاريخ واضحة . فلم تجد في الثورات غلوا وكانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أروع مثال على ذلك التوازن فهي تركيب بين القرار والتقيض وسط يجمع بين التقيضين لاهي بالميذية ولاهي باليسارية بل تأليفاً بين تقيضين في تطور جديد لخدمة مصر والعروبة .

الباب الثالث

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

والوحدة الوطنية

انطلقت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ امتدادا لمد قومي ضارب بجذوره في أعماق التاريخ .

وما انطلقت . . . حتى لقيت تأييدا شعبيا نهم عن تماسك شعبي كبير ووحدة وطنية صادقة .

وبفضل تماسك هذه الوحدة الوطنية نجحت الثورة في تحقيق أهدافها ، وقد سارت تحقيقا لإنجازاتها الثورية في المجالات المختلفة .

وحفاظا على هذه الوحدة الوطنية . قامت الثورة في ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ بإلغاء الأحزاب السياسية باعتبارها أوكارا للفساد السياسي والتلاعب بحقوق الوطن ، ثم قامت بإلشاء هيئة التحرير في ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣ لمواجهة الاحتلال المتربص وتسكتلات القوى المضادة للثورة ، وخاصة بعد حل الأحزاب السياسية ومتطلبات الهدف المشترك الأساسي والعاجل وهو تحرير الأرض وتمكين كل العناصر الوطنية من وجودها داخل إطار واحد ، ثم ظهر الاتحاد القومي في ٢٨/٥/١٩٥٧ كضرورة لمرحلة تدعيم الاستقلال الوطني في أعقاب العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ ، وبعد تمصير الشركات والمؤسسات الرأسمالية الفرنسية والبريطانية أي جاء في المرحلة التي كانت المهمة الأساسية فيها هي التنمية الاقتصادية وبناء اقتصاد قومي قوي والبدء في الانتقال بالمجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم ، ثم تبلورت هذه التجارب في عام ١٩٦٢ في تجربة أخيرة هي الاتحاد الاشتراكي العربي باعتباره الممثل لتحالف قوى الشعب العاملة ، وقائد العمل الوطني ، والتجسيد الحلي للوحدة الوطنية المقدسة .

الفصل الأول

إنطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

نهاية مسد قومي

من أصول كانت تتهياً وتختمر مع الايام في أعماق المجتمع العربي في مصر الحديثة ، وتعبّر عن ذاتها في سلسلة من الانبثاقات القومية ، انطلقت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ مرحلة عليا كذروة لنضالنا القومي ، نضالا مصرياً ثورياً عربياً في أسلوب جديد ومنهج جديد وأبعاد لمرحلة جديدة في بجرى القومية العربية .

وكان النضال القومي من قبل نضالاً بضرورة التماسك والوعي السياسي القومي ، لا تكاد تنبثق حتى تنال منه قوى معادية كانت انعكاساً لتركيب المجتمع القائم وقوى الاستعمار .

بدأ ذلك إشراقاً قومياً في مصر الحديثة في بداية القرن التاسع عشر ، وما لبث أن منى بالنكسة ، ثم تجلّى في ثورة عرابي التي كانت ذروة ذلك المد القومي في علاج النكسة . ونظراً لحاجة ذلك النضال إلى مزيد من الوعي القومي السياسي بالذات جاءت النكسة باحتلال مصر ، ولكن ما لبث الروح القومية أن غاد في نهاية هذا القرن وطلّية القرن العشرين ، يكافح الاحتلال حتى تجلّى على يد المثقفين بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم انتهى بامتداد تجديد المجتمع المصري بثورة عام ١٩١٩ الشعبية ، ثورة مثلت مرحلة أعلى في بجرى نضالنا القومي ، وهي وإن لم تحقق أهداف ذلك النضال كلها إلا أنها نقلته إلى مشارف ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . وكان طبيعياً أن يستمر الاتجاه القومي في نموه قدماً وهو ينبعث من أعماق المجتمع العريق إلى غايته حتى يحققها ، فلما تعالفت في نهاية الشوط قوى الاتجاه المعادي له وبلغ ذلك التحدي ذروته كانت حتمية التاريخ في بجرى المد القومي أن يكون في مراحلها العليا ، كاستجابة لهذا التحدي ، ثورة يكون مركز الثقل فيها

طليعة فائرة من الجيش وبأسلوبه بعد أن توافرت لديه حوافر الثورة لمعالجة الموقف كله علاجاً جذرياً .

وإذ تمثل ثورة ٢٣ يوليو نهاية مد القومي فقد مثلت قيادتها ومنهجها وأسلوبها بداية حقبة لنضال ثوري يفرضه الوجود العربي ومن مستلزمات بعثه ، ولقد نشأت عناصرها من صميم المجتمع العربي المعاصر في مصر لنشأة ثورية من وحدة بناء الجيل الصاعد الذي لشأحراً فيما بين الحربين يحدد من الطبقة المتوسطة ويتأثر بالحوادث انفعالا ، يراقبها ويتابعها تحفزا لمعالجتها .

ومن خلال المبدأ القومي أخذ أفرادها يتابعون سير الأحداث من خلال مبادئهم القومية ويدركونها وزناً من خلال معاييرهم القومية فيتأثرون بها بأسلوب خاص ، ويضعون أيديهم على عناصر الداء ، من تحكّم الاقطاع والاستعمار والسراى والرأسمالية ومدى حرمان سواد الشعب من خيرات بلاده . ويتابعون بألم فساد الحياة النيابية وحرمان البلاد من حرية الرأى وانحلال المجتمع وانسحاب ذلك الفساد إلى الجيش . مستنداً إلى الاستعمار .

وكانت حرب فلسطين عاملاً كبيراً في تغذية الشعور القومي بين الجيش ، فقد أخذ الجيش من خلالها يدرك إدراكاً مباشراً مدى فساد نظام الحكم ، وتحكّم الاقطاع ثم يحس بقبضة ذلك الاستعمار التي حالت دون تطور الجيش .

وفي حين كان هؤلاء من الطليعة يرقبون الأحداث من خلال المبدأ القومي كانوا يشهدون كفاح الطليعة من المدنيين من الشعب في كفاحها من أجل الجلاء واستعدادها على مر الأيام لتضحيات كبرى ، وإصرار الاستعمار على البقاء مما اضطر الحكومة لإلغاء معاهدة ١٩٣٦ في عام ١٩٥١ ، الأمر الذي زادهم شعوراً بالواجب وفتح أمامهم الطريق للعمل فاسهموا في الكفاح المسلح الذي بدأ في أعقاب إلغاء هذه المعاهدة .

وفي حين كان ذلك المد يعضى قدما كانت الأحداث تفتح أمامهم الطريق لأن يتقدموا الصفوف ويتزعموا الشعب للنضال ضد الاستعمار والرجعية وتمادى الاستعمار في تحديه لمصر ، ذلك لإنقاذ الموقف جذرياً ، وما لبث أن أعلن الجيش ولاءه للنضال القومي وتزعمه ، تحت قيادته ، وفي خدمة أهدافه ، متحدياً إرادة القومي

الحاكمة التي شاءت عزل الجيش عن هذا النضال ، ومن ثم فتح الطريق أمام
إرادة التغيير العربي ، فانبثق على يديه فجر النضال الثوري .

وإذ تمثل الثورة نهاية مد قومي فقد جاءت في ذاتها اثبت مكانة في مجرى
النضال منذ أن استهدفت معالجة ما كان في ذلك المد يعانیه أثناء سيره ، كما جاءت
نضالا ثوريا جديدا في منهجها واهدافها منذ أن أخذت تجدد من المجتمع المعاصر
في مصر ، حتى غدا ذلك مجتمعا متحررا في أمن اقتصادي وسياسي واجتماعي بما
جعل منه نواة بناء لمجتمع عربي حديث .

وكانت الثورة في اسلوبها ترشيدها هليا لما يجب أن يكون عليه
النضال العربي .

ورغم ما واجهته من شدائد وصعاب ومؤامرات فقد مضت بقوة تمثل
بداية النضال الثوري العربي في انتصارات متوالية وقد توافر على يديها ما كان
المجتمع العربي في حاجة اليه ، قوة ثورية تجدده وتحميه وتقوده إلى النصر في
مواجهة الصهيونية والاستعمار .

الفصل الثاني

الوحدة الوطنية

وتصفية الاستعمار

وبينما كانت الثورة تنجح للقضاء على السيطرة الداخلية ، ومعالجة المسائل الداخلية ، كانت تعمل على مواجهة السيطرة الخارجية ، كما كان يمثلها الاستعمار البريطاني ، وقد انتهت محاولاتها في ذلك إلى صدام مسلح بين الطرفين بالعدوان الثلاثي عقد النصر فيه لمصر الثورة .

وأخذت مصر تستعد لمقاومة الاحتلال البريطاني ومنازلته واحباط خطته ، فنجحت في القضاء على القوة الداخلية المتحالفة مع الاستعمار عندما خلعت الملك وألغت الملكية وضربت الروح الاقطاعي والرأسمالية المستغلة ، اقتصادياً وسياسياً .

كما نجحت الثورة في شل نشاط الانجليز في البلاد بفضل ما اتخذته من تدابير الرقابة على نشاط العناصر الانجليزية في البلاد وحصر التعاون مع الانجليز في نطاق محدود وإلغاء الصحف الحزبية المساندة للاستعمار كما نشطت في مراقبة القوات البريطانية في القناة .

بجانب هذا ، أخذت مصر تستعد عسكرياً لمنازلة القوات العسكرية إذا حدثت ورفضت بريطانيا الجلاء ، فأنشأت مراكز لتدريب الحرس الوطني والفدائيين لخوض حرب نضال ضد الانجليز في القناة ، والاهتمام بمصانع الاسلحة وتخزين كميات كبيرة من البترول .

ونشطت مصر في مكافحة الاستعمار ولقد بدأت في دعوة بريطانيا لتصفية قضية الجلاء ابان محاولاتها لتصفية قضية السودان .

فبينما كانت مصر الثورة تستعد للحركة الفاصلة مع الاستعمار ، كانت تنجح نحو

السودان بنظرة جديدة تقوم على الايمان بضرورة منح السودان حقه في تقرير المصير ، فقامت اتفاقية السودان في ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ بين الحكومة المصرية وبريطانيا بشأن الحكم الذاتي ، وقد انتهت بتقرير المصير للسودان .

وقد قضت الاتفاقية بانتهاء الحكم الثنائي المصري — البريطاني وتقرير حق شعب السودان في تقرير مصيره ، وبممارسة السودانيين لشئون الحكم في بلادهم أثناء فترة الانتقال السابقة على تقرير المصير ، ثم الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليماً واحداً .

وسرعان ما انتهزت الثورة فرصة إبرام اتفاق السودان فدعت الانجليز للدخول في مفاوضات لتصفية القضية الثانية الخاصة بمسألة القناة والجللاء .

ولقد وقعت مصر أثناء مفاوضات الجللاء ، مع التدابير التي تتخذها استعداداً للحركة مع الانجليز ، موقفاً ينطوي على شيء من الرغبة في التفاهم ولكنه لم يكن مرضياً لبريطانيا ، الأمر الذي جعل المفاوضات — وكانت قد بدأت في ٢٧ أبريل عام ١٩٥٣ — تعثر ثم تنقطع في ٨ مايو من نفس العام بسبب تمسك وفد مصر بتحقيق مطالبه التي كان أهمها الجللاء التام ، وتسليم القاعدة العسكرية ووضعها تحت إشراف مصر وغير ذلك .

وأسرعت قيادة الثورة بتنظيم المقاومة المسلحة في منطقة القناة ، ولكن لم يحض وقت طويل حتى عقد في ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ الاتفاق النهائي بين مصر وبريطانيا المتضمن تنظيم عملية الجللاء عن منطقة القناة وكان أهم نصوصها : —

١ — جلاء القوات البريطانية جلاء تاماً عن الأراضي المصرية خلال فترة عشرين شهراً من تاريخ التوقيع على الاتفاق الحالي .

٢ — انقضاء معاهدة التحالف الموقع عليها بلندن في ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ ، وكذلك جميع ما جاء فيها من اتفاقات أخرى .

وقد جاءت النصوص الأخرى تنظيمية وقد اشترط أن يظل الاتفاق نافذاً لمدة سبع سنوات ، ولقد حققت اتفاقية الجللاء ، جلاء القوات البريطانية عن مصر كما أعفتها من الارتباط بمعاهدة الدفاع البريطاني عن الشرق الأوسط .

ورغم ما جاء في الاتفاقية من التزامات فرضت على مصر ، خاصة ما جاء فيها بعودة القوات البريطانية في حالة وقوع هجوم مسلح على مصر من دولة في الخارج ، أو في حالة حدوث تهديد بهجوم مسلح من دولة من الخارج ، فإن ذلك لم يدم طويلا ، فقد أدت الأحداث التي أعقبت الاتفاقية إلى تصادم بين مصر وبين بريطانيا-متحالفة مع إسرائيل وفرنسا ، تصادما أنهى هذه الاتفاقية واستكمل حرية مصر في معركة حاسمة فقد انتصرت فيه مصر الثورة على ذلك العدوان الثلاثي الذي وقع عليها عام ١٩٥٦ .

العدوان الثلاثي وانتصار الوحدة الوطنية :

كان الاستعمار الغربي ، منذ أن ثبت أطماعه في الشرق ، يسوءه أن يرى مصر قوية منيعة عزيزة الجانب لأنه كان يدرك أن الحفاظ على هذه الأطماع هو في الابقاء على مصر في حالة من الضعف والتدهور .

وكانت سياسته إزاء مصر أن يعطي ويمنح على شرط الا يهدد ذلك مصالحه فاذا ما نهضت مصر تهدد مصالحه لا يجد مناصاً من التآمر عليها بشتى الوسائل ليوقف ذلك المد القومي ، فاذا لم يجد ذلك لديه وأحس بالخطر الدائم من مصر الناهضة على مصالحه فليس لديه من سبيل غير استخدام السيف حيث لم ينفع السوط .

ولقد عاضت مصر مع ذلك الاستعمار معارك هامة في كفاحها من أجل الحرية والقومية تفاوتت في درجات النجاح وكانت معركة السويس عام ١٩٥٦ إحداها ولكن أهمها وأعظمها نصراً ونجاحاً .

ولقد درج الغرب الاستعماري على سنته إزاء مصر ، فلما كانت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ فتح عينيه على بعث قومي جديد كان امتداداً لمد قومي سابق ، فصر التي أرادها الغرب في حالة من الضعف قد استطاعت فك القيود والتحرر وزادت في قوتها لتحتل مكانا مرموقا .

وعند الاستمرار إلى التجرش بمصر عليه يثير في طريقها المصاعب والاضطراب فدفع بإسرائيل للقيام بسلسلة من الاعتداءات على الأراضي العربية اتسمت

بالغزو المسلح ، ولكن لم يكن ذلك ليرد هذه الثورة عن طريقها بقدر ما كان نقطة تحول ، فبدأت توفيق في كسر احتكار السلاح ، وقد أصبح بهذا من مستلزمات وازن القوى في هذه المنطقة .

وحاولت مصر أن تستكمل جيشها بالسلاح فاجأت في البداية إلى الغرب تطلب السلاح من إنجلترا فأخذت تلك تراوغ وتشرط شروطاً تمس حصرية مصر ، كطلبها انضمام مصر إلى حلف بغداد ، ثم لجأت إلى الولايات المتحدة الأمريكية فوضعت أمامها الصعاب في إتمام ذلك ولم تستطع مصر الحصول على السلاح من فرنسا ، فلما تعذر على مصر الثورة الحصول على السلاح من الغرب اتجهت إلى الكتلة الشرقية ، إذ ذاك وفتت إلى عقد صفقة لشراء ما كان يلزمها من السلاح من تشيكوسلوفاكيا مقابل تزويدها بالقطن والأرز المصري في عام ١٩٥٥ .

كسرت مصر الثورة احتكار السلاح فارتبط ذلك بتأمين سلامة الدول العربية من الخطر الصهيوني وذلك بدعم الوحدة العسكرية في الشرق العربي ، إذ أبرمت مصر مع سوريا عام ١٩٥٥ ومع للعربية السعودية في نفس العام ومع اليمن في العام التالي أحلافاً عسكرية موجهة ضد إسرائيل ، اعتبرت بها الدول العربية الأربع أن كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة منهم يعتبر اعتداء عليهم ، ثم عقدت عام ١٩٥٦ في عمان اتفاقية نصت على إنشاء قيادة موحدة لجيوش سوريا والأردن ومصر ، وقد نهضت مصر تنشئاً لنفسها سياسة مستقلة وتقضى على احتكار السلاح وتقيم اقتصاداً نامياً ومجتمعاً حديثاً ثم تصعد في مذقوى لتسكون للعرب ولافريقيا والحرية في كل مكان مناراً .

لم تسترح القوى الاستعمارية والصهيونية إزاء ذلك التطور الذي بدأ مع فجر الثورة ناهضاً لتحقيق مجتمع أفضل فكان طبيعياً أن تنشط لتواجه ذلك المد حفاظاً على أطماعها .

شعر الاستعمار بالتهديد فبدأ يواجه الموقف بالمؤامرات ، وكان متوفماً بعد هذه البداية إذا مضى ذلك المد القومي إلى غايته العظمى ألا يجد الاستعمار مناصلاً من تطبيق سنته التقليدية باستخدام القوة للحفاظ على أطماعه .

وجه الاستعمار حملات شديدة ضد مصر الثورة، فلم تجدد بعد أن مضت في سبيلها التحرري، وجه في البداية حرباً نفسية موجهة من جميع محطات الإذاعة لإثارة الأكاذيب ضد الثورة والدعوة صراحة إلى التآمر والتمرد.

وحاول الاستعمار باسم التحالف مع الدول الكبرى أن يربط مصر بركابه بمحاولة ضمها إلى حلف عسكري للشرق الأوسط لكن الثورة ظلت متمسكة بما رآه من أن الدفاع عن منطقتي الشرق الأوسط، لا بد أن ينبثق من داخل المنطقة ذاتها.

ولجأ الاستعمار إلى فرض الحصار الاقتصادي حول مصر، فاستطاعت حكومة الثورة أن تقوت على الاستعمار أغراضه، فخطمت ذلك الحصار الاقتصادي وفتحت آفاقاً جديدة للاقتصاد المصري في الخارج والداخل بتصدير الشركات والاستثمارات الأجنبية الاحتكارية... وغير ذلك.

ثم جاءت معركة تمويل السد العالي فحاولت القوى الاستعمارية، بعد أن فشلت في مؤامراتها السابقة، أن توجد وسيلة للنسأومة حول تمويله يحدوها الأمل في تكبير مصر بأغلال تشغيلها عن اتجاهها الثوري الصاعد.

كانت الثورة قد أدركت مع نشاطها الثوري في شق الميسادين أن تطور الاقتصاد في المجتمع هو الأساس الراسخ لاقامة الحرية السياسية والحرية الاقتصادية فشامت بناء سد يتحكم في مياه نهر النيل بما يفتى إلى تدعيم الاقتصاد الزراعي وبالتالي تطور الصناعة من مساقط مياه السد.

وكان لا بد لها من الحصول على قرض خارجي لمعاونتها في بناء ذلك السد وما يستلزمه من مشروعات شتى فمدت يدها إلى البنك الدولي للانشاء والتعمير، وكان موقفه لا عوناً، ولكن محاولات لفرض السيطرة الاستعمارية على الاقتصاد فكان من شروط هذا البنك والتي طالب بها:

- ١ - الاتفاق على تقام لفرض وصاية على المصروفات العامة للدولة.
- ٢ - عدم إبرام أية اتفاقية دولية تحمل الدولة ديوناً خارجياً إلا بعد التقام مع البنك الدولي أولاً قبل الاتفاق على أي مشروع.
- ٣ - أن تكون إدارة المشروع خاضعة للاتفاق مع البنك الدولي.

ورفضت مصر ذلك بطبيعة الحال ، وأعلن البنك الدولي إيقاف الاعتماد الذي كان يقدر بمائتي مليون دولار لتمويل مشروع السد تنفيذاً لرغبة الاستثمار مثلاً بصفة خاصة في إنجلترا والولايات المتحدة .

ولقد ظن هؤلاء أنهم قد حاصروا الثورة في الزاوية التي أرادوها أن تكون من أمد طويل ولكن عبتاً ما حارلوا فقد جاء ذلك استنارة زادت الشعور العام غضباً ضد ذلك الاستثمار .

وكان الرد على ذلك الاستثمار الأحمق رداً بطولياً بحق ، ففي مساء ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، ومن ميدان المنشية بالاسكندرية ، وقف قائد الثورة البطل يتحدث إلى الاخوة المواطنين ، ويرد على خيانة الغرب لعموده ويعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس .

وقد أوضحت المذكرة الإيضاحية للقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ الخاص بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ميزات ذلك التأميم وحق مصر في ممارسة هذا الإجراء الذي مارسه من قبل الدول الأوربية كفرنسا وإنجلترا .

كان الغضب في قلوب الدول الاستعمارية يستشري كل يوم حثاً وبنضاً للثورة ومبادئها في احساس بالكبرياء الاستعماري الجريح ، وكان قرار التأميم عاملاً جديداً زاد من نيران الغضب السكامن تأججاً ثم فجره تفجيراً .

مس القرار الكبرياء الاستعماري في الصميم عند ما بلور أمامه قوة الثورة القومية ، ثورة لا تأخذ بالمصالحة ولكن بمثالية تسعى إلى استكمال الوجود المصري الحر الكريم ، فازداد الغرب شعوراً تهديد مصالحه على يديها ، وأخذ يشعر بانهداز هيئته على يد الثورة وكأنما أصابه مس من الشيطان ، فضى يتخذ سبيله إلى الحرب .

وكان لا بد للاستعمار من تمهيد لذلك العمل ولكن في اعداد قد يهيء الجو لحل الموقف جزئياً .

وبدأت طلائع ذلك فأسرعت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ اجزاء اقتصادية ضد مصر : لجمدت بريطانيا أرصدة مصر الاسترلينية

وحدت فرنسا حذوها لجمدت جميع أرصدة مصر وأموالها لديها ، وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي لندن اجتمع وزراء خارجية هذه الدول للتشاور فيما يجب عمله من إجراءات لاجباط قرار التأميم، وأصدر وزراء خارجية الدول الثلاث في أغسطس عام ١٩٥٦ بياناً حولوا فيه على قيام دولة واحدة بالاستيلاء التصفي على هيئة دولية ، وطالب البيان بمقد مؤتمر عاجل يجمع بين الدول الموقعة على اتفاقية القناة والدول الأخرى التي لها مصلحة حيوية في استخدام القناة ، وذلك من أجل إيجاد تدابير فعالة لإدارة القناة تحت اشراف جهاز دولي ، ولقد تضمن هذا البيان إجراءات تهديدية عسكرية للضغط على مصر ، وقامت إنجلترا ومعها فرنسا بتحركات وتدابير برية وبحرية وجوية ردت عليها مصر بإنشاء جيش التحرير الوطني في ١٩ أغسطس عام ١٩٥٦ وتوزيع السلاح على المتطوعين فأقبل هؤلاء على حمل السلاح في حماس استعداداً للقتال .

ومع شعور الغرب بخطورة الموقف أخذ ينقسم على نفسه ، ومع الانقسام بين صفوف الشعب البريطاني حول استخدام القوة والتدخل العسكري ، لم يلبث أن تجلج الموقف إزاء هذه المسألة بانقسام آخر بين بريطانيا وأمريكا منذ أن صرح ايزنهاور بأن بلاده لا تقر حليفها بريطانيا في استخدام العنف ضد مصر ، وتفضل أن تحل مسألة القناة بالطرق السلمية ، كما عارضت بعض دول الكومنولث البريطاني كالهند وسيلان على السياسة الاستعمارية العنيفة كما أن الاتحاد السوفيتي وأندونيسيا وغيرهما أقروا حق مصر الشرعي في تأميم القناة ، وكذلك أعلنت الدول العربية وقوفها بجانب مصر ، ومع هذا مضى ايدن في سياسته الطائشة في تعبئة قوى بريطانيا العسكرية .

وبين ألوان هذا التهديد اجتمع مؤتمر لندن في الفترة من ١٧ - ٢٣ أغسطس عام ١٩٥٦ لبحث مسألة القناة وقد تمخض المؤتمر عن انقسام في الرأي ، فرأت ١٨ دولة (من بين ٢٢ دولة وافقت على حضور المؤتمر) تكوين لجنة دولية لإدارة القناة ، فعارضت في ذلك كل من الهند وأندونيسيا وسيلان والاتحاد السوفيتي

حيث أيدت كلها بحق مصر في التأميم والاشراف على قناةها كدولة ذات سيادة ،
وأخيراً قررت الثمانية عشرة دولة أن توفد لجنة خماسية لعرض مقترحاتها على
مصر ولبكن ما كادت هذه اللجنة تعمل بمصر ، حتى اشتدت مظاهرات العدوان
المسلح ضدها من الدولتين الاستعمارييتين : فرنسا وانجلترا .

نزلت فرقة من جنود المظلات الفرنسيين في ٢٩ أغسطس في قبرص وتحركت
موجبات فرنسية بحرية إلى شرق البحر الأبيض وتجمعت قوات بحرية وبرية
وجوية في بريطانيا ، ثم فرنسية بالقرب من قبرص ومالطة كل ذلك للضغط
السياسي غير المباشر على مصر ، ولكن ذلك لم يكن له أثر فقد زادت الثورة
إصراراً على موقفها التحريزي وعندما اتجهت بريطانيا وفرنسا إلى رسم خطة
هزو مصر ، لم تسكن تلك من أجل القناة ، بل كانت من أجل القضاء على المبادئ
الثورية التحررية التي تنبعث من مصر الشائرة .

لقد أصبح تأميم القناة في أعماقه في عين الاستعمار البريطاني / أمراً خطيراً لأنه
يهدده في منطقة تعتبر حساسة لديه ، وينزل من هيبة الامبراطورية البريطانية
ويهدد أصدقاء بريطانيا وبتروال الشرق العربي .

وقد تجلى ذلك في أحد خطابات إيدن السرية لايزنهاور أول أكتوبر عام
١٩٥٦ إذ أوضح إيدن كل هذه المعاني فقال : « إذا لم نستطع إسقاط عبد الناصر
فلسوف ينتهي مركز بريطانيا الخاص في المنطقة ، وتصبح قواعدها كلها تحت
مرجة الغوزاء ويختفي أصدقاؤها واحداً بعد واحد ثم يمتد النهب العربي إلى موارد
البتروال ذاتها وحينئذ تنتهي بريطانيا ويتحطم التحالف الغربي العظيم
من أساسه » .

ولقد التقت رغبة إيدن ووزير خارجيته سلوين لويد مع رغبة جى موليه
وزير خارجية فرنسا في القضاء على حركة الثورة العربية ، وقد كانت فرنسا
تستعد إذ ذاك أنها لا تستطيع اخماد ثورة الجزائر بغیر اخماد ثورة مصر ، وفي
لقاء مع سلوين لويد في بداية عام ١٩٥٦ قال كريستان بينو رئيس وزراء فرنسا
بصراحة : « ان فرنسا مصممة على إسقاط النظام الحالي في مصر ، لأنه غير قابل

للتغام. وإنما الآن ندرس خطة تستطيع إسرائيل بمقتضاها أن تهاجم مصر وتغزوها ، ان الإسرائيليين لديهم هذا الاستعداد ، وهم يرون مصر تسليح ، ولا يمكن أن يقبلوا الانتظار حتى تتم مصر استعداداتها وتنقض عليهم ، وهكذا سممت فرنسا على غزو مصر بمعاونة إسرائيل فقدمت لإسرائيل أسلحة من غير حساب كما تعهدت لإسرائيل بالآتي :

١ - تقوم فرنسا مباشرة بحماية المذن الاسرائيلية والساحل الاسرائيلي من هجمات الطيران المصري والبحرية المصرية .

٢ - تقوم فرنسا بالمعاونة التكتيكية بالطيران فوق ميدان القتال في سيناء لمساعدة القوات البرية الاسرائيلية ولمنع هجمات الطيران المصري عليها .

٣ - تقوم فرنسا بعملية ضرب الأهداف الاستراتيجية في قلب مصر ذاتها على المرافق والمطارات وغيرها .

ثم تحولت هذه المؤامرة الثنائية إلى مؤامرة ثلاثية بدخول بريطانيا طرفا ثالثا ، ثم رسمت خطة للعدوان على مصر على الوجه الآتي :

١ - تعرض بريطانيا وفرنسا مسألة القناة على مجلس الأمن لبحث الموقف الذي ترتب على انتهاء النظام الدولي لإدارة القناة وذلك حتى تتم التهيئة العسكرية اللازمة لضرب مصر فعرضت أزمة القناة فعلا على مجلس الأمن في سبتمبر عام ١٩٥٦ ، وفي ١٣ أكتوبر وافقت أغلبية أعضاء مجلس الأمن على أن تدور مفاوضات مباشرة بين بريطانيا ومصر وفرنسا لحل مشكلة للقناة بالطرق السلمية .

٢ - محاولة تعطيل الملاحة في القناة باستدعاء المرشدين الأجانب حتى تجرم بريطانيا وفرنسا ذريعة للهجوم العسكري على مصر وقد باء ذلك بالفشل .

٣ - تقوم إسرائيل بهجوم مفاجيء على شبه جزيرة سيناء في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ لإبان الشغال أمريكا بانتخابات الرئاسة وفي الوقت الذي يكون فيه الاتحاد السوفيتي منشغلا في ثورة المجر ، فتسرع بريطانيا وفرنسا بغزو القناة بحجة التدخل لوقف الحرب بين الطرفين .

وقد ثبت ذلك التواطؤ بين الدول الثلاث ، أو تلك المؤامرة الثلاثية التي مهدت

للعُدوان الثلاثي في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ بعد أن قام ثمة اجتماع بين سلويد لويدي ودافيد بن جوريون وكريستيان بينو وقد أصر بن جوريون في هذا الاجتماع على أن يوقع الثلاثة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل اتفاقاً يرسم دور كل منها في خطة الهجوم على مصر وقد حرر هذا الاتفاق فعلاً من نسخة واحدة مبالغة في السرية ، وقد احتفظ بهذه الاتفاقية بن جوريون ، وقد كانت إسرائيل هي الطرف الذي أقر عليها حتى تطمئن وتبدأ الهجوم على مصر في الموعد المحدد .

وقد هاجمت القوات الإسرائيلية الحدود المصرية في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ فأسرعت بريطانيا وفرنسا بالاشتراك في العمليات الحربية بعد أن قدمتا إنذاراً إلى مصر بوقف الأعمال الحربية في مدة ١٢ ساعة ، والانسحاب مسافة عشرة أميال غرب قناة السويس والتسليم بأحتلال بور سعيد والاسماعيلية والعريش بحجة الفصل بين المتقاتلين ، وحماية القناة غير أن حكومة الثورة فوتت على الاستعمار أغراضه فقررت الانسحاب من شبه جزيرة سيناء والاحتفاظ بسلامة القوات المصرية وحشدتها مع الشعب .

وفشل العدوان الثلاثي على مصر ، بفضل صمود المقاومة المصرية وتضامن الشعب مع الجيش في مواجهة العدوان أولاً ، ثم من مساندة الأمة العربية ودول آسيا والشعوب المحبة للسلام ، والرأي العام المعادي للاستعمار ، وكان إنذار الاتحاد السوفيتي للدولتين الاستعماريتين المعتديتين باستخدام الصواريخ الموجهة ضدها من أكبر العوامل التي أكدت ذلك الفشل ومجّلت به ، وقد أُنذِر الاتحاد السوفيتي أيضاً إسرائيل بإعادة النظر في موقفه من وجودها .

وأخذت قوى العدوان في التراجع ثم تجلّى الموقف في قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال والانسحاب من الأراضي المصرية ، ودخلت الأمم المتحدة في المنطقة للإشراف على عمليات الانسحاب وللإستقرار على خطوط الهدنة بين إسرائيل والبلاد العربية وأسرعت القوات البريطانية والفرنسية في الانسحاب ثم تلتها القوات الإسرائيلية .

وفشل العدوان الثلاثي وسقطت معه سياسة الاستعمار التقليدية إزاء مصر

وخرجت منه مصر الثورة تستكمل وجودها الحر بشق الوسائل في الداخل والخارج .

وأنت مصر التزاماتها المقررة بمقتضى اتفاقية الجلاء، وتم ذلك بمقتضى القرار الجمهوري بقانون رقم ١ لسنة ١٩٥٧ الصادر في أول يناير عام ١٩٥٧ ، وقد نص ذلك على اعتبار اتفاق أكتوبر عام ١٩٥٤ كأنه لم يكن ، ابتداء من ٣١ أكتوبر عام ١٩٥٦ فقطح ذلك آخر خيط يربط مصر ببريطانيا .

واتجهت مصر المنتصرة ، تقصى على الاستعمار الاقتصادي في سيطرته على الاقتصاد المصري، وبفضل قوانين التمصيل والتأميم اختصت مصر بأرباح الشركات الأجنبية السابقة لكي تعاونها على رخاء البلاد .

ولقد كان انتصار مصر انتصاراً عربياً وأفريقياً بل انتصاراً للشعوب المناهضة ضد الاستعمار من أجل القومية والحرية .

انتصرت مصر فضت وهي تستكمل وجودها في الداخل تؤيد حركات التحرر عموماً وتزعم النضال العربي وتشد أزره ، وترى في معاونة النضال الأفريقي الهادف إلى تحرير القارة جزءاً من أهدافها في نضالها من أجل التحرر ، فأخذت تمد يدها للناضلين في القارة بشق الوسائل ، وقد جاء انتصارها على الاستعمار تمهيداً عملياً لما يجب أن يكون عليه النضال ضد الاستعمار ، فقد عبأت بانتصارها الشعوب المعادية له ، وأنزلت من هيبتة فلم يعد رهيباً كما كان ، ومن ثم كان انتصاراً عربياً وأفريقياً من أجل الوجود الحر الكريم .

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية في مصر

وهوان ٥ يونيو ١٩٦٧

منذ أن تحالفت الإطباع الاستعمارية الصهيونية فتبلورت ، في إقامة إسرائيل ، كان العرب الاستعماري يضمن جاداً لتمكين هذه الدولة المصطنعة من القوة والوجود ليصبح أقدر على تحقيق مطالبه في تحقيق أحلامها على حساب العرب .
وكان طبيعياً لكي تبقى وتحقق أهدافها كما أرادها الاستعمار وهو يلفظ أنفاسه بأن يمكنها من القدرة في الوقت الذي يمكن العرب من التفكك والضعف :
ببشقي الوسائل :

ومنذ طلائع النضال الثوري أحس الاستعمار وإسرائيل بالخطر الدائم ، ومضت طلائع النضال الثوري تجدد من التضامن العربي ، وتعيد بناء المجتمع بما يجعل من القوة نزعة ثورية ، ثم كان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ في جوهره هادفاً إلى القضاء على ذلك النضال في مهده ويسند أطباعه في الوطن العربي ويصون وجود إسرائيل كضمان لهذه الإطباع ، فلما فشل وانحسر النفوذ البريطاني عن المنطقة العربية تقدم النفوذ الأمريكي للملء الفراغ وحمل الرسالة ، فدأب على القضاء على النضال الثوري بمختلف الوسائل ، فلما تجدد النضال الثوري وتعزز نضاداً من الوطن العربي أحست السيطرة الأمريكية بذلك الخطر على مسيرة القضاء على مصير إسرائيل ، عندئذ وضعت خطة لعدوان ثلاثي جديد يأخذ مخططاً جديداً في أساليبه مستترا وراء إسرائيل للقضاء على النضال الثوري ، وذلك منذ أن عادت القوى الثورية إلى سوريا لتعزيز وحدته في كيان النضال الثوري بعد أن امتد إلى العراق والجزائر .

كان يهيم قوى الصهيونية والإستعمار أن يقضى على ذلك النضال ؛ وذلك بأن

تفكك هذه القوى الثورية حتى لا تتجمع فتعود سوريا إلى ما كانت عليه من قبل. كان من شأن هذه القوى اذن أن تمكن سيادة الرجعية من سوريا كي تضمن إسرائيل أمناً واستقراراً يخدم أغراضها في خدمتها لأغراض الاستعمار وكان طبيعياً لدى هذا الاستعمار إذا ما سيطرت هذه القوى الثورية من جديد في سوريا. أن يلب في وجهها ليعيد أمنه الذي لا يرى وجوده إلا في ظل القضاء على هذه القوى الثورية في تساندها في وحدة مع مصر .

ومنذ أن عادت القوى الثورية العربية تسيطر على سوريا بعد أن طرحت بالهدد الرجعي فيها وأخذت تنشط ، بدأت الدسائس للقضاء عليها فأخذ الاستعمار يوجه إسرائيل للحيلولة دون تماسك القوى الثورية وأخذت إسرائيل تستجيب من خلال أطرافها لأغراض الاستعمار في نشاط انتهى إلى اعلان عزمها على توجيه عدوان ضد هذه القوى الثورية مباشرة في سوريا استناداً إلى الرجعية العربية ، وما أن أدركت سوريا الخطر حتى التقت مع مصر الثائرة في معاهدة دفاع مشترك بينهما ، صيانة لوحدة المصير العربي .

ولقد اعتقدت الدوائر الصهيونية والاستعمارية ، رغم ذلك ، ملاءمة الوقت لتوجيه ذلك العدوان فالموقف الدولي في رأيها يحول بين سوريا وبين القوى التقدمية في الجمهورية العربية المتحدة وكذلك فإن قوات الأخيرة منشغلة في حرب اليمن ، ومن ثم لاح لهذه الدوائر أن الجمهورية العربية المتحدة أبعد من أن تهيب لنجدة سوريا عند الهجوم المزعوم .

وكانت الخطة أن يوجه الهجوم الإسرائيلي على سوريا ، فيمضي الزحف حتى قرب دمشق على نحو لا ينسحب فيه العدو إلا بشن اقتطاع أجزاء من الوطن السوري ذات مواقع استراتيجية هامة ثم احتلالها والمطالبة بوضع نظام للبوليس الدولي ، الذي يشابه ما تم وضعه في الجنوب بينها وبين مصر ، وبهذا وذلك تحقق الخطة أغراضها وتمكن العناصر الرجعية من السيادة والتهوين من النضال الثوري العربي التحرري ، وضمان أمن إسرائيل من الشمال ومن الجنوب فتمكن بالتالي من تحقيق أغراضها في تحقيقها لأغراض الاستعمار البغيض .

وبما دفع اسرائيل لهذا الموقف أيضا فشل السياسة الأمريكية والانجليزية
في ضرب الثورة النخزية وفشل السياسة البريطانية في الجنوب المحتل وازدياد
المقاومة الشعبية المسلحة بها ثم مساندة القوى الرجعية في ثورتها المضادة والمحافظة
على بقاء اسرائيل قاعدة استعمارية .

الصمود الوطني ورفض الهزيمة :

ومع المعركة وقف الشعب في مصر موقفاً بطولياً موحداً خلف قواته المسلحة،
وقد جمعت المحنة وزادته قوة وصموداً فلما حدثت الهزيمة العسكرية ، هب يومى ١٩٦٧ ،
١٠ يونيو ١٩٦٧ ليعلن رفض الاستسلام ورفض الهزيمة وأصر على أن يعتبر
الهزيمة العسكرية في ٥ يونيو ١٩٦٧ هزيمة في معركة واحدة من معارك نضاله
الطويل في مواجهة اسرائيل والاستعمار .

ولقد أثبتت جماهير شعبنا وهياً وصلابة ومقدرة على الحركة تفوق كل
تصور ، حين خرجت هذه الجماهير لتعلن رفضها للهزيمة ، واستعدادها للنضال
والنضحية من أجل أن تبقى الثورة وتبقى الاشتراكية .

وصمد الشعب وتجلت وحدته حين استعاد بناء جيشه وراء زعيم ثورته
جمال عبد الناصر واستعد للنضال والصمود من أجل إعادة الحق العربي .

الفصل الرابع

ثورة ٢٣ يوليو

ومتطلبات الوحدة الوطنية

أدركت الثورة منذ قيامها أن التعبئة الوطنية لكل فئات الشعب هي الوسيلة الوحيدة لدفع التطور في جميع مجالاته بسرعة وكفاية . . . ولذلك اتخذت الثورة عدة إجراءات الفرض منها حماية الوحدة الوطنية وتعبئتها لمجابهة أعداء الثورة في الداخل وفي الخارج . . . وتحقيق أهداف الثورة .

١ - إلغاء الأحزاب والتنظيمات السياسية

واستكمالاً لإصلاحات الثورة المادفة لتصفية السيطرة الداخلية ، كما تمثلت على يد الرأسماليين والملاك الزراعيين . . . اتجهت الثورة إلى إصلاح الأحزاب . وكان معظم الأحزاب والتنظيمات السياسية إذ ذاك في حقيقتها ومبادئها تمثل المصالح الخاصة بكبار الملوك وكبار الرأسماليين ، فلما رفضت تلك الأحزاب السير والإصلاح ، لم تجد الثورة بداً من حل هذه الأحزاب كلها وإبعاد جميع السياسيين والنواب الذين تعاونوا مع السراى والاستعمار للقضاء على سيطرتهم السياسية .

ولقد بدأت الثورة منذ قيامها في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في دعوة الأحزاب أولاً لتطوير نفسها وتحديد برامجها وأهدافها تمهيداً لإعادة الحياة الدستورية الكاملة في مصر ، ثم صدر في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ قانون تنظيم الأحزاب ، فالزم كل حزب أوجمية أو جماعة منظمة بضرورة الحصول على ترخيص من وزير الداخلية وبيان السياسة وأسماء الأعضاء والموارد ، ثم إيداع الأموال في المصارف فبلغ عدد الأحزاب التي طلبت التسجيل ١٦ حزباً ، ولقد نطقت الثورة بعد ذلك خطوة أخرى في سبيل إصلاح الحكم فأصدرت في ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٢ قراراً بإلغاء دستور عام ١٩٢٣ لعدم صلاحيته للتطوير الجديد .

وقد تبع إلغاء الدستور تشكيل لجنة لوضع مشروع دستور جديد يناسب العهد الثوري ، لكنها لم تحقق ما كانت ترجوه البلاد منها ، فقبل أن تقدم اقتراحاتها كانت الثورة قد حلت الأحزاب لجمودها والتنظيمات السياسية بعقليتها الرجعية عن قبول الإصلاح فقد أصدرت قيادة الثورة في ١٦ يناير عام ١٩٥٣ قراراً بحل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة جميع أموالها لمصلحة الشعب وحظرت تكوين أحزاب سياسية جديدة (١) .

وجدير بالذكر أن حل الأحزاب السياسية في مصر تؤكد عديد من الحقائق منها :

١- أن الأحزاب السياسية في مصر كانت تمثل المصالح المختلفة لطبقتي الملاك الزراعيين المستغلين والرأسماليين ، وكان هدفها الوحيد هو الدفاع عن هذه المصالح وتنميتها ، وبمعنى آخر فإن هذه الأحزاب كانت تجسد المصالح الطبقية لفئة النصف في المائة ، وكانت بالتالي بعيدة كل البعد عن اتجاه الجماهير ولم تكن تعبر إلا عن إرادة الإقطاعيين والرأسماليين ، وكان طبيعياً أن تكون سلطة الحكم كما قال الزعيم جمال عبد الناصر في بيانه أمام مجلس الأمة في ٢٦ مارس سنة ١٩٦٤ قد استقرت بصفة دائمة بين ست عشرة أسرة مصرية من كبار ملاك الأراضي .

٢- إن الأحزاب السياسية في مصر ظلت من غير نظرية سياسية وظلت بعيدة عن ممارسة الأساليب التنظيمية الحزبية ، ذلك أنها في الواقع لم تكن تستطيع أن تسمح بتنمية الوعي الاجتماعي للجماهير أو تتيح لها الفرصة للمشاركة الجادة في العمل السياسي الحقيقي ، مما أتيح للإقطاع والرأسمالية السيطرة على المجتمع والحكم (٢) وظل الارتجال والتزيج السياسي والفوضائية طابع العمل الحزبي .

من هذا يتبين أنه حتى بالمعنى الحزبي الصرف فقد فشلت الأحزاب المصرية

(١) عبد الرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تاريخها القومي في سبع سنوات

مكتبة النهضة المصرية ص ٥٤

(٢) جاء بالميثاق في هذا الصدد (ولقد ظلت الطبقة السياسية الحاكمة تعطل على ٥٤

سلسلة من الظروف الموضوعية القصد منها من قيام أية حركة شعبية ذات يستوى جدى) .

في إيجاد الشكل التنظيمي العلمي للحزب ، وفي إيجاد تقاليد حزبية راسخة يمكن في إطارها ممارسة العمل السياسي ومشاركة الأعضاء الحزبيين في رسم وتوجيه سياسة الحزب .

٣ - هذا إلى جانب إن صلة الجماهير بالحزب سواء كانت من بين أعضائه الرسميين أو من المشايخين له ، لم تكن تتعدى التجمهر في السرايدات والمواكب أو الإدلاء بالأصوات في صناديق الانتخاب مرة كل عدة سنوات .

٤ - كما أن الأحزاب المصرية فشلت في إيجاد التنظيم الحزبي الذي يتيح لأعضائها ممارسة العمل السياسي ، شأن كل الأحزاب على اختلاف مبادئها وأشكالها التنظيمية ، وبالتالي فشلت في إيجاد أي أساس صالح لبناء تنظيمات سياسية ، وبما يجدر ذكره في هذا الصدد أن هذه التنظيمات الحزبية كانت انعكاسا للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع ما قبل الثورة (مباشرة) وهي تعبير عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة وقتئذ (١) .

٥ - أن الوعي بضرورة التغيير في مصر سبق الوعي التنظيمي بمراحل طويلة بتأثير الرواسب العميقة التي تخلفت بسبب السيطرة الطويلة للأحزاب المصرية ، وأن الجماهير لم تستطع أن تعي أن تحقق آمالها في الحرية والعدل مرتبط بقدراتها على الانتظام في تشكيل سياسي قادر على قيادة تضامها والتصدي للقوى المضادة ، وحتى البرادر الأولى التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد شكل تنظيمي للجهود الوطنية التي كانت قد بلغت ذروة الحماس في أعوام ما قبل الثورة استطاعت الأحزاب أن تمزقها وتخرّبها من الداخل ، فالقوة المستنيرة لم يكن لها من الفعالية بحيث تستطيع التجمع داخل شكل تنظيمي يدافع عن مصالح الجماهير ، بل لم

(١) جاء في هذا الصدد بالميثاق (أو النظام السياسي في بلد من البلدان ليس إلا انعكاسا للمصالح المتعكبة في الأوضاع الاقتصادية ولذلك فالتحركات الحزبية في واقع الأمر انعكاسا لتطور الاجتماعي في مصر وانعكاسا لتغيرات التي تحدث في العلاقات الاجتماعية في المجتمع المصري تحت تأثير التغيرات الاقتصادية السريعة والمتلاحقة التي بدأت مصر تشهدها خلال الحرب العالمية الأولى)

يمكن لها من القوة ما يمكنها من الحفاظ على المحاولات الأولى في هذا الاتجاه .
وهذه الحقائق في مجملها تفسر لنا لماذا اتجهت الثورة إلى تصفية الأحزاب
تصفية نهائية وشاملة ، ولم تكف بمجرد تصفية القيادات الحزبية الموجودة ،
لقد كان أمام الثورة مهمة رئيسية وهي لسف الظروف الموضوعية السابقة التي
أقامها حكم الطبقة المستغلة لكي تمنع قيام الحركة الشعبية المنظمة وإيجاد المناخ
الصالح لقيام هذه الحركة .

قال الزعيم جمال عبد الناصر وهو يقدم في ٢ يوليو عام ١٩٦٢ إلى المؤتمر
الوطني للقوى الشعبية مشروع التنظيم السياسي :

(... وقد كانت هناك تنظيمات شعبية سبقت قيام الثورة، ولكن هذه التنظيمات
خضعت قيمتها بسببين رئيسيين هما :

(١) أن معظم هذه التنظيمات خصوصاً تلك التي مارست الحكم منها ، قبل
الثورة ، كانت تعمل لمصالح طبقية ، وكانت كلها تستند على تحالف الإقطاع
بورأس المال المستغل ، ومن ثم فإن هذه التنظيمات لم تكن قائمة على أساس
جماهيري ، وإن كان بعضها قد استطاع في سنوات النضال الوطني من أجل
الاستقلال أن يحرك جموعاً من الجماهير إلا أنه لم يستطع مواصلة النضال إلى
نهايته ، لارتباط مصالحه بطريقة غير مباشرة مع مصالح الاستعمار . ومن ثم
انتهى إلى مهادنته ، ومن ناحية أخرى ، لأن النضال الوطني من أجل التحرر
الاجتماعي ، لاحت مقدماته حتى خلال معركة الاستقلال ، الأمر الذي جعل
هذه التنظيمات السياسية تنقلب على قواعدها الجماهيرية ، وتحاول صرف أنظارها
عن معركتها الحقيقية .

(ب) أنه كانت هناك قبل الثورة تنظيمات سياسية لا تعبر عن مصالح الطبقة
العاملة ، لكن فعالية هذه التنظيمات كانت في معظم الأحيان محدودة أو سلبية
بسبب تحفظ المصالح الطبقية الحاكمة عليها ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن
هذه التنظيمات حركتها دوافع انفعالية عاطفية أو حركتها قوى بعيدة عن التربية
القومية ولم يكن لديها على أي حال من التعمق ما يكفل لها مواجهة حتمية التغيير.

الاجتماعى واتخذاذ الواقع الوطنى بداية لها) .

ثانيا : التنظيمات السياسية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ووحدة تحالف

قوى الشعب العاملة .

حرصت حكومة الثورة منذ قيامها على تمكين كل العناصر الوطنية من وجودها داخل إطار واحد وتمكينها من السيطرة على الاقتصاد الوطنى فى إطار من الوحدة الوطنية القادرة على مجابهة التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى بالإضافة إلى تمكينها من مجابهة القوى الرجعية التى تجتمعت لحماية الاوضاع الاجتماعية القديمة . . وتوفير متطلبات التحول الاشتراكى . حتى يصبح تحالف قوى الشعب العاملة هو قائد العمل الوطنى .

ولقد ظهرت عدة تنظيمات سياسية بدأت بهيئة التحرير ثم الاتحاد القومى . . وانتهت بالاتحاد الاشتراكى العربى الممثل من تحالف قوى الشعب العاملة .

وفى الحقيقة أن كل شكل من هذه الأشكال التنظيمية كان لابد وأن يظهر فى المرحلة التى ظهر فيها وكان لابد أن ينتهى حيث انتهى بغض النظر عن ثورية هذا الشكل أو لا ثوريته وبغض النظر عن معيار الفشل أو النجاح ، فالثورية ليست حالة دائمة وإنما هى مرتبطة بالمرحلة التى يمر بها المجتمع ، والاجراء أو التنظيم الثورى فى مرحلة معينة إن لم يتطور ويتكيف وفق مقتضيات ومتطلبات المرحلة التالية ، فقد ثورته وأصبح إجراء أو تنظيمًا رجعيًا متخلفاً ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحل التغير الاجتماعى التى شهدتها مصر بعد الثورة كانت تعكس بالضرورة شكلاً معيناً من أشكال التنظيم يعبر عن طبيعة المرحلة . . بما فيها من علاقات اجتماعية . . وتناقضات . . وصراغ طبقى وفكرى . . وبكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات .

٢ - هيئة التحرير

بعد حل الأحزاب فى مصر فى ١٤ يناير عام ١٩٥٣ كانت الثورة تواجه

الظروف والعوامل الآتية : -

(أ) الاحتلال الأجنبي المتربص الذي يهدد كل عمل ثوري يسعى لتغيير الواقع المتعفن المفروض على البلاد .

(ب) افتقار الثورة إلى نظرية سياسية متكاملة وإلى تنظيم سياسي يحول الجماهير الشعبية المتحمسة إلى قواعد منظمة تستطيع مساندة الثورة والإندفاع معها في طريق التحرير .

(ج) تيارات وطنية مختلفة من المثقفين تمزقهم الخلافات العسكرية

(د) مجموعة من الرأسماليين وكثير من ملاك الأراضي ممن لم ينطبق عليهم قانون الإصلاح الزراعي .

وفي ٢٣ يناير عام ١٩٥٣ أعلن ميثاق وأهداف وطريقة تنظيم هيئة التحرير كتتنظيم جماهيري يعي جميع طبقات الشعب وفتاته المختلفة على ما بينهم من تناقض لمواجهة متطلبات المرحلة الأولى فيها بعد الثورة .

وكان على هيئة التحرير أن تعي كل هذه القوى من أجل :

(أ) مواجهة جيوش الاحتلال الرابضة على أرض القتال

(ب) مواجهة الأحزاب والجماعات الرجعية المنحلة .

(ج) إيجاد الإطار الواحد الذي يمكن الثورة من حشد وتنظيم كافة القوى الوطنية لحماية البناء الثوري الوليد .

وكان شعار هذه المرحلة هو وحدة كافة الفئات الوطنية من أجل تحقيق الاستقلال . ومن هنا كان لابد أن تدخل القوى المعادية للاستعمار في هيئة التحرير رغم اختلاف آرائها حول مستقبل العلاقات الاجتماعية ، وحول اتجاه التطور الاجتماعي في مصر بعد الاستقلال (١) .

(١) لم تكن هيئة التحرير أول شكل من أشكال التنظيمات السياسية يظهر في ظل الثورة ، فالقد سبق هيئة التحرير شكل آخر من هذه التنظيمات هو تشكيل الضباط الأحرار وكان الجيش هو المجال الطبيعي لهذا التشكيل .
أظهر مجموعة محاضرات التنظيمات السياسية والجماهيرية - الثورة الثالثة للمعهد لعلى لدراسات الاشتراكية ١٩٦٦/٦٥

ولستطيع القول أن هيئة التحرير قد أتاحت الفرصة لالتحام قوى الشعب بقيادة الثورة ، كما استطاعت أن توجد نوعا من التنظيم للقوى الشعبية ، وتعبئة هذه القوى في اتجاه التوعية الوطنية وتعبهم مشا كل المجتمع الجديد والاستعداد لخوض المعارك القادمة على الطريق .

والفقرة التالية من ميثاق هيئة التحرير توضح أهم أهداف هذا التنظيم في المرحلة الأولى من الثورة :

نحن أعضاء هيئة التحرير قد آلينا على أنفسنا أن نجلى الغاصب عن وادى النيل بلا قيد أو شرط .. وأن نكفل للسودان تقرير مصيره دون مؤثر خارجى .. وأن نقيم فى وطننا مجتمعا قويا ، أساسه الإيمان بالله وبالوطن، والثقة بالنفس وأن نكفل الحقوق والحريات للمواطن ، وأن نجعل نصب أعيننا وحدة الوطن المقدسة .. وتعبئته فى تنفيذ برامج التعمير والإلشاء ، وأن نعمل على ما من شأنه قيام مصر برسالتها العالمية .. دولة قوية تحمل مسئولية العدل والحرية .. وتنفى خير الإنسان وتعاون الشعوب العربية .

وهكذا تكونت هيئة التحرير .. وشمارها (الاتحاد والنظام والعمل) وكانت العضوية فى هيئة التحرير مفتوحة لكل مواطن .. ولكل عضو أن يمارس حقه داخل الجمعيات العمومية للقرية أو المركز أو المديرية والمحافظه .

ومن أعضاء مجالس إدارات الجمعيات العمومية تتكون الجمعية العمومية العامة . ومن بين أعضاء الجمعية العمومية العامة ينتخب المجلس الأعلى الذى يدير أعمال الهيئة ويشرف على فروعها ولشاتها .. ويراقب تنفيذ رغبات أعضائها .

ولقد نص قانون الهيئة على أن يراعى عند تشكيل المجلس الأعلى أن يكون من ٤٠ عضوا يمثلون مختلف المديريات والمحافظات .. والباقيون يمثلون مختلف الطوائف والمهن الأخرى .

ولقد تأسست هيئة التحرير كما قال الزعيم جمال عبد الناصر رغبة فى إيجاد تنظيم لقوى الشعب وإعادة بناء مجتمعه على أسس جديدة قوامها الفرد .

ولقد أثبت الشعب خلال فترة الانتقال التي أعلنت في ١٦ يناير سنة ١٩٥٢ بعد حل جميع الأحزاب .. تفاعله مع الأهداف التي رسمتها الثورة .. وكان واضحاً أن الجماهير بدأت في التضوُّج الفكري .

وبدا إحساسها بالحاجة إلى علاج ثوري جديد .. يمزج الطبقات المسيطرة في الماضي ليبدأ إحساس جديد بالمستقبل .

ولإزاء هذا كان لا بد من تنظيم قوى جديد يجمع الشعب بأكمله ويحمي مكاسب الثورة .. ويحمي الجماهير من أهداف الانتهازية .. ويمكن كل العناصر الوطنية في وجودها داخل إطار واحد بحيث تتفاعل بما يقرب بينها ويحل التناقض الواقع بينها بطريقة سليمة، ويرفع من كفاءتها في مواجهة بداية المرحلة الجديدة في إرساء قواعد الاقتصاد المصري، وإيجاد نواة القطاع العام ليصبح نقطة البداية في الانطلاق نحو ملكية الشعب لوسائل الإنتاج .

٣ - الاتحاد القومي .

في ٢٨ مايو عام ١٩٥٨ صدر قرار تشكيل الاتحاد القومي — للعمل كما جاء في المادة الأولى من القرار — على تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة ولحسب الجهود لبناء الأمة بناء سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وجاء الاتحاد القومي في مرحلة تدعيم الاستقلال الوطني في أعقاب العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ وبعد تمصير الشركات والمؤسسات الرأسمالية الفرنسية والبريطانية أي جاء في المرحلة التي كانت المهمة الأساسية فيها هي التنمية الاقتصادية، وبناء اقتصاد قومي قوي ، والبدء في الانتقال بالمجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم .

وكانت أهداف الاتحاد القومي (١) :

(١) أن يكون التعبير المياسي عن الوحدة الوطنية التي تأكدت بدحر العدوان الثلاثي وأثبتت صلابتها .

(ب) دعم الثورة الوطنية وهي تتجه نحو التطوير الاجتماعي .

(١) المرجع السابق . محاضرات الدكتور محمد الحنيف ص ١١ .

- (ح) مواجهة تحديات الإستعمار في مصر والعالم العربي .
- (د) إرساء دعائم الممارسة الديمقراطية القائمة على العدل الاجتماعي .
- (هـ) حل التناقضات بين طبقات الشعب بطريقة سليمة .

وقال الزعيم جمال عبد الناصر في هذا الصدد :

« يمكن أن يقال أن فكرة الاتحاد القومي كانت الوسيلة، لتكثيف جهود الشعب والسير به في الطريق المؤدى إلى تحقيق أهداف الثورة. وتجنبيه زيلات الخلاف ، التي قاسينا منها ما قاسينا بعد اتحاد الشعب في ثورة ١٩١٩ .

لقد كان الاتحاد القومي تنظيماً يحقق على أكل صورة ممكنة في هذه المرحلة الديمقراطية الاشتراكية التعاونية .

ومن هذه النقطة كان ارتباط الاشتراكية بالديموقراطية التعاونية في شكلها القائم على زيادة الانتاج وعدالة التوزيع .

وعلى هذه القاعدة صدر قانون الاتحاد القومي وتضمنت لائحته الأساسية :
« اشترك جميع أبناء الشعب في اختيار أعضاء الاتحاد .. والمشاركة الإيجابية في عضوية اللجان العامة » .

ويبدأ تكوين هؤلاء المواطنين ، ويتدرج التمثيل والتشكيل في عدة مستويات تبدأ من القرية بثلاثة أعضاء كحد أدنى ولا يزيد عن ثلاثين عضواً في المناطق الكبيرة ينتخبهم المواطنون انتخاباً مباشراً .

ومن هذه اللجان تتكون اللجان التنفيذية في القاعدة وهي القرية والمركز ثم اللجنة العامة .. البندر أو المركز .. ثم لجنة المديرية أو المحافظة .. ثم مؤتمر المديرية أو المحافظة ممثلاً لجميع أعضاء اللجان التنفيذية داخل حدود المحافظة والمديرية ثم المؤتمر العام على مستوى الجمهورية .. ومنه تنبثق اللجنة العامة للتوتم .

ولكن اتضح خلال التجربة العملية لتفعيل الاتحاد القومي كتنظيم شعبي لحماية أهداف الثورة أن هناك عناصر مستغلة تساللت إلى صفوفه في محاولة لتشكيل قاعدة رجعية داخل هذا التنظيم، لحماية بعض التراكيبات الاقتصادية والاجتماعية التي تخدم مصالحها المستقلة .

ومن جهة أخرى ذابت في الاتحاد القومي العناصر الثورية الواعية لقضية الثورة ولأهدافها ونبادتها. وظهر أيضاً افتقار الاتحاد القومي — في غياب دليل العمل والنظرية الثورية — إلى الوضوح الفكري بحيث يمكن القول بأن الاتحاد القومي أصبح يضم مجرد ممثلين عن الشعب بغض النظر عن وعيهم وإيمانهم بالثورة واستعدادهم للنضال من أجل أهدافها .

وفي تقييم الزعيم جمال عبد الناصر لهذه التنظيمات في خطابه أمام المؤتمر الوطني للقوى الشعبية (٢ يوليو ١٩٦٢) حدد ثلاثة أسباب لعجزها عن مواكبة التطور الجذري السريع في المجتمع : —

الأول : قوى الثورة في مواجهتها لاحتية التغيير الاجتماعي ، لم تكن قد استطاعت أن تحدد دليلاً للعمل الثوري تلتقي عليه الجهود . ومن نتيجة ذلك أن التجمع الشعبي مع النوايا الطيبة التي توافرت له .. كان اقتراباً غير منظم من مجموعة من الأمان العامة ليس لها منهاج تفصيلي تلتقي عنده جهود جماعية على أساس فكري واضح واحد لتصدر عنه إرادة شعبية عميقة ومؤثرة .

الثاني : أن الفكر الثوري في تلك الفترة وهو يتطلع إلى الوحدة الوطنية ويدرك ضرورتها الحيوية داخل الوطن وفي مواجهة الظروف المحيطة به وقع في الخطأ حين توهم أن الطبقة المحتركة التي كان لا بد أن تسلبها الثورة امتيازاتها الاستغلالية ، يمكن أن تقبل الوحدة الوطنية مع قوى الشعب صاحبة المصلحة في الثورة .

ولقد كان من أثر ذلك أن محاولات التنظيم الشعبي التي جرت في ضباب هذا اللوم حدث في داخلها من عوامل الصدام بين القوى الثورية بالطبيعة والقوى المضادة للثورة بالطبيعة ما أصابها بالشلل وأقعدتها عن الحركة ، بل وكاد أن ينحرف بها في بعض الأحيان عن الاتجاه الثوري الأصيل .

الثالث : أنه نتيجة لما سبق من غياب دليل العمل الثوري ومن خطأ جمع المصالح المتصارعة في وحدة وطنية موهومة ، ضاع عنصر الالتزام في التنظيمات الشعبية .

غير أننا إذا نظرنا إلى النواحي الإيجابية نجد الاتحاد القوي قد استطاع أن يحقق نتائج إيجابية في مجال تنظيم قوى الشعب ولشرب مناخ اشتراكي عام ، وبتوضيح المسائل الأولى للممارسة الديمقراطية في نطاق الجماهير .

ومن هنا فإن الاتحاد القوي كان يمثل جزءاً من مرحلة انتقال ، لها دوافع وظروفها وتناقضاتها .

وعلى أية حال فلقد ظهر بعد التحولات الاشتراكية العميقة في المجتمع بـ يوليو عام ١٩٦١ وخاصة بعد أن حدثت نكسة الانفصال نتيجة وثبة الرجوع في سوريا ، أن مرحلة التحول الاشتراكي بحاجة إلى تنظيم شعبي اشتراكي يكون هو صاحب المصلحة الحقيقية في حماية الثورة والسهر عليها والالتحام معها وبذكل طاقاته من أجل الاندفاع بها . فإذا كانت قوانين يوليو ١٩٦١ قد أسقطت تحالف الرجعية والرأسمالية . فإنها في نفس الوقت قد عبرت عن نجاح تحالف قوى الشعب العاملة وأظهرت ضرورة تنظيم هذا التحالف ، وعلى هذا الضرب وبجانب استقرار الوقائع التاريخية . وانتقال الثورة إلى مرحلة الحياة الاشتراكية الكاملة ، كان من الضروري تنظيم الشعب من جديد بحيث تصبح القوى العاملة فيه داخل إطار تنظيمي قادر على الحركة وقادر على مواجهة القوى الرجعية التي تحاول أن تتجمع لحماية الأوضاع والعلاقات الاجتماعية القديمة القائمة على الاستغلال وتحاول أن تعوق إتمام التحول الاشتراكي .

وهكذا تم تنظيم الشعب للرحلة الثالثة على طريق الثورة . في الاتهام الاشتراكي العربي ليكون الإطار الذي يضم قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية في الاشتراكية ولينقلنا إلى مرحلة التحالف بين القوى الشعبية العاملة التي لا تسمح للعلاقات فيما بينها بلأى لون من ألوان الاستغلال .

٤ — الاتحاد الاشتراكي العربي :

تكون الاتحاد الاشتراكي العربي في ظل أوضاع اجتماعية جديدة شقت بالطريق قيادتنا الثورية بضربات يوليو ١٩٦١ وأغسطس ١٩٦٣ ومارس ١٩٦٤ وهذه الأوضاع هي :

(ا) الاستقلال السياسى والاقتصادى .

(ب) عزل كبار ملاك الارض وكبار الرأسماليين عن السلطة السياسية وتصفيتهم اقتصاديا .

(ج) وصول قوى الشعب العاملة إلى السلطة السياسية والاقتصادية .

(د) تصفية الملكية الفردية كأساس للعلاقات الاجتماعية وقيام قطاع عام مسيطر على أهم وأغلبية وسائل الإنتاج وتملكه قوى الشعب وإلى جواره قطاع خاص خاضع لتوجيه الدولة وللرقابة الشعبية .

(هـ) تسليح العمل الثورى ولأول مرة بدليل للعمل أقرته قوى الشعب هو الميثاق :

وهذه الأوضاع حتمت أن يكون تحالف الشعب هو تحالف خمس قوى اجتماعية دون غيرها : تحالف الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسماليين بوصفهم جميعاً هم وخدم أصحاب المصلحة الحقيقية فى الماضى بعملية تطوير المجتمع وتغييره اشتراكياً ، ومن هنا كان لا بد للوثق الوطنى للقوى الشعبية أن يحدد من هم أعداء الشعب حتى يقطع عليهم حبل التحالف على الانضمام إلى التحالف . من هذا فإن الاتحاد الاشتراكي يمتاز عن الشكلىين السابقين للتحالف فى النواحي الأساسية التالية :-

(ا) وجود الميثاق كبرنامج ودليل عمل واضح ومقرر من مؤتمر للقوى الشعبية .

(ب) وجود خطة قومية شاملة للتنمية .

(ج) تجديد قاطع لقوى الشعب بأنها هى فقط القوى التى تستهدف فعلاً بناء مجتمع اشتراكي وبالتالي وضوح نقطة فى غاية الأهمية وهى أن هذا التحالف بهذا الوصف لا بد وبالضرورة أن يكون قوة ضاربة ضد كل القوى المعادية للاشتراكية . فلم تعد الوحدة الوطنية هى وحدة كل المعادين للاستعمار ، بل أصبحت بالتحديد وحدة كل الراغبين فى الاشتراكية ضد غير الراغبين فيها .

ولقد شرح الزعيم جمال عبد الناصر فى جلسات المؤتمر الوطنى هذه النقطة

بقوله : « قبل ذلك قلنا الاتحاد عموماً ، أما الآن فإننا نعلق عليه الكمال
لابد أن نتعلق عليه ، فأصبح الاشتراكية ، أي أن الرجبين لا يدخلون
الاشتراكية . . هكذا بوضوح » .

(د) ونتيجة لوضوح مفهوم التحالف وضعت أيضاً فكرة الصراع بين
والتعاون بينها ، فهناك نوعان من التناقض . تناقض عدائي وكان لا
الثورية أن تتدخل لحسمه ، وهو التناقض بين قوى الاشتراكية وقوى
الاشتراكية ، وتناقض غير عدائي وهو ما بين قوى الاشتراكية نفسها .
فرضتها طبيعة مرحلة التحول . فعندما يتحدث الميثاق عن « الصراع
والطبيعي بين الطبقات ووجوب حله سلبياً في إطار الوحدة الوطنية
واضحاً أية طبقات يعني وأية وحدة وطنية يقصد .

(هـ) غير أن هناك إلى جانب هذا كله نقطة على أكبر جانب من الأهمية
الاتحاد الاشتراكية دون غيره من الأشكال السابقة وهي أنه يحكم الميثاق
العمل الذي يلتزم به (تحالف يضمن فيه فريقان بالذات من القوى الخمس
لها وهما الفلاحون والعمال كحد أدنى نصف عدد مقاعد لجان المنتخبين
المستويات . . تحالف محور الفلاحون والعمال .

ولكي نلقى ضوءاً على الاتحاد الاشتراكية العربي باعتبارها التنظيم
للشعب العاملة لنا أن نتساءل ما هو تعريف الاتحاد الاشتراكية العربي :
مراحل تكوينه . . حتى وصل إلى المرحلة الحالية بعد تصفية مراكز
كانت تعوق تأدية رسالته ؟

جدير بالذكر أن الاتحاد الاشتراكية العربي يعتبر التنظيم السياسي الذي
يمثل قوى الشعب الخمس العاملة وهي :

الفلاحون - العمال - المثقفون والجنود والرأسمالية الوطنية داخل
من أجل حمايتها من أي مؤامرة في الداخل وفي الخارج ومن أجل تطور
إلى صورة أفضل .

ويعتبر الاتحاد الاشتراكية الطبيعية الاشتراكية لقوى الشعب التي

يعرف متطلبات الجماهير واحتياجاتها ومشاكلها وهو بمثابة الوعاء الذي
تلقى فيه آمال الجماهير .

مراحل التكوين والتنظيم للاقتصاد الاشتراكي العربي :

اللجنة التحضيرية :

وفي ٤ نوفمبر عام ١٩٦١ أصدر الزعيم جمال عبد الناصر بياناً سياسياً حدد
فيه خطوات تنظيم العمل الشعبي في المرحلة الجديدة مرحلة التحول الاشتراكي ..
وفي ١٨ نوفمبر أصدر قراراً بتشكيل اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى
الشعبية من ٢٥٠ عضواً لتسكون مهمتها دراسة الطريقة التي يمكن أن يتم بها اختيار
ممثلين للقوى الشعبية في مؤتمر وطني بطريق الانتخاب .

وقد حددت اللجنة التحضيرية القوى الحقيقية الأصلية للشعب ضمن الفلاحين
والعمال والرأسمالية الوطنية وأعضاء النقابات المهنية وهيئات التدريس بالجامعات
والمعلمين والطلاب والقطاع النسائي .

المؤتمر الوطني للقوى الشعبية :

وفي ٢٧ يناير ١٩٦٢ أصدر الزعيم جمال عبد الناصر قراراً بدعوة الناخبين
لاختيار أعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية وتمت الانتخابات فيما بين يومي
١٩ : ٥ فبراير ، وأصبح المؤتمر يضم ١٧٥٠ عضواً بينهم ١٥٠٠ أجرى انتخابهم ،
٢٥٠ هم أعضاء اللجنة التحضيرية .

الميثاق الوطني :

وقدم الزعيم جمال عبد الناصر في ٢١ مايو عام ١٩٦٢ مشروع الميثاق إلى
المؤتمر وتم إقراره في ٣٠ يونيو عام ١٩٦٢ ليصبح النظرية الثورية لقوى الشعب
العامة التي لا بد لها أن تجد تحالفها بعد أن تم إسقاط تحالف الرجعية والإقطاع
والرأسمالية المستغلة .

مراحل تشكيل الاتحاد الاشتراكي :

في ٢ يوليو ١٩٦٢ تقدم جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية

بمشروع للتنظيم السياسي يتضمن الاسس التي يتعين أن يقوم عليها هذا التنظيم .
وفي ٣ يوليو أصدر المؤتمر قرارا بتفويض الزعيم جمال عبد الناصر في
تشكيل اللجنة التنفيذية العليا المؤقتة للاتحاد الاشتراكي العربي وتم ذلك في
٦ نوفمبر ١٩٦٢ وضمت ١٨ عضوا بخلاف الزعيم جمال عبد الناصر .

وعقدت اللجنة التنفيذية العليا أول اجتماع لها في نفس اليوم وقررت تشكيل
الامانة العامة المؤقتة من ١٢ عضوا .

وفي ١٨ ديسمبر ١٩٦٢ صدر النص الكامل للقانون الاساسي للاتحاد
الاشتراكي العربي .

وبدأت انتخابات لجان الاتحاد الاشتراكي للوحدات الاساسية في ١٢ مايو
عام ١٩٦٣ ، وتم انتخاب الامناء والامناء المساعدين في ١٠ يونيو ١٩٦٣ ،
ثم شكلت اللجان المؤقتة للاتحاد الاشتراكي العربي بالمحافظات بقرار من اللجنة
التنفيذية العليا بإعادة تشكيل الامانة العامة بحيث تقسم إلى أمانات فرعية .

ودخلت منظمات الاتحاد الاشتراكي العربي في مرحلة جديدة، بتشكيل المكاتب
التنفيذية للمحافظات عام ١٩٦٥ ، واستدعت طبيعة المرحلة التفرغ الكامل للعمل
السياسي . ومع بداية عام ١٩٦٦ بدأت تشكيلات المكاتب التنفيذية على مستوى
الأقسام والمراكز . ومن ديسمبر عام ١٩٦٦ بدأت محافظة القاهرة تشكيل المكاتب
التنفيذية على مستوى الوحدات على ضوء ما أسفرت عنه التجارب الناجحة في
تشكيلات الجماعة القيادية .

وفي ديسمبر عام ١٩٦٦ أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعادة تشكيل
اللجنة التنفيذية العليا وأصبحت تضم ٦ أعضاء بخلاف الزعيم جمال عبد الناصر .
وهكذا أصبح الاتحاد الاشتراكي العربي هو إطار هذا التحالف الشعبي الذي
يعبر عن مرحلة البناء الاشتراكي الذي عبر الميثاق عن أسسه النظرية : فالاتحاد
الاشتراكي أصبح التنظيم السياسي الذي يقود العمل الشعبي ويتفاعل مع
هذا العمل ومع احتياجات الجماهير عن طريق منظماته في المستويات المختلفة ، بحيث

يصبح السلطة العليا فوق جميع الأجهزة التنفيذية والأجهزة التشريعية .

إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي بالانتخاب :

بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ . . والوقف التاريخي لجماهير الشعب في ٩ ، ١٠ يونيو بالاصرار على الصمود ورفض الهزيمة والاصرار على الاستمرار في المعركة حتى النصر . قدم الرئيس جمال عبد الناصر بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ كمنهج للتغيير والتصحيح وأجمعت عليه الإرادة الشعبية في إستفتاء عام (١) كان من أهم النقاط التي تعرض لها بيان ٣٠ مارس هو أن يكون الانتخاب الحر هو الوسيلة الوحيدة لإعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي .

فلقد كان الاتحاد الاشتراكي العربي في بداية تشكيله يقوم على التعيين (٢) . ولقد أبرزت التجربة العملية للاتحاد الاشتراكي وخاصة بعض المراكز القيادية ، أن التعيين لا يمكن أن يكون هو الوسيلة المثلى ، فلم يكن يصل إلى المراكز القيادية في كثير من المجالات إلا من تدفع بهم وتقدمهم مراكز القوى المتصارعة .

ولقد ترتب على هذا أن كثيرا من ذوى الكفاءة السياسية العالية والإخلاص الوطني لم يتمكنوا من أخذ فرصتهم في العمل السياسي وذلك لابتعادهم عن مراكز القوى .

ولقد كان من مساوئ التعيين كطريقة للوصول إلى المراكز القيادية أن كثيرا من الموجودين في مراكز القوى كانوا يشعرون بالولاء إلى من أوجدتهم في مراكز السلطة ، ولقد استتبع ذلك عدم فاعلية المراقبة وهي العمل الأساسي للأجهزة الشعبية .

(١) وضع الزعيم جمال عبد الناصر : أن بيان ٣٠ مارس هو في الواقع من وضع ومن صنم جماهير الشعب : (البيان تركيز وخلاصة الحوار الذي دار في وطننا منذ يومى ٩ ، ١٠ يونيو إلى ٣٠ مارس . كل ما صنه البيان هو تركيز لكل ما هو إيجابي في هذا الحوار وكل ما هو مخلص وكل ما هو أصيل) .

(٢) كان هناك انتخاب في حدود بسيطة لا يحقق الأسلوب الديمقراطي الصحيح .

ولقد أدى ذلك إلى أن ارتفعت أصوات تنادى بضرورة أن يكون الانتخاب هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه المراکز القيادية داخل الاتحاد الاشتراكي .. ولقد استجاب إلى ذلك الزعيم جمال عبد الناصر في بيانه الصادر في ٣٠ مارس ١٩٦٨ والذي يعتبر وثيقة هامة في حياتنا السياسية .
ولقد كان من أهم ما جاء في بيان ٣٠ مارس في هذا الخصوص :
« إن علينا أن نعيد بناء الاتحاد الاشتراكي عن طريق الانتخاب من القاعدة إلى القمة » .

وحدثت الانتخابات من القاعدة إلى القمة للاتحاد الاشتراكي العربي ، فلقد شملت الانتخابات كافة تشكيلات الاتحاد الاشتراكي العربي المختلفة من اللجان الأساسية في القرية إلى اللجنة التنفيذية العليا . إلا أن مراكز القوى استطاعت بأنسابها الخادعة وبمناصرها المشبوهة أن تغير نتيجة الانتخابات لصالحها . .
ولقد أوضح السيد الرئيس أنور السادات هذه الحقيقة في خطابه أمام مجلس الشعب يوم ٢٠ مايو ١٩٧١ حيث قال : (لما حصلت الانتخابات من القاعدة للقمة حصل فيها أخطاء كنا عارفينها . . دونها الرئيس جمال عبد الناصر عنده وقرر أنه لا بد من تصحيحها ، بس لأن المعركة والبناء العسكري وحرب الاستنزاف داخلين عليها وكنا في ٦٩ قال بتيجي مرحلتها ، إنما لا بد من تصحيح كل هذا » .

حركة مايو ١٩٧١ وإعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي :

وبقيام حركة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١ بقيادة الرئيس أنور السادات . أمكن تصحيح مسار الثورة باستبعاد مراكز القوى وبتأكيد إسيادة القانون . وبالعامل على أن يكون للتؤسسات الدستورية والسياسية الكلمة الفصل في تقرير مجريات المجتمع ومواصلة مسيرة الثورة قدما إلى الأمام في طريق التحرر الوطني والتحول الاجتماعي .

وفي خطاب الرئيس أنور السادات أمام مجلس الشعب قرر سيادته إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي من القاعدة إلى القمة بانتخاب حر .

ولقد أعيد بناء الاتحاد الاشتراكي العربي من القاعدة إلى القمة لأول مرة في

تاريخه عن طريق انتهاك باب حجرة بيعة كل العهد عن أي تدخل من جانب السلطة وهو ما يحق لنا جميعاً على حد تعبير السيد الرئيس أنور السادات أن ننفجر به (١) إن هذا في حد ذاته خطوة بالغة الأهمية ، إذ هيأت للجماهير فرصة اختيار قيادتها بنفسها ، غير أن هذه الخطوة على أهميتها لا تكفي وحدها ضماناً لأن يكون الاتحاد الاشتراكي التنظيم الذي نريده ، التنظيم الذي يقود نضال تحالف الشعب في المعركة المصرية ضد العدو ومن أجل البناء .

إن الضمان الحقيقي هو أن يرتبط العمل السياسي ارتباطاً كاملاً بالعمل على تنفيذ الخطه والتزام كل وحدة أساسية ، وكل مستوى من مستويات التنظيم بتحقيق أهداف محددة في فترات زمنية محددة ، ويجب أن يكون هذا هو أساس تقييم الأفراد والجان والمستويات ، الأمر الذي يفتح طريقاً طبيعياً وثورياً لبروز العناصر القيادية على أساس من الاستحقاق والجدارة وثقة الجماهير . بهذا الأسلوب للعمل السياسي وبالسلوك الاشتراكي الصحيح يصبح التنظيم بحق تنظيم الجماهير الخادم لها لا المتسلط عليها .

إن العمل السياسي كما قال الرئيس أنور السادات ليس شعارات ترفع في تهنج ، وليس إصلاحات وتعبيرات تردد من ظهر قلب دون فهم أو وعى ، وليس حشداً للناس في اجتماعات يتبارى فيها الخطباء بالكلمات ثم يفض الناس فلا هم تكلموا ولا هم استمعوا إلي من تكلم .

لأن العمل السياسي عمل ، ولكل عمل برنامج ، ولكل برنامج أهداف ووسائل ، والأهداف لا بد أن تكون أهداف الجماهير ، والجماهير هم وسائل تنفيذها ، فإن لم تكلم لغتهم وإن لم تعرف أهدافهم وإن لم نحس آمالهم وآلامهم كنا كالخشب المسندة ، ولن نعرف ولن نحس إلا إذا عشنا بينهم وآمنا بقدراتهم .

أسلوب العمل السياسي للإتحاد الاشتراكي العربي :

حدد الرئيس أنور السادات الأسس التالية لتحقيق أسلوب العمل السياسي المطلوب :

(١) من برنامج العمل الوطني المقدم من السيد الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومي العام الثاني في دور إنعقاده الأول ٢٣ يوليو ١٩٧١ .

١ - الوضوح الفكري الكامل لطبيعة المرحلة التي نمر بها وما تفرض من مهام وواجبات ، وما يسودها بحكم طبيعتها من عوامل مساعدة ومضادة . وكيفية التصرف لإزاءها . حتى يكون الخط السياسي استراتيجياً وتكتيكياً ، واضحاً ووضوحاً كاملاً أمام المستويات القاعدية والقيادية على حد سواء .

٢ - إقامة البناء الداخلي للتنظيم بحيث يخدم الخط السياسي ويضمن للوحدة التنظيمية والتسلسل الطبيعي للمستويات القيادية والاتصال الدائم والفوري بين المستويات المختلفة ، وبين التنظيم والجمهور ، وتكوين مكاتب فنية متخصصة في مختلف أوجه النشاط تمتد الأجهزة السياسية بالمعلومات والدراسات اللازمة التي تعاون على اتخاذ القرارات .

٣ - سيادة مبدأ الديمقراطية في الحياة الداخلية للتنظيم السياسي ، بحيث يكون أسلوب الحياة والعلاقات داخل التنظيم هو الذي يحدد بالتبعية أسلوب تعامله وعلاقاته بالجمهور ، والديموقراطية تعنى حرية الرأي والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف وإيجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما تعنى حق النقد وممارسة النقد الذاتي ، والديموقراطية هي الضمان الوحيد ضد ظهور مراكز القوى وضد الشللية وضد الولاء لفرد أو لمجموعة من الأفراد .

٤ - وضع نظام ثوري للرقابة والمحاسبة يحدد الحقوق والواجبات لكل عضو وكل مستوى ، ويحدد طرق الثواب والجزاء ويتيح الفرص كاملة للدفاع عن النفس بحيث لا يؤخذ العضو بالشبهات والشائعات أو بمدى قربه من هذا المسئول أو بعده عن ذلك .

٥ - وضع خطة لتثقيف الأعضاء وتربيتهم سياسياً وتنظيمياً وفكرياً وخلقياً . فالأساس الفلسفي للتثقيف هو الانتماء الكامل للجمهور والتوحد معها الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا ارتبط التثقيف بالواقع وبالمشاكل البعيدة والمشاكل اليومية . وبالظروف التي يعيشها الناس ويتحركون في ظلها ويتصرفون بتأثير منها .

٦ - قيام تنظيم طليعى - كائن الميثاق - داخل الاتحاد الاشتراكي يجمع العناصر القيادية التي ظهرت أثناء العمل بين الجماهير من أجل تنفيذ مهام البرنامج في إخلاص إرتقان وإتقان الذات وتغير تطلع إلى جزاء أو جاه أو منصب ، عشق به الجماهير ، وتلف من سعته ويجب أن يكون جهازا عليا .

المهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكي العربي :

وقد حددها الرئيس أنور السادات في برنامج العمل الوطني الذي قدمه إلى المؤتمر القومي العام الثاني في دورة انعقاده الأول في ٢٣ يوليو ١٩٧١ بمهمتين محددتين هما : محو الأمية وتنظيم الأسرة لما لهما من أهمية بالغة وأثر مباشر على تطوير اقتصادنا القومي بالإضافة إلى أنهما لا يمكن أن تتولاهما أجهزة الدولة وحدها ، ولا يمكن أيضا أن تتركهما للجهود الفردية للجماهير .

وإلى جانب هاتين المهمتين حدد الرئيس أنور السادات ثلاث مهام أساسية أخرى للاتحاد الاشتراكي العربي وهذه المهام هي : -

أولا : التوعية بخصائص المرحلة الحالية.

فالمرحلة الحالية من مراحل نضالنا تتطلب من كل مواطن أن يكون على إدارته تام من هو العدو ومن هو الصديق ، هذا إلى جانب اليقظة والنضال ضد المخططات الصهيونية الإمبريالية في الخارج والقوى الداخلية المعادية للتقدم والاشتراكية وأن تقض على الفور ما تبثه من سموم بيننا وأن نحمل بحبات حيوتنا وحدتنا الوطنية .

ثانياً : التوعية بالتنمية والمشاركة فيها :

فنجاح التنمية رهن بإيمان الجماهير بها وحماسهم لها والإيمان والحماسة لا طريق لهما سوى الفهم العلى لمهام الاقتصاد ، والوعى بأعباء المرحلة. وقضايا التنمية لا بد أن تحتل مكان الصدارة من اهتمام الاتحاد الاشتراكي والحكومة على حد سواء فإذا كان التنظيم السياسي هو المدرسة النظرية التي يتعلم فيها الشعب السياسة الاشتراكية فإن القطاع العام هو الميدان الذي يضع فيه النظرية موضع التطبيق.

ثالثاً : بناء الإنسان الجديد :

إن بناء الدولة لا يمكن أن ينجح بدون الإنسان الجديد ، الأمر الذي يـ
إلى عمل تربوي مستمر من قبل الاتحاد الاشتراكي بكافة مستوياته وتنظـ
للمعاونة ، وإثنا لمهمة صعبة تتطلب عدة سنوات من العمل الجاد المتابر ، إلا
مهمة نبيلة تستحق أن تكرر لها الجهود .

إن تكوين الإنسان الجديد لا يمكن أن يتم بمجرد الوعظ والإرشاد وبـ
لإذا كان الوعظ بعيداً عما يخطبه وإثباته من خلال القدوة ومن خلال التـ
بقيمتنا الروحية النبيلة ومن خلال الصراع الدائم ضد القيم الهالكة التي فرضتها
حياتنا العلاقات الإقطاعية والبرأسمالية . ومن خلال العمل من أجل حل مشا
الجاهير والاشتراك في تنفيذ أهداف الخطة .

إن الاستعمار علماً منه بما للقيم الثورية من أثر ، يشن ضدنا وضد قيمنا -
فكرية يستخدم فيها أحدث الوسائل ، وإن علينا أن نواجه هذه الحرب .

إن تقديس العمل واحترامه لا بد أن يكون القيمة الأولى في حياتنا وليـ
لنا أسوة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول لبناته (لا يأتي النـ
بأعمالهم وتأنوني بالسابك) إن أشرف سبب لا يفض عن العمل .

إن القيمة الثانية هي حب الوطن ، بأرضه ونيله ، وبشعبه وما بناه ، بحاجـ
وماضيده ومستقبله .

إننا يجب أن نقف بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب
ضد السلبية والتلق والتشهير بالناس والإدعاء عليهم بما لم يقولوه أو يفعلوه .

إننا يجب أن نربي في أنفسنا حب الناس والثقة بهم ، والإيثار والتشدد
النفس والوقوف مع الحق . وحسن الاستماع إلى الغير ، والثقة بالنفس بغير غرور
وتحمل المسؤولية .

إن للأدب والفن ووسائل الإعلام دورها الكبير في هذه القضية ، فـ
تكوين الإنسان الجديد في مواجهة حرب الدعاية التي تشنها ضدنا قو
الأمبريالية والصهونية .

الاهتمام بالتنظيم الجماهيري للاتحاد الاشتراكي :

كما تضمن بيان الرئيس أنور السادات ضرورة إعطاء التنظيمات الجماهيرية :
التنظيم الشبابي - التنظيم النسائي - النقابات العمالية - لجان الحركة : أهمية
كبيرة في هذه التنظيمات من أهمية في تدعيم قدرة وفعالية الاتحاد
الاشتراكي العربي .

واقترح عبد السيد الرئيس أنور السادات إلى السكرتير الأول للجنة المركزية
بمهمة أساسية تستهدف د تدعيم قدرة الاتحاد الاشتراكي وزيادة فاعليته وإفتتاحه
على الجماهير ، وحدد سيادته لهذه المهمة خطوطاً أربعة رئيسية هي : (١)

- ١ - حشد طاقة كافة جماهير الشعب عن طريق وضعها في الصورة دائماً .
- ٢ - إدارة الحوار الديمقراطي بين قوى الشعب العاملة ، لكي يتحقق
مشاركتها الايجابية في النضال الشامل لامتنا .
- ٣ - فتح أبواب الاتحاد الاشتراكي ليكون مجالاً للتفاعلات الصحية بين كل
القوى الشعبية ، ولتكون كل خطوة للأمام متصلة بعملية ديمقراطية سليمة .
- ٤ - إعداد الجماهير نفسياً وفكرياً وعملياً لآعباء مسؤولياتها ، وعلى أن
يكون واضحاً أن الناس يتقبلون مسؤوليتهم إذا حملوا أمانتها وإذا أمسكوا بأيديهم
حقوقهم بما في ذلك حقهم في توجيه السلطة الوطنية التي لم تقم إلا لصدور
عن إرادتهم ؛

وقد عرض السيد الرئيس تفاصيل هذه المهمة ودواعيها على المؤتمر القومي
للعام الثاني في جلسته الافتتاحية يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ .

وقد سبق أن أوضح السكرتير الأول للجنة المركزية في البيان الذي ألقاه في
تلك الجلسة تصويره الذي استخلصه من الاستطلاع الواضح لرأي ممثلي قوى الشعب
العاملة في الاجتماعات العديدة التي عقدت داخل التنظيم وخارجه مع النقابات

(١) راجع تقرير الأمانة العامة الذي أمرته اللجنة المركزية بشأنه تطور أسلوب العمل في
الاتحاد الاشتراكي - اللجنة المركزية يوليو ١٩٧٢ .

العملية المهنية والطلبة والشباب وأساتذة ورجال الفكر والصحافة ، وجرى من خلالها حوار عميق حول التنظيم السياسي وسبل تطويره ومشكلاته بوسائل علاجها .

وانتهى من ذلك كله إلى أن الأوعية التنظيمية أصبحت تضيق - بعد مرور عشرة أعوام على قيام الاتحاد الاشتراكي ، وإزاء المتطلبات الخطيرة لمركبة التحرير - عن استيعاب وتعبئة كل القوى الجديدة والشابة والصاعدة ، فضلا عن طاقات أخرى وطنية ومناضلة ، وذلك إما لسلبات ذاتية وإما نتيجة للسببين مجتمعين ، الأمر الذي يقتضى مزيداً من الانفتاح على الجماهير وفتح أبواب التنظيم أمام قوى الشعب العاملة ليستوثق الجميع أن تنظيمهم هو أدواتهم الشرعية للتعبير عن الرأي .

كما عرض تصوره لوسائل تحقيق هذا التطوير التي تتمثل في :

- ١ - تحديد وتوضيح المنهج السياسي الفكري والتنظيمي للاتحاد الاشتراكي ودوره وتطبيق هذا المنهج على واقع الاتحاد .
- ٢ - رصد هذا في وثيقة تنظيمية تكون دليلاً سياسياً فكرياً وتنظيماً للاتحاد .
- ٣ - تعديل قانون الاتحاد الاشتراكي تمديلاً يحقق هذا التطور ، ويعبر عما انتهت إليه الدراسات والاقتراحات والتوصيات .

وانتهى من هذا التصور بأجزائه الثلاثة إلى تشكيل « لجنة عمل » ولجان تسع متفرعة عنها تضم أصحاب الرأي والخبرة من أعضاء المؤتمر القومي واللجنة المركزية والأعضاء العاملين بالاتحاد الاشتراكي العربي ، تكون مهمتها ترجمة هذا التصور ومبداغته ، بعد الدراسة والمناقشة الواسعة . إلى مجموعة اقتراحات ومشروعات محددة تطرح بعد ذلك على القواعد الجماهيرية ، ثم تعرض على اللجنة المركزية لدراستها وإقرارها .

وقد وافق المؤتمر القومي العام بجاسته المنعقدة في ١٨ فبراير سنة ١٩٧٢ على هذا التصور وعهد إلى السكرتير الأول للجنة المركزية بتشكيل هذه اللجنة .

وقد روعى في تشكيل اللجنة واللجان الفرعية أن تكون أبعاضاً مختلفاً
الاهتمامات العامة في المجتمع، فشمّل التشكيل مسؤولين متفرغين للعمل السياسي
داخل التنظيم وآخرين يتولون بجانب مسؤولياتهم في التنظيم السياسي مسؤولياتهم
في الجهازين التنفيذي والتشريعي، كما شمل عدداً من المتخصصين في مجال الاقتصاد
والفكر السياسي والقانوني والسياسة الداخلية والخارجية والدين فضلاً عن العاملين
في مجالات الفلاحين والعاملين والرأسمالية الوطنية والشباب والجامعات، وتوسيعاً
لقاعدة المناقشة والحوار، فقد شكلت لجان استشارية تمثل مختلف قوى الشعب
العامة تعاون لجنة العمل في مهمتها.

وقد أوضح السكرتير الأول للجنة المركزية للجنة العمل منذ اجتماعها الأول
أموراً ثلاثة رئيسية حددت طبيعة دورها وحدود مهمتها.

١ - أنها لجنة فنية مهمتها الإعداد والدراسة، وأن عملها سيرح على
تنظيمات الاتحاد الاشتراكي في مستوياتها ثم يرفع بعد ذلك إلى اللجنة المركزية
وبذلك تكون لجنة خبرة ومشورة تسهم بفكرها في دعم حركة التنظيم ونشاطه
وسلطته واختصاصه في مجالات عمله،

٢ - إنها أخذت بما جاء في بيان السيد رئيس الجمهورية أمام مجلس الأمة في
٢٠/٥/١٩٧١ تتحرك في إطار الأحكام والمبادئ الرئيسية لثورة ٢٣ يوليو
سنة ١٩٥٢ كما عبرت عنها الوثائق الرئيسية للثورة وهي ميثاق العمل الوطني
وبيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ وبرنامج العمل الوطني والدستور.

٣ - أن مهمتها الرئيسية هي المساهمة في إنجاز أمرين رئيسيين:

الأول: وضع تنظيم سياسي فكري وتنظيمي لأعضاء التنظيم على ضوء
الميثاق ووثائق الثورة.

الثاني: التقدم بمشروع لتعديل القانون الحالي للاتحاد الاشتراكي.

وقد وافق المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي في دورته الثانية
في المدة بين ٢٣ يوليو إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ على إحالة مشروع دليل العمل السياسي
الفكري والتنظيمي وكذا مشروع تعديل النظام الأساسي للاتحاد الاشتراكي العربي.

الذي تم إعدادهما بناء على توجيه المؤتمر القومي العام في دورته الخاصة في ١٨ فبراير ١٩٧٢ إلى تنظمات الاتحاد ومؤتمرات المحافظات على أن يكون لها بحق اقتراح التعديلات التي تراها عليهما ثم يجرى عرضهما بعد ذلك على اللجنة المركزية لإقرارهما في صورتها النهائية .

ويمكن تحديد خطوط الإصطلاح والتطوير الرئيسية التي أمكن استخلاصها من تقرير أعمال لجنة العمل واللجان الفرعية الاستشارية ولجان اللجنة المركزية في خمسة موضوعات رئيسية هي (١) :

- ١ - أهمية الوعي بطبيعة المرحلة التي يجتازها نضالنا الوطني القوي .
- ٢ - موقف التنظيم من الجماهير وموقف الجماهير منه .
- ٣ - تحديد الخط الفكري للتنظيم .
- ٤ - المبادئ التنظيمية .
- ٥ - إعادة النظر في بناء الاتحاد الاشتراكي وأساليب عمله .

أولاً: فيما يخص بأهمية الوعي بطبيعة المرحلة التي يجتازها نضالنا الوطني والقومي:

وحول هذا الموضوع ورد بالتقرير أن المرحلة الدقيقة التي تمر بها أمتنا اليوم ، تحتم إصرار الجماهير للشعب - أكثر من أي وقت مضى - على الوحدة الوطنية باعتبارها الطاقة الخلاقة التي تدفع العمل الوطني وتحركه ، وتضمن ألا يذهب سدى أو يتشتت في متاهات الصراع أو التناحر والتفرقة ، وعلى أن الترجمة الحقة لهذه الوحدة الوطنية هي الصيغة التي قام عليها تنظيمنا السياسي وحرصت عليها الجماهير ورفضت مآزرها ، وهي صيغة تحالف قوى الشعب العاملة على أن يكون تحالفاً حقيقياً وواقعياً بين القوى الاجتماعية وليس تحالفاً شكلياً بين أفراد ينحرفون بالسلطة أو يقيمون مراكز قوى تبطش بالشعب أو تتخذ من العمل السياسي وسيلة لتحقيق مآرب ومصالح ذاتية .

(١) النظر تقرير الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي الذي أقرته اللجنة المركزية بشأن تطوير

أسلوب العمل في الاتحاد الاشتراكي يوليو ١٩٧٢ .

والآن يجب إدراك الأيون العالمية داخل تحرك إيطار العمل السياسي فكراً وتنظيماً وعملاً :

الأول : تعاظم التجدي الذي يواجه الشعب العربي في مصر نتيجة لتوقيع التحالف ما بين الاستعمار والصهيونية . وهو التحالف الذي استنطاق عام ١٩٦٧ أنه يصل إلى احتلال جزء من أراضينا مما يوجب علينا أن نحول جزءاً هاماً من طاقاتنا الوطنية ومن مواردنا لتحرير الأراض وإزالة آثار العدوان .

الثاني : ضرورة استيعاب التغير المتواصل في الظروف العالمية التي تحيط بالنضال الوطني في هذه المرحلة من نضالنا الخارجي والداخلي على السواء وهو تغير يشبه الثورة في العلاقات السياسية والدولية وفي ميزان القوى والمصالح بين أطراف هذه العلاقات ، وفي العلاقات الاقتصادية وموازينها بين الدول المتقدمة والدول النامية . وفي مجال التطورات الاجتماعية والثقافية والعملية العميقة التي تشكل بعداً أساسياً بالغ التأثير في مسيرة النضال الوطني والقومي وأساليبه ووسائل حركته .

الثالث : وقفة مع النفس بعد عشرين عاماً من بدء الثورة لمراجعة أساليب العمل لمراجعة تستهدف تخليصها من الشوائب وجعلها أكثر قدرة على خدمة الأهداف الرئيسية للنضال الوطني ببعديه السياسي والاجتماعي . وعلى مستوياته الوطنية والقومية والدولية وهي الوقفة التي عبرت تعبيراً مباشراً عن نفسها بحركة التصحيح الثورية في مايو الماضي .

على أنه بالموافقة على هذه الأمور ، فإن الأمر يقتضي وضع برنامج مفصل يحدد الخطوات التي يجب اتخاذها لكي يوجه الاتحاد الاشتراكي العربي . في مسيرته بفاعلية — كل هذه الظروف على ضوء المبادئ التي قررت ثورتها ٢٣ يوليو وميثاق العمل الوطني وقررها الدستور وأقرها الشعب في الاستفتاء ، وهي تحرير الأرض والاشتراكية والوحدة العربية .

بمعنى أنه ينبغي على الاتحاد الاشتراكي العربي أن يحدد مدلول هذه المبادئ باستمرار على ضوء الظروف المتغيرة ، ثم وضع البرنامج السياسي لترسيخها ووضعها موضع التنفيذ باستمرار .

وينبغي أيضاً أن يكون هذا البرنامج بخطواته التنفيذية في متناول كل فئات الشعب على جميع المستويات الثقافية .

والهدف من كل هذا هو أن يكون الاتحاد الاشتراكي العربي هو الوجه السياسي للشعب في كل الظروف .

ثانياً : فيما يختص بموقف التنظيم من الجماهير .

وحول قضية موقف التنظيم من الجماهير وموقف الجماهير منه ، ذكر التقرير أن هذه القضية تلتخص في أن الجماهير لأسباب عديدة لا تحس إحساساً كافياً بأن لها دوراً فعالاً في الحياة العامة تستطيع أن تمارسه من خلال التنظيم ، وقد كشفت الدراسات حول هذه القضية من أن الإصلاح لا بد أن يسير — في وقت واحد — في خطوط ثلاثة رئيسية :

الخط الأول : نقل مراكز الثقل الجماهيري الحقيقية من خارج التنظيم إلى داخله ، عن طريق الربط بين التنظيم والمؤسسات الشعبية والنقابات والاتحادات العمالية والمهنية والشبابية والطلابية .

وقد طرحت لتحقيق هذا الربط فكرتان :

الأولى — تهدف إلى الربط العضوي بين هذه النقابات وبين اللجنة المركزية بأن تنتخب النقابات والاتحادات أعضاء يمثلونها في اللجنة المركزية .

الثانية — وتهدف إلى تكوين د لجان رأى متخصصة ، تنبع من قطاعات الإبداع المادي والفكري في الحياة اليومية ، تكون بمثابة نوافذ مفتوحة للتنظيم على مختلف الأنشطة الجماهيرية واتجاهاتها ، وصور القاء وتفاعل بينها وبين المؤسسات النقابية والمهنية ذات التأثير في مجالاتها ، ويمكن أن تتكون لجان الرأي هذه ، في مجالات التعاونيات الزراعية والنقابات ، واتحادات الكتاب والأدباء والفنانين واتحادات جمعيات العلماء ، واتحادات الطلبة والجمعيات النسائية والغرف التجارية والصناعية .

وينعقد كل ستة شهور مؤتمر لكل لجان الرأي برئاسة السكرتير الأول للجنة

المركزية لتبادل الرأي في الأمور ، تأكيداً لوضوح الرؤية السياسية لدى كافة الأطراف .

وأخيراً فإن الاتحاد الاشتراكي باعتباره تنظيمياً سياسياً فإنه لا يتدخل في إدارة شئون تلك النقابات والمؤسسات ، وإن كان يحرص على سلامة السلوك ووضوح الرؤية .

الخط الثاني : وضع صيغة مناسبة للممارسة الديمقراطية داخل التنظيم ، عن طريق الانفتاح للأفكار والمصالح المختلفة لتعبر عن نفسها داخل إطاره ، ولتأمين هذا التعبير وضمان استمراره .. وذلك بتدعيم المناخ العام للحرية وسيادة القانون في الحياة السياسية كلها ، وداخل التنظيم بصفة خاصة .

كذلك يتحقق الانفتاح على الجماهير بالحرص على عقد مؤتمرات التنظيم على مستوى المحافظات والمراكز والأقسام والوحدات الأساسية في مواعيد منتظمة وبجدول محددة ، وبحيث ينتهي عملها بإصدار توصيات وقرارات محددة ، وبهذا تتاح لقاعدة عريضة من الجماهير فرصة التعبير المنظم والمشاركة المستمرة في القضايا العامة واليومية .

الخط الثالث : تحديد العلاقة بين التنظيم السياسي ووسائل الإعلام المختلفة وعلى رأس تلك الوسائل الصحافة والإذاعة والتلفزيون ، هذه الوسائل هي أداة التعبير عن الخط السياسي والفكر الاشتراكي ، وهي أداة توعية جماهير الشعب العاملة وتعبئتها . وتحديد العلاقة المذكورة تحديداً حاسماً أو تهيئة الوسيلة لذلك إنما يضمن سير الأمور في الطريق المرسوم وعلى ألا يحد ذلك من حرية وسائل الإعلام في التعبير وفي المناقشة المشروعة فيما بينها .

الخط الرابع : ضبط علاقة الاتحاد الاشتراكي بسائر الأجهزة في الدولة ، وخصوصاً السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية ، بحيث يؤدي هذا الضبط في النهاية إلى تأكيد سلطة الجماهير بما يكفل للشعب السيادة التي قررها الدستور .

وفي مقام هذا الضبط أقترح :

١ - اتباع التقليد الذي أرساه السيد رئيس الجمهورية بتسمية رئيس

الوزراء في اللجنة المركزية قبل تعيينه .

٢ — أن تختص اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي بمناقشة الخطوط الأساسية للخطة القومية للتنمية ، والخطوط العامة للسياسة الداخلية والخارجية ، على ضوء المبادئ الواردة في وثائق الثورة .

٣ — إيجاد نوع من الربط بين مستويات التنظيم المختلفة والمستويات المقابلة لها في الجهاز التنفيذي ، وذلك ابتداء من الوحدة الأساسية .

و تحقيقاً لذلك اقترح تشكيل لجنة بالقرية تسمى « لجنة العمل الوطني » تتكون من الأعضاء العشرة للجنة الوحدة الأساسية ، وينضم إليهم ممثل عن الجمعية التعاونية الزراعية ويمثل عن مجلس القرية ، وناظر المدرسة وطبيب الوحدة الصحية ورئيس اللجنة النقابية وخطيب المسجد والمشرف الزراعي ويمثل عن الشباب وآخر عن المرأة ، على أن يكون رئيسها هو أمين لجنة الاتحاد الاشتراكي المنتخب بالقرية ولا يكون لممثل الجهاز التنفيذي حق التصويت على القرارات في هذه اللجنة .

ويجري على المستويات الأعلى ربط مماثل بين لجان الاتحاد الاشتراكي والأجهزة التنفيذية لاقتراح السبب الحلول .

٤ — وفي مجال الصلة بالسلطة التشريعية : فإن مجلس الشعب هو مرآة الديمقراطية التي تمارسها جماهير الشعب ومناقشته العلنية المفتوحة تثرى العمل السياسي الذي يقوده الاتحاد الاشتراكي وتدعم حركته .

ومن ثم فإنه ينبغي دعم الدور الذي كفله الدستور لمجلس الشعب ، على أن يكون دور الاتحاد الاشتراكي هو التوجيه إلى الخطوط السياسية الرئيسية في إطار الالتزام بوثائق الثورة .

ويتحقق ذلك عن طريق الهيئة البرلمانية التي ينبغي دعمها بضم الأمانة العامة وأمناء المحافظات إليها . كما ينبغي أن يوفر لأعضائها مقر في الاتحاد الاشتراكي وأن تتوثق الصلة بينهم وبين الأمين الأول وأعضاء الأمانة العامة ، وأن يزودوا بكافة الوثائق والبيانات التي توزع على أعضاء اللجنة المركزية وأمناء الاتحاد الاشتراكي بالمحافظات .

كما يكون من اختصاص الهيئة البرلمانية مناقشة المسائل الهامة المتصلة بالتشريع ، والتداول في المسائل التي تهم أعضاء مجلس الشعب كالتنخاب رئيس المجلس ووكيلين ورؤساء اللجان وغير ذلك من الموضوعات ذات الأهمية ، وينبغي إنشاء مكتب للهيئة البرلمانية ولشؤون المجالس الشعبية يتبع الأمين الأول .

ومن ناحية أخرى يلزم تدعيم التعاون والإرتباط التنظيمي بين المجموعات الإقليمية وأمناء المحافظات في ضوء مسئولية أمناء المحافظات عن قيادة العمل السياسي في محافظتهم ومشاركة عضو مجلس الشعب في العمل السياسي على مستوى المحافظة ،

ثالثاً - فيما يختص بتحديد الخط الفكري للتنظيم :

وبحول تحديد الخط الفكري للتنظيم ذكر التقرير :

أن وثائق الثورة قد حددت بشكل واضح أن الحرية والاشتراكية والوحدة هي المبادئ التي تشكل فكر الثورة والتزامها وحركتها ، ومع أن هذه المبادئ واضحة في ضمير شعبنا ولها جذورها الأصيلة من فكره الذاتي وخصائصه المتميزة إلا أن الممارسة اليومية للعمل السياسي عبر فترة طويلة قد كشفت عن بعض المحاولات لتفسير هذه المبادئ تفسيرات لا تلتزم الواقع المصري والعربي الأصيل وإنما تحاول الاستناد في مضمونها إلى عقائديات ومذاهبات وافدة ومطروحة على الساحة العالمية ربما كانت صالحة في بعض المجتمعات ولكنها عندنا لا تتلاقى مع المقومات الذاتية لشعبنا وبالتالي فإن استيراد مضامين من هذا النوع لا تكون عامل توضيح وتحديد لرؤيتنا ولخطتنا ونقل هذه المضامين عن الخارج يؤدي إلى التشتيت أو إضعاف الحركة أو في النهاية يؤدي إلى لبس بين الهدف والفكر .

كذلك فإن التحديد القاطع لما تضمنته وثائق الثورة حول قضايا الفكر الأساسية يحسم كثيراً من التفرعات النظرية أو الجدلية ويكثف جهد الجماهير على

طريق العمل الذي يجب أن ينطلق إليه ويقوده أعضاء التنظيم .
إن مثل هذا التحديد — كما دلت التجربة — شرط أساسي لقوة الحركة
وإندفاعها ولحماس أعضاء التنظيم وارتباطهم به ، ومن هنا كان من الضروري أن
يعرض دليل العمل السياسي لهذا الإطار الفكري ، إلى جوار ما يتعرض له من
قواعد العمل التنظيمي وأساليبه .

وفي سبيل ذلك عهدت اللجنة إلى بعض أعضائها بمهمة إعداد مشروع لدليل
العمل السياسي الفكري التنظيمي ، ومشروع للنظام الأساسي وهو التعبير الذي
أطلقه الدستور على قانون الاتحاد الاشتراكي ، كما عهدت إليهم إعداد بيان
بالتوازن المنفذة للدستور في مجال حماية الحقوق والحريات .

رابعاً : فيما يختص بالمبادئ التنظيمية :

وعن المبادئ الأساسية ، أشار التقرير إلى أن التنظيم السياسي في حاجة ماسة
إلى استقرار عدد من مبادئ الحركة التنظيمية داخل مستوياته المختلفة ، ذلك
لأن الاتحاد الاشتراكي كتشريع سياسي لتعاضد قوى الشعب العاملة ، يحتاج إلى
القدر الضروري من الانضباط التنظيمي ودقة الحركة الداخلية ، حتى يستطيع
أن يؤدي دوره السياسي في استيعاب حركة الجماهير وتنظيم تعبيرها عن آرائها ،
ومن هنا كان من الضروري أن يقدم دليل العمل لأعضاء التنظيم تحديداً واضحاً
لأهم أصول العمل التنظيمي ومبادئه ، يرجعون إليه في ممارستهم اليومية ، على أن
تتلقى قيادات التنظيم ، في المستويات المختلفة بعد ذلك ، قدرأ أكبر من التعرف
الدقيق على هذه الأصول والمبادئ ، عن طريق دراسات ودورات تدريبية
أكثر عمقاً

خامساً : فيما يختص بإعادة بناء التنظيم :

وفي مجال إعادة النظر في بناء الاتحاد الاشتراكي وثأسيالين عمله تحددت
عدة خطوات رئيسية هي :

١ - صيغة التحالف :

أجمعت الآراء على أهمية الحفاظ الكامل على صيغة التحالف باعتبارها السبب الصيغ للعمل السياسي التنظيمي ، وذلك انطلاقاً من معنى الوحدة الوطنية التي لا يجوز النيل منها أو المساس بها خلال المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو ، وتأكيذاً لمبدأ إمكان حل التناقضات بين قوى الشعب العاملة سلبياً داخل إطار التنظيم السياسي - بالوسائل السلمية الديمقراطية .

٢ - حق العضوية :

اتفقت الآراء بشأن عضوية الاتحاد الاشتراكي والحقوق المترتبة عليها بومنها وسحبها ، على مبدأين أساسيين :

٣ - أن تكون العضوية اختيارية ... بحيث لا ينضم للتنظيم إلا الراغبون حقيقة في المشاركة السياسية الإيجابية ، فلا يرغم أحد على عضويته في الاتحاد دون اقتناع أو مجرد الحصول على منصب في إحدى المنظمات الجماهيرية .

(ب) توفير الضمانات الكافية لمنح العضوية وسحبها ، وأن تكون تلك الضمانات سياسية وعامة ، فلا يتوقف منح العضوية أو سحبها على رأي فرد أو أفراد داخل التنظيم أو في قياداته .

٣ - الوحدة الأساسية :

اتفق على أهمية تدعيم وتنشيط الوحدة الأساسية للتنظيم باعتبارها القاعدة الرئيسية والحركة التي تربط بين قيادة التنظيم والجماهير واتفق على أهمية التدعيم المادي والفني للوحدة الأساسية وتدريب الأعضاء ثقافياً وتنظيمياً وتفرغ بعضهم للعمل السياسي .

٤ - اللوائح الداخلية :

رؤى وضع نظام عمل ثابت لمستويات التنظيم المختلفة وبخصوصاً في المستويات العليا - المؤتمر القومي واللجنة المركزية - بأن يكون لكل منهما لائحة عمل داخلية تنظم أسلوب عملها وما يقتضيه العمل من تشكيل لجان دائمة أو فرعية

ووسائل الاتصال بالأجهزة المختلفة في الدولة .

٥ - الكفاءة الفنية :

اتفق على أهمية رفع الكفاءة الفنية للتنظيم عن طريق تزويده بعنصر الخبرة الضرورى ، خصوصاً في مستوياته العليا والمركزية ، بتدعيم الأجهزة الإدارية والمماونة بالمتخصصين في الشؤون الفكرية والتنظيمية والسياسية ، إيماناً بأن قدرة التنظيم على التعبير عن آراء الجماهير وتوجيه دفة الحكم كله في اتجاه مصالح تلك الجماهير رهن بتوافر الرؤية العملية الدقيقة داخل التنظيم لسكل ملبسات العمل للظروف الموضوعية المتغيرة التي تحيط بحركة الجماهير في نضالها اليومى .

٦ - تكوين مؤتمر الأمانة (أو مؤتمر الكوادر)

في مجال ضمان انفتاح التنظيم المتجدد والمستمر على حركة الجماهير ، قدمت عدة اقتراحات بإنشاء أوعية تنظيمية جديدة تكفل هذا الانفتاح وتحقيق أهمها اقتراح بعقد مؤتمر دورى بكل ثلاثة أشهر لضم أمانة المحافظات والمراكز والبنادر يرأسه السكرتير الأول للجنة المركزية ويحضره أعضاء الأمانة العامة ، لمناقشة المشاكل والقضايا العملية للنشاط السياسى التي يواجهها التنظيم في المواقع المختلفة ، ولتبادل الخبرات بالنسبة لاحتياجات ومطالب الجماهير .

٧ - الشؤون السياسية :

نظراً للأهمية الخاصة لأمانة الشؤون السياسية ، فإن زيادة قدرتها في المجالين الداخلى والخارجى تعتبر مدخلاً أساسياً لرفع كفاءة التنظيم السياسى كله ، وذلك بإعادة تكوين مكاتبها وشعبها المختلفة وفي هذا المجال اقترح أن تشكل الأمانة من أربعة مكاتب أساسية :

(أ) مكتب الشؤون الداخلية : ويضم شعبتين ، تختص الأولى بإعداد الخطوط السياسية التي يجب أن تتخذ من قيادة الاتحاد الاشتراكى وتختص الثانية بمتابعة قرارات المؤتمر القومى .

(ب) مكتب العلاقات الخارجية : ويختص بمتابعة تطورات ومواقف واتجاهات المنظمات السياسية في بلاد العالم ، وتوضيح الخط السياسى للاتحاد الاشتراكى لهذه المنظمات السياسية .

وينقسم هذا المكتب إلى أربع شعب [شعبة للدول العربية . شعبة للدول الاشتراكية - وشعبة لدول غرب أوروبا وأمريكا واليابان - وشعبة لدول العالم الثالث] .

(ج) مكتب الخبراء المركزي: ويقوم بإعداد الدراسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي يتطلبها العمل السياسي ويتكون من ثلاث شعب : [شعبة لمتابعة الأحداث السياسية اليومية . وشعبة لقياس الرأي العام واتجاهاته وشعبة للنشرات المركزية] .

(د) مكتب الاتصال: وتكون مهمته الاتصال بالامانات النوعية واللجان الرئيسية للجنة المركزية ، وكذلك بالمستويات التنظيمية المختلفة وتشكل أمانة الشؤون السياسية مجلساً مشتركاً لهذه المكاتب من المسؤولين عنها .

٨ - نشاط التنظيم في الخارج :

اتفق على أهمية توسيع نطاق علاقة الاتحاد الاشتراكي بالتنظيمات والقوى السياسية في الخارج ، وعدم قصر هذه العلاقات على منطقة دون منطقة أخرى في العالم العربي الاسلامي ، وبلدان العالم الاشتراكي ، وأحزاب المنسكرك الغربي وأحزاب العالم الثالث .

وأستقر الرأي على ضرورة إنشاء لجنة خاصة تعنى بقطاع المغتربين من الشعب المصري المنتشرين ما بين أقصى غرب الولايات المتحدة إلى أقصى الشرق في جزر المحيط الهادي .

٩ - التنظيم الشبابي :

اتفقت الآراء على أهمية وجود تنظيم قوى للشباب ، وأهمية تحقيق التوازن بين ضرورة إرتباط هذا التنظيم بالتنظيم الأم ، وضرورة تمتعه بقدر من الاستقلال وحرية الحركة وطرحته لذلك فكرتان مختلفتان :

الأولى : تقضى بإقامة تنظيم شبابي متكامل المستويات ابتداء من الوحدة الأساسية إلى اللجنة المركزية ، على أن يكون إرتباطه بالتنظيم الأم من خلال وجود ممثلين له في اللجنة المركزية .

والثانية : تقضى بعدم تشكيل لجنة مركزية للشباب ، اكتفاء بتمثيل عدد من قياداته في اللجنة المركزية للتنظيم الأم .

واتفقت الآراء على ضرورة تجنب الازدواج في تحديد الهيئات المشرفة على الشباب ، وأهمية التنسيق الكامل بين منظمة الشباب والأجهزة التنفيذية المختلفة التي يتصل لشاؤها ببعض قطاعات الشباب .

١٠ - التنظيم النسائي :

وفيما يتعلق بالتنظيم النسائي فقد اتفق على ما يأتي :

- (أ) تأييد قيلم التنظيم النسائي والعمل على دعمه واستمرار نموه .
- (ب) وجوب توفير إمكانية الحركة الذاتية للتنظيم النسائي على أن يعمل في تآزر وترايط وتعاون مع التنظيم السياسي الأم .
- (ج) أن يكون للتنظيم النسائي قياداته المعبرة عن فروع القطاع النسائي المختلفة .
- (د) العمل على تمثيل العنصر النسائي في الشعب والمسكاتب المنبثقة عن الأمانات الفرعية المختلفة .

الباب الرابع

حماية الوحدة الوطنية المصرية

في هذه المرحلة التي يثبت فيها الشعب المصري أصالته وصوره ضد الاستعمار والعدو الصهيوني وعملائه ... تحاول أجهزة الحرب النفسية المعادية تركيز هجماتها ضد وحدتنا الوطنية .. مستخدمة سلاحيين خطيرين هما : إثارة الفتنة الطائفية بين المصريين من المسلمين والمسيحيين ، وحرب الإشاعات . بهدف تفكيك الشعب المصري إلى شيع متحفزة يشغلها التناحر الداخلي عن معركة التحرير الوطني ، ولاظهار المصريين أمام الرأي العام العالمي في صورة الأمة المتخلفة

ولكن الشعب المصري كان على وعى كامل وإدراك تام بحقيقة هذه المحاولات وسرعان ما التفت الجماهير حول بعضها ممثلة في ممثليها أعضاء المؤتمر القومي وزعماء الطوائف وقادة الرأي ، تؤكد على ضرورة الوحدة كأساس لدعم الجبهة الداخلية في مواجهة التحديات ، فشعبنا يؤمن دائماً بأن سلامة الوحدة الوطنية أمانة في عنق كل مصري وكل مصرية ، وأن مصر وشعبها لم ينجز مجدداً إلا في إطار الوحدة الوطنية .

وهكذا باءت محاولات أعدائنا للنيل من وحدتنا الوطنية ، فكما قال الرئيس أنور السادات « إن أرض هذا الوطن واحدة وأن سماءه واحدة وأن شعبه واحد ، فالوحدة الوطنية حقيقة قائمة ومستمرة .

وجدير بالذكر أن أى ادعاء يشكك في الوحدة الوطنية المقدسة من شأنه أن يضعف الوحدة الوطنية ذاتها ويهدد قدرة الشعب على خوض المعارك المرتقبة تحريراً للأرض ودفاعاً عن الحريه وتأميناً للتقدم ،

ولذلك فإن حماية الوحدة الوطنية والحفاظ عليها .. وصيانتها من حملات التشكيك والتضليل والدعايات الكاذبة يعتبر أمراً ضرورياً تحتمه طبيعة معركتنا ضد العدو الصهيوني ومن يسائده خاصة وأنه بفضل الوحدة الوطنية يمكن الحفاظ

على المنجزات الثورية وتحقيق المزيد منها ، بالإضافة إلى أنها تكفل حشد القوى الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو .

ولهذه الأسباب جعل الرئيس أنور السادات موضوع الوحدة الوطنية الهدف الرئيسي لل مؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي الذي عقد أخيراً في الفترة من ٢٤ يوليو إلى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٢ ، ومن أجل صيانة الوحدة الوطنية ، دعا سيادته مجلس الشعب لدورة طارئة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ . لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية .

الفصل الأول

الحرب النفسية

ودورها في زعزعة الوحدة الوطنية

تمارس الحرب النفسية ضد المدنيين والعسكريين في أوقات السلم والحرب على السواء ، ولكنها تصبح أشد نشاطاً وأقوى خطراً قبيل الحروب وأثناءها .

ولقد حظيت الحرب النفسية في السنوات الأخيرة بأهمية بالغة وبتزايد من جانب الدول الكبرى وخاصة بين معسكرات الرأسمالية والاشتراكية في العالم ، فالحرب النفسية لم تعد مجرد حرب شكلية على هامش الحياة ، بل هي في الحقيقة والواقع صارت حرب حياة أو موت (١) وخاصة بعد أن أصبحت شعوب العالم ، تنظر إلى الحرب الذموية سواء كانت بأسلحة تقليدية أو غير تقليدية على أنها أكبر حماقة ترتكب ونوعاً من الجنون لا يغفر ، وأنه من العبث أن يرمى الإنسان بنفسه ودينياه إلى الدمار والفناء بيديه لقاء فكرة عارضة ، أو اختلاف على مساحة من الأرض ، أو تشاحن على نصيب من الثروة ، أو تشبث بنفوذ واستعلاء .

أهمية الحرب النفسية في العصر الحالي :

إن دور أهمية الحرب النفسية قد زادت بسبب التغيرات الكبيرة التي طرأت على المعدات والأسلحة والفن القتالي ، فقد وضعت الأنواع الجديدة من الأسلحة اعتبارات ومبادئ جديدة لسلوك ونفسيه المقاتل في الظروف القتالية ، ولقد أكد كثير من علماء النفس الحربيين في الغرب فكرة مؤداها أن الوحدات القتالية تحت تأثير الصدمة ستصبح عاجزة ليس بسبب الخسائر الفادحة في الأرواح.

(١) المجلة العسكرية للمواد المساعده العدد ١٤٩ مارس ١٩٧٠

والمعدات وإنما بسبب تأثير الصدمة النفسية وعندئذ يفقد الجنود تحت تأثير
الفرع القدرة على التفكير والتصرف الذاق فيتجاهلون مطلقاً أوامر القادة
وبالتالى لن ينفذوها .

وعلى ذلك فإن معظم النجاح فى الأعمال الحربية يعتمد اعتماداً أساسياً على
العوامل النفسية ، فقد يصيب الموت غالبية جنود العدو ، وقد يحل الدمار
بممتلكاته وموارده ، ومع ذلك فإننا نرى البقية الباقية من قواته العسكرية وأفراده
المدنيين يستميتون فى الدفاع والمقاومة ، ويأبون الخضوع أو الاستسلام ، لأنهم
يعلمون أن الغاية التى يسعى إليها العدو ، هى إخضاع قواتهم العسكرية . وأفراد
الشعب المدنيين ، لإرادته وسلطانه لاستغلال مواردهم وجهودهم لصلحته الخاصة .
فالقوات الروسية التى دافعت عن استالنجراد ، وقاومت الهجوم الألمانى
الوحشى ، ووقفت فى وجه معدات التدمير الألمانية ، من مدافع حصار ، وقذائف
طائرات لمدة ثلاثة أشهر ، لم ترضخ أو تستسلم ، بل قاومت إلى أن تحقق لها النصر
على القوات الألمانية ، فى الوقت الذى تمكنت فيه هذه القوات من التغلب على مدن
روسية أخرى أكثر عدة وعدداً ومناعة وتحصينا ، بجميع قذائف الطائرات
وغيران المدفعية ، والهجمات المتوالية التى وجهت إلى استالنجراد ، فشلت ولم تحقق
هدفها لأنها لم تحطم روح القتال والثقة بالنصر لدى المدافعين (١) .

ونفس الشيء عندما وقع عدوان ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، حيث فوجئت
جماهير شعبنا بلطمة الهزيمة السريعة ، ولكن سرعان ما استعادت توازنها مدركة
بوعيا وأصالتها أن العدو لن يستطيع بحال من الأحوال أن يخضع إرادته .

فكانت الوقفة التاريخية لجماهير شعبنا العاملة فى ٩ ، ١٠ يونيو التى فرضت
بها إرادتنا بشكل قاطع بالنسبة لسكل القضايا التى تتعلق بكيانها ومستقبلها :

— إصرار على الصمود ورفض الهزيمة .

— إصرار على الاستمرار فى المعركة حتى النصر .

(١) علم النفس الفكري وفن القيادة . القاهرة ١٩٤٩ ص ١٥١ .

— استمرار على الإنسان بالثورة وبقيادتها من أجل استمرار التحول
الاشتراكي نحو مجتمع أكثر تقدما :

مفهوم الحرب النفسية :

ووضعت عدة تعريفات لمفهوم الحرب النفسية لا يخرج عن كونها : الحرب
التي تعتمد على نقل أفكار ومعلومات معينة إلى العدو من شأنها أن تضعف روحه
المعنوية وتهبط إصراره على مواصلة القتال وتجعله يعتقد أن من الأفضل أن ينهي
الحرب على أية صورة .

فالحرب النفسية إذن هي حرب تستهدف الروح والعقل ، وسلاحها الفكر .
توجه إلى المواطنين والحلفاء من جهة وإلى الأعداء وشبه الأعداء المحايدون من
جهة أخرى ، وميادينها ليست أرض المعارك والمحارين لحسب وإنما يتعدى أمرها
إلى شعوب هؤلاء المحارين وشعوب غير المحارين ، ولا تحكمها قوانين أو عادات
أو تقاليد أو عرف .

وتستعمل الحرب النفسية في تأثيرها المستمر على العدو كل وسائل الاتصال
بوالإعلام لإشاعه القلق والاضطرابات في صفوفه وإضعاف تماسكه ، وتعطيل
روحه المعنوية .

ويعني المفهوم العسكري للحرب النفسية أننا نتجه مباشرة إلى معنويات العدو ،
أى إلى إرادته وعزمه على مواصلة القتال ، فإذا استطعنا أن نهبط بمعنوياته
من أن نغلب إرادتنا عليه بعد أن نضعف إرادته وعزمه على مواصلة القتال ..
ولهذا تعتبر الحرب النفسية جزءا مكملا للعمليات الحربية (١) :

وتدار عمليات الحرب النفسية في تنسيق محكم مع الخطط العسكرية الموضوعية
في مختلف مستويات القيادة . (٢)

نظرية الحرب النفسية :

تقوم نظرية الحرب النفسية على أن الإنسان هو محور المعركة أو القتال وأن
الأسلحة والمعدات سواء كانت برية أو جوية هي وسائله المعاونة على التفوق أو النصر .

(١) راجع بلوذن السكبرون وليو. وستمان انيكلوجيا الاشاعة ترجمة صلاح مخيمر ومراجعة
صيد مرسي ص ٤ .

(٢) راجع اللواء عبد الرحيم عجاج : دور الحرب النفسية في المعركة - ص ١٥ .

فلا قيمة للتفوق المادى منها كانت أشكاله ودرجاته إذا لم يصاحبه تفوق معنوى .
وعلى قدر ما يتمتع الفرد أو للعنصر البشرى بمقدرة ذهنية وحسية تتوقف
تنتائج الصراع الذى يخوضه بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة .

وحين نقول الفرد ، فلا ينبغى أن تنصرف الأذهان تلقائيا إلى المقاتل
سوى المعركة لحسب ، سواء كان جندياً أم قائداً ، وإنما كل فرد فى المجهود الحربى
سواء كان مزارعاً أم عالماً أم مفكراً أم طبيبياً وما إليهم من أبناء الشعب المحارب
بأسره من رجال ونساء .

وميزة الحرب النفسىة أنها أقوى مفعولاً وأسرع تأثيراً من الحرب الدموية
وأيسر استخداماً ، وفوق كل هذا أنها لا تكبد مثلاً تكبد الحرب الدموية من
جهود طائلة ونفقات باهظة وخسائر فادحة فى كيان الدول وحضارتها .

أهداف الحرب النفسىة :

١ - التأثير على الكفاءة القتالية للعدو باستغلال أوجه الضعف السياسية
والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية الموجودة لديه . هذا بالإضافة إلى بث اليأس
من النصر فى نفوس القوات المحاربة .

٢ - التأثير على الآراء والانفعالات والاتجاهات والسلوك بالنسبة للعدو
وما يساعد على هزيمته فى المستقبل .

٣ - وتسعى عمليات الحرب النفسىة إلى التحكم فى معتقدات وأفعال العدو
باستخدام وسائل الاتصال المختلفة لكى :

- (أ) تعرض على التمارض والهروب والقتلة والتسليم بين وحدات العدو .
- (ب) فقد ثقة العدو فى قادته وتسليحه ومعداته .
- (جـ) تثير الشك حول أحقية أهداف حرب العدو .
- (د) تزعزع إيمان العدو فى النصر النهائى .
- (هـ) تنمى المقاومة لمذاهب وعقائد حكومة العدو ،
- (و) تزعزع الثقة بين حكومة العدو وشعبه .

ز) تخلق الالتفات في جماعات وظوائف معينة بين شعب العدو .

ح) تشجع الحركات المقاومة داخل مناطق العدو .

ط) يمنع تعاون الجماعات الأجنبية مع العدو في المناطق التي تحتلها قواته .

س) تعمل على توطيد أواصر الصداقة والتعاون بين المتحالفين .

ك) تحول دون مساعدة الجماعات المحايدة للعدو اقتصادياً وسياسياً .

وسائل الحرب النفسية :

ومن وسائل الحرب النفسية (١) :

١ - حرب الدعاية

٢ - حرب الاشاعة .

٣ - الحرب الاقتصادية .

٤ - القتال الفعلي .

أهداف إسرائيل في حربها النفسية ضد جمهورية مصر العربية :

أشار السيد الرئيس محمد أنور السادات في خطابه أمام مجلس الشعب يوم ١٩٧٢/١٢/٢٩ أن حرب العدو النفسية علينا لم تهدأ لحظة لأن العدو كان يعرف أن النصر والهزيمة يبدآن من داخل أي مجتمع .

ويمكن حصر أهداف إسرائيل في حربها النفسية ضد جمهورية مصر العربية فيما يلي :

١ - التشكيك في القيادة السياسية وقدرتها على قيادة الشعب المصري .

٢ - التشكيك في الوحدة الاندماجية بين مصر وإنديا وعلم قدرتها على الاستمرار ، كذا التشكيك في الدعوة لقومية الحركة .

(١) راجع السيد جمال السيد - أضواء على الحرب النفسية : المكتبة الثقافية العدد (٢٨٤) ص ١٠٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٢ .

٣ - إيهامنا - وهو أخطر النقط - بأننا كشعب عاجز عن تحقيق الكفاءة القتالية المطلوبة - وغير قادر على استعادة أرضنا المقدسة .

٤ - العمل على فقد الثقة بين القوات المسلحة والشعب وزعزعة التلاحم الموجود بين الشعب وقواته المسلحة .

• العمل على فقد الثقة بين القوات المسلحة وقيادتها السياسية .

٦ - التشكيك بالوحدة الوطنية بين المسلمين في هذا الوطن وبين الأقباط فيه .

مظاهر الحرب النفسية التي نتعرض لها حاليا من جانب الاستعمار وإسرائيل:

نظراً لما يتصف به الشعب المصري من تماسك وحرص على وحدته الوطنية ، كانت مدعاة للتعبير عن أقوى دعامه قام عليها اتحاد أبناء مصر على اختلاف دياناتهم في الشدة والرغاء والحرب ، واستطاع بها صيانة أعظم حضارة عرفتها الانسانية في كل تاريخها الطويل ، وحقق بها شعبنا إنجازات ضخمة في كل نواحي الحضارة والرقى ، وكافة فروع المعرفة الإنسانية الظاهرة والخفية . فلقد ركز الاستعمار والصهيونية كافة وسائل وأساليب الحرب النفسية لمحاولة النيل من هذه الوحدة الوطنية التي تعبر عن تماسك الجبهة الداخلية .

وقد ركز الاستعمار والصهيونية على أسلوبين خطرين هما :

حرب الاشاعات ، وإثارة الفتنة بين الأقباط والمسلمين ، وكانت نتيجة ذلك أن تعرضنا أو أوشكنا أن نتعرض لعدد من المخاطر من ذلك (١) :

٦ - مخاطر تهدد وحدة قوى الشعب العاملة بهدف إذكاء حدة الصراع بين قوى التحالف بدلا من تهدئتها كإثارة المنازعات بين الرأسمالية الوطنية مثلا وبين العمال والمثقفين .

٣ - مخاطر تريد أن تصرفنا عن النضال المشترك ضد العدو بأذكار خلافات

(١) راجع لما جاء بمقال الدكتور جمال العطيف بجريدة الأهرام بتاريخ ٢١/٨/١٩٧٤ .

أيديولوجية ، فمثلا قد يثار أن كثيرين ممن ييلشهورون عملهم السياسي اليوم تحت راية الاتحاد الاشتراكي كانوا ينتمون قبل عام ١٩٥٢ إلى أحزاب وتنظيمات قديمة حلت وانتهى أمرها أو استنفذت غرضها ، بل إن بعضهم كان ينتمي إلى تنظيمات كانت تباشر نشاطها خفية قبل عام ١٩٦١ .. وحلت نفسها أو انتهت نشاطها سواء ما كان منها تنظيميا في أقصى اليسار أو تنظيميا في أقصى اليمين .

٣ - مخاطر كادت أن تهدد المجتمع نتيجة ممارسة الديمقراطية الحقيقية، وفتح باب المناقشات خاصة أمام الشباب في جميع المجالات من قضايا التنمية إلى قضايا المعركة وما قد ينجم من آثار تصرف البعض عن المعركة نتيجة هذا الانفتاح ، وما يترتب على ذلك من نتائج .. خاصة وقد استغل أعداء المجتمع هذا الانفتاح ذخيرة يمكن أن تنفعهم في الحرب النفسية كاستغلال فتنة ضائلة من الطلبة ذوي المول الهدامة ودعوتهم للتظاهر والاعتصام والانتقال بنشاطهم إلى خارج الجامعات بقصد إثارة فتات الشعب المختلفة مثلا حدث يومى ١ ، ٢ يناير سنة ١٩٧٣ .

٤ - مخاطر تهدد وحدة الشعب بإثارة نعرات طائفية واختلاق أسباب لإثارة الحقد بين الطوائف ، وبماذا نفسر مثلا أن تقريرا أعد في عام ١٩٧٠ عن حالة فردية جرت في مدينة الإسكندرية ، وبعاد طبعه في عام ١٩٧٢ في نشرات توزع بالبريد لإثارة مشكلة غير قائمة ؟ وإذا بنا بين يوم وليلة نكاد نفقد رؤوسنا .. ونوشك أن نتعرض لفتنة كان من الممكن أن يستفحل أمرها ، مثل الأحداث المؤسفة التي وقعت في الخانكة في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ والتي عبر عنها الأمين الأول للجنة المركزية بأنها دلائل عن وجود الحزازات والأحقاد بين المسلم والمسيحي ، بل إنها فقط تكشف عن وجود عناصر ليست على مستوى المسؤولية القومية، وغير واعية للهدف الوطني الاسمي . عناصر أساءت التصرف على أساس أوهام قامت في أذهانها أو لأسباب لا تتصل بالصالح العام أو بالغيرة على الدين من قريب أو بعيد ، .

أسباب قيام الاستعمار والعدو الصهيوني بثمن هذه المخاطر التي تتعرض لها
الوحدة الوطنية :

جدير بالذكر أن المخطط الذي أعده أعداؤنا لتفتيت الجبهة الداخلية عن طريق بث التفرقة والانقسام بين شعب مصر مستغلا الدين لتحقيق هذا المخطط إنما يرجع في حقيقة الأمر إلى ما يأتي : —

١ — أن العدو قد أصبح يؤرقه صمود هذا الشعب بعد المحنة التي تعرض لها في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأنه يرى أن هذا الصمود يجب أن يتحطم بوسيلة أو بأخرى لأن استمرار هذا الصمود بداية الطريق لتحقيق النصر .

٢ — أن العدو لم يعد أمامه إلا استخدام هذا الأسلوب خاصة وأنه قد استنفد كل حيله في المعركة .. وكل أساليبه في الصراع من أسلحة عسكرية وسياسية واقتصادية .

ولذلك لجأ العدو الصهيوني إلى استخدام أساليب الحرب النفسية علينا لعله أن النصر والمهزيمة يبدآن من داخل أي مجتمع .

وعلى الرغم من أن محاولات أعدائنا للنيل من وحدتنا الوطنية قد باءت بالفشل إلا أن العدوان لم ييأس مادام لم يحقق أيا من أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها . ولعل أهم شيء تتحطم عليه أطماع العدو وأساليب حربته النفسية هو الوعي الكامل بهذه الأساليب . والعمل على كشفها في عقر دارها هذا إلى جانب الصمود والتأكيد على ضرورة الوحدة الوطنية كأساس لدعم الجبهة الداخلية في مواجهة التحديات .

الفصل الثاني

مهام وواجبات الشعب

في دعم الوحدة الوطنية

أهمية الالتزام الكامل بالوحدة الوطنية :

إذا كان مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة يجسم الوحدة الوطنية المقدسة ، ويعبر عن إجماع الجماهير بمختلف قواها العاملة على الحركة الدائمة من أجل تحقيق الآمال والمصالح القومية ، فإن كل ادعاء يشكك في هذا المبدأ - من شأنه في النهاية - أن يضعف الوحدة الوطنية ذاتها ، ويهدد قدرة الشعب على خوض المبارك المرتقبة ، تحريراً لأرضه ، ودفاعاً عن حرية إرادته وتأميناً لتقدمه .

ولذلك فإن من أخص وإجباتنا في هذه المرحلة ، الالتزام الكامل بالوحدة الوطنية . إدراكاً منا أنه بفضل الوحدة الوطنية أمكن تحقيق المنجزات الثورية لشعبنا .. إدراكاً وثقة أنها ليست فقط ضرورة للحفاظ على تلك المنجزات ولتحقيق المزيد منها ، وإنما هي ضمان رئيسي كفلته جماهيرنا في مواثيقها الثورية تحقيقاً للتغيير الاجتماعي ، على أساس حل التناقضات بين قوى الشعب العاملة سلباً بالوسائل الديمقراطية .

إدراكاً أن الحرص عليها لا يعني أنها تهسقياً أو مصطنعاً للمصالح المختلفة لقوى الشعب العاملة ، أو اتخاذها ذريعة لحجب الديمقراطية .. ولكن إدراكاً أنها ضرورة حياة لهذا الشعب ، تجنبه الفرقة ، وتكفل حشد قواه الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو .

إدراكاً لذلك كله .. علينا جميعاً .. ووجدتنا الوطنية قد وجدناها في الماضي ضرورة عقل ومنطق ، أن لستمسك بها اليوم قوية منيعة ، وهي لحاضرنا ومستقبلنا حياة وبقاء .

مهام وواجبات الشعب في دعم الوحدة الوطنية :

علينا جميعاً ونحن نتحرك بعزمات لا نكل محصنة بأمل واسع عربي ، وبعد أن كسرت جماهير شعبنا بحركة التصحيح المجيدة الأغلال والقيود التي أطبقتها مراكز القوى المنذثرة على الطاقات الخلاقة لهذا الشعب العظيم في فكرته وحرية ، علينا ، وقد وعينا درس النكسة عظمت وعبراً ، أن نتحرك في النور يهدي من عقيدتنا بأذلين كل ماوسعته قدرتنا وطاقاتنا لدعم العمل الوطني ولتوحيد الجبهة الداخلية . لجماهير شعبنا وراء قواته المسلحة الباسلة الرابضة على خطوط المواجهة ، المتأهبة لخوض معركة الشرف والمصير . . علينا أن نعمل من أجل مصر . . أمتنا الخالدة خلود الحياة لكي نستحق الحياة ، وحتى نكون ، وإلا لما استحققتنا . أن نكون .

ونجمل فيما يلي مهام وواجبات الشعب في دعم الوحدة الوطنية :

أولاً : الحفاظ الدائم على دولة الشعب . . دولة المؤسسات :

جدير بالذكر أنه بعد أن تم إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب الحر من القاعدة إلى القمة . كذا إقامة المؤسسات الدستورية والنقابية على أساس من الانتخاب الحر بعد تنقية مجتمعنا من مراكز القوى حتى أصبح الشعب بحق هو صاحب السلطة والسيادة والارادة ، صاحب الفضل الأول والأخير ، صاحب المصلحة في الثورة الاشتراكية . دولة المؤسسات الشعبية والدستورية دولة الشعب كله ، الشعب فيها أسرة واحدة دولة لا نورث ولا تورث ، ولا تكون حكراً أو احتكاراً لشخص أو فئة . لا مكان فيها لسلطان الفرد أو طغيانه .

دولة تتخذ من مؤسساتها سياجاً ، ومن سيادة القانون درعاً تصد هزات مركز القوى وتمنع ظهورها ، وقاية للشعب من تسلطها ونخاية له من تجبرها .

إن دولة الشعب دولة المؤسسات ، انفتح لها الطريق ورسم لها الإطار وما أن أزيحت مراكز القوى عن مواقعها حتى صدر دستورها الدائم ، وقوانينه

المعركة . حماية البحريات : الغامضة ، إلغاء لوائح التباعد تجديداً للتجديد بغير
الطريق التاديب ، تنظيم مباشرة الحقوق السياسية ، تدعيم مجلس الشعب وتأكيد
السلطة .

علينا أن نتم البناء بوعي وثقة ، ونعمل في النور ، متخذين من تنظيمنا السياسي
منبراً حراً مفتوحاً ، يعبر بحرية وصدق عن آراء أعضاء قوى التحالف . فيكون
لدولة المؤسسات كيانها الكامل ، ولا تقوم فيها لمراكز القوى قائمة .

ثانياً : تعميق مقومات ومفاهيم مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة :

إن مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة وقد جسده هذا الشعب تنظيمها في الاتحاد
الاشتراكي العربي - استقر بديلاً للنظام الحزبي . تعبيراً عن ظروفه الموضوعية
والتاريخية التي تشهد بتضامن هذه القوى وتلاحمها في سبيل خدمة الأمان القومية ،
دون أن تستأثر إحداها عن الأخرى بشرف تحقيق هذه الأمان .

ولرأنا علينا أن نعمق مقومات ومفاهيم مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة كتعبير
عن الوحدة الوطنية في أذهان الجماهير . حتى يظل تحالفاً حقيقياً وواقعياً بين سائر
القوى العاملة ، وليس تحالفاً شكائياً بين أفراد أو جماعات يتخذون منه وسيلة قمع
أو طريقاً لتحقيق مآرب ومصالح غير مشروعة .

ثالثاً : التوعية باستراتيجية إسرائيل ومخططات الولايات المتحدة الأمريكية

إن مرحلة المواجهة الشاملة بأبعادها واحتمالاتها ، وما تتطلبه من أصحاب المصلحة
الحقيقية - بصفة خاصة - من جهد وتضحية . لمن الأهمية بمكان أن يكون لدينا
تجسماً خط فكري عام باستراتيجية إسرائيل ووضوح الرؤية بمخططات الولايات
المتحدة الأمريكية ، بما يستخدمونه من أسلحة الدعايات الصهيونية المسمومة ضدنا
والطرق التي يوجهون بها الحرب النفسية عن طريق إذاعتهم وصحفهم .

وهذا من الضرورات التي يجب أن تكون يقظين دائماً بشأنها ونحس نخطى
في تحركنا الفعال نحو أهدافنا ، وأن لا نغفص أعيننا على المؤامرات التي تحميكننا
حفظاً للقوى المعادية . وبالذات الحرب النفسية المكثفة التي تشنها الولايات المتحدة

الأمريكية وإسرائيل: للنيل من تماسكتنا ، وخلق البلبلة في نفوسنا وزعزعة الثقة في أنفسنا . وببف عوامل الفرقة والانشقاق بيننا والتشكيك في قدراتنا . فالجبهة الداخلية في مقدمة الأهداف التي يحاول العدو أن يسدد لها الضربات والمكائد طالما الصراع بيننا وبينه قائم . ولهذا أصبحت وحدة الجبهة الداخلية ضرورة إستراتيجية .

والجبهة الداخلية هي درع الأمة في الحرب المحتومة بيننا وبين إسرائيل . وتمزق الجبهة الداخلية هدف أساسي من أهداف إسرائيل وأمريكا ، بل وهدف إستراتيجي لمخطط إسرائيل في حربها معنا . وتمزق الجبهة الداخلية هو انتصار لإسرائيل ، ولأعدوان إسرائيل .

رابعاً : زيادة الانتاج

وإذا كان العدو قد فشل في زعزعة الجبهة العسكرية ، أو في محاولة التأثير عليها . فإن العدو الآن يركز كل ثقله ويكشف نشاطه على جبهتنا الداخلية للنيل من صلابتها . والنيل من تماسكتنا لأنها في الواقع الجبهة الأساسية التي تتلاحم وتخدم جبهة القتال مباشرة وتمتد خطوطها بالعتاد والسلاح والرجال وكافة مستلزمات القتال .

كما أنه يتوقف عليها بناء قاعدتنا الاقتصادية في الداخل وهي سند المعركة ، وخلق مقرمات للصمود الاقتصادي وبناء القوة الذاتية . ومن هنا كانت أهمية وضرورة اتخاذ قرار وضع الجبهة الداخلية في موقف يجعلها قادرة على تحمل كل ما هو مقبل من مخاطر المعركة في العمق .

ومعركتنا مع العدو وانتصارنا عليه لن يكون برفقة السلاح فقط لحماية الجبهة الداخلية ، وزيادة الانتاج في المصانع هو خط الدفاع الأول لتأمين متطلبات المعركة وتأمين متطلبات الجهود الحربية . وكل زيادة في الإنتاج هي عمل على طريق المعركة . وتحسين الإنتاج يتضمن توفير متطلبات القوات المسلحة بالمعركة وتوفير احتياجات الجماهير وحمل مشاكلهم مع حسن وكفاءة أداء الخدمات لها باخلاص وصدق وأمانة . هو إعداد للمعركة والتفويض بالوعي

والمعرفة والعلم يوصلنا إلى الارتقاء بمستوى الإنتاج وكما وكيفية
وكل هذه الأمور والضرورات بحماية للقوى البشرية، وزيادة صلابة المواطن
وقدرته على الصمود، وكلها أعمال ضرورية وحيوية لوضع الجبهة الداخلية على
مستوى المواجهة الشاملة .

خامسنا : التصدي لأساليب الحرب النفسية التي يشنها العدو على جبهتنا الداخلية

جدير بالذكر أن الحرب النفسية التي توجهها ضدنا أمريكا وإسرائيل لا تقل
ضراوتها وشراستها من أخطار الحرب التي نستعد لخوضها . وتوجه الحرب
النفسية بأساليب مختلفة . بهدف نشر سمومها في الجبهة الداخلية . بما يستخدم فيها
ضدنا من أساليب الوقيعة ووسائل الخديعة والتشكيك في القدرات والكفاءات
وعزل القاعدة الشعبية عن القيادة السياسية وخلق جسر من عدم الثقة .

ويتوقف على قدرة كل فرد فينا في العصف بكل محاولات التشكيك واسلحة
الحرب النفسية . نجاحنا في معركة التصدي التي تواجهنا . فالمواطن اليقظ الحذر
الواعي هو درع للجيش على جبهة القتال . وهذا ضمان أكيد للنصر . فالحرب
النفسية موجهة أساسا إلى إرادتنا وإلى أعصابنا ومبادئنا . ويجب أن نكون على
حذر كامل .

والتصدي لأساليب الحرب النفسية واجب وطني . وهذا يتطلب منا الوعي
السكامل واتخاذ كافة الاجراءات لمقاومة دعاية العدو ولتسكن استراتيجيتنا في المرحلة
المقبلة كما حددها الرئيس انور السادات استراتيجية طويلة النفس . إستراتيجية
الصبر والصمت .

فالحرب النفسية ضدنا لن تتوقف وسوف تتخذ أساليب وأشكالا مختلفة
وأهدافا متنوعة . فليكن أبلغ رد على ذلك هو التزام الصمت "سكامل بالنسبة
لتحركنا الذشيط على طريق المعركة ، وما نتخذه من خطوات مقبلة لخدمة تحقيق
أهداف الانتصار . والتذرع بالصبر الواثق من نفسه لزيادة استعداد واستكمال
جميع أسلحتنا ، وبناء قدرتنا على الانتصار حتى تخبئ لحظه تنفيذ قرار
التحرير والنصر .

الوحدة الوطنية وإزالة آثار العدوان :

نظرا لأن المعركة التي نخوضها مع العدو الاسرائيلي ومن يسانده معركة مصير . . ومعركة ملحة لأن العدو في داخل اراضينا فهي تتطلب منا أن نخوضها مؤمنين بحتميتها ، مضحين في سبيلها بكل شيء : بالعرق والدم ، وبالمال والبذخ ، بالوقت والجهد المصنئ . . واثقين من رعاية الله لكل ذى حق مشروع ، غير باغ ولا عاد .

ومعركة المصير تتطلب منا :-

١ - التمسك بالوحدة الوطنية إحراكا أنها ضرورة حياة لهذا الشعب تجنبه الفرقة وتكفل حشد قواه الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو . كما ان الوحدة الوطنية على حد تعبير الرئيس محمد أنور السادات ، تمثل واقعا فعليا في العلاقات القائمة بين الجمعيات الإسلامية والمسيحية ، وهي سمة أصيلة من سمات مجتمعتنا المصري وهي التي استطاعت أن تقضي على الفتن التي كان الاستعمار يثيرها من وقت لآخر أملا في تفنيت وحدتنا ولكن فشل وسيظل يفشل في ذلك كل مرة وسيظل يفشل دائما بفضل تماسكنا ووحدتنا ، (١) .

٢ - التوعية بالمرحلة الراهنة باعتبارها نقطة ارتكاز في الانطلاق الجديدة للعمل السياسي وحتى تكون جماهير شعبنا على وعى كامل لواقع حاضرنا وظروف المرحلة التي نمر بها وخصائصها حتى تجيء حركة نضالنا الوطني - دائما - متفاعلة مع ذلك الواقع ، وهذه الظروف والخصائص ، مهتدية بكل الأبعاد والمتطلبات .

٣ - بذل مزيد من الجهد في العمل والتفاني في الانتاج حرصا على زيادة وتنمية الاقتصاد القومي - مع الالتزام بسلوك المعركة سواء في الانتاج أو في الاستهلاك لتحقيق مبدأ اقتصاديات الحرب .

٤ - الاشتراك في التدريب على أعمال الدفاع الشعبي والدفاع المدني وكذا

١ - من رسالة الرئيس محمد أنور السادات التي وجهها بمناسبة الاحتفال بيوم ٠ له الاجتهادي في ١١/٣٠/١٩٧٣ .

يفرق الاسماق والانتفاذ وفرق الإطعام والامكان، المساهمة في المعركة وتدعيم
جبهة الدفاع الداخلية

٥ - عدم الالتفات إلى الثغرات المعرضة أو الأخطاء المسنومة والقضاء
على المخيلات التشكيك وأساليب العدو في الحرب النفسية .
٦ - التصميم التام على التصدي للعدو وطرده من أراضينا وأجباط خططه
حتى للتوسع أو إعاقة عملية التنمية والانتاج .

٧ - العمل الايجابي في جميع المجالات . وتطهير أنفسنا من اللامبالاة والسلبية
وأن نتعود العمل بروح الفريق وأن تموت في ذواتنا النزعة الفردية .
٨ - تثبيت يقيننا ودعم إيماننا بالله سبحانه وتعالى وبفضائه وقدره
وثقتنا في نصر الله .

الوحدة الوطنية والقومية العربية دعامة التحرير الرئيسية :

وإذا كانت أحداث صيف ١٩٦٧ قد أدت إلى هزيمة عسكرية بدلاً من
النصر الذي كان من المرجو تحقيقه ، فإن الهزيمة لم تؤد كما سبق القول إلى استسلام
الشعوب العربية بل على العكس من ذلك لقد عادت القضية القومية والوطنية
لتصبح هي القضية الأولى التي تواجه الشعوب العربية ، لقد أدت الهزيمة إلى احتلال
الأراضي العربية سواء في ذلك أراضي الدول العربية المتحررة في مصر وسوريا
وأرض الضفة الغربية الأردن واشتدت صلاقة العدو الاسرائيلي واتخذ موقفا صريحا
يعلن فيه ضرورة فرض الصلح على العرب وضرورة قبولهم بوجود إسرائيل
دولة ذات سيطره في المنطقة ، وفي هذه الظروف فإن الواجب الأساسي الملقى
على حركة الثورة العربية هو تحرير الأرض المحتلة وتحقيق السيادة الوطنية
والقومية على أراضي الوطن العربي .

إن تحقيق ذلك يتطلب العمل من أجل :

- (أ) حشد كل القوى العربية الممكنة أولاً لتحقيق صعود الشعب العربي وثانياً
لإتمام الاستعدادات اللازمة لمواجهة العدو وحصره .
- (ب) التركيز على العدو الرئيسي الذي يحتل الأرض العربية وعدم الانخلاق

في أي معارك جانبية سواء في إطار العالم العربي أو خارج هذا الإطار .
(ج) الاستفادة من أي تناقض مهما بلغت بساطته بين مصالح القوى المضادة
للثورة العربية ومحاولة استخدام هذا التناقض لصالح الثورة العربية .
(د) التحالف الوثيق والفعال مع كل القوى المؤيدة لأهداف النضال العربي
مع العمل على توضيح الأهداف العربية لها وتنسيق العمل معها في كل المجالات .
(هـ) العمل على توضيح حقيقة النضال العربي لكل القوى العالمية المضادة
للاستعمار وإعادة كسب الرأي العام العالمي الذي استطاع العدو تضليله .

إن تطبيق هذه المبادئ العامة في العالم العربي كانت تعني :

(أ) السعي إلى تصفية كل النزاعات العربية ومحاولة توجيه كل القوى
العربية لمواجهة العدو الإسرائيلي .

(ب) السعي لالزام كل حكومة عربية بما يمكن أن تلتزم به من عمل لصالح
المواجهة مع إسرائيل . ومن أجل العمل المشترك في كل المجالات ، ويتوقف
النجاح في هذا السعي بطبيعة الحال على مدى قوة حركة الشعب العربي في كل بلد
على حدة ومدى تأثير الحكومات العربية باتجاهات شعوبها .

(ج) تجنب الانزلاق في خلافات عربية جديدة ، حتى لمواجهة هجوم بعض
القوى الرجعية العربية أو رد افتراءاتها باعتبار هذه السياسة هي الكفيلة بكشف
محاولات القوى المضادة لحرف مسار العمل الوطني والقومي وتوجيهه إلى
دروب جانبية .

وفي دعوة الرئيس ممر القذافي إلى قومية المعركة ما يؤكد المشاركة الفعالة
لالزام عدد من بعض الدول العربية بدعم الدول التي تواجه عبء المعركة فعلا
بما أتاحت لها إمكانية الصمود الاقتصادي ومكنتها بالتالي من العمل المستمر لإعادة
بناء القوة العسكرية .

وخلاصة القول أن العمل من أجل مزيد من الجهد العربي المشترك يعني أن
الواجب الأول اليوم هو تحرير الأرض المحتلة وكما قال الرئيس أنور السادات :
« علينا جميعا أن نؤكد الاعضاء جميعا : أن الوطنية المصرية والقومية العربية
وحدهما في الميدان إذا اقتضى الأمر » .

الفصل الثالث

المؤسسات النيابية والجمهورية

وحماية الوحدة الوطنية

إن حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن وواجب المؤسسات الدستورية والسياسية ، وأن هذه الحماية عمل سياسي بالدرجة الأولى .

ولهذا كان دستورنا الجديد أول دستور مصرى ينص صراحة على الوحدة الوطنية وواجب حمايتها (١) ، كما تناول قانون حماية الوحدة الوطنية الذى انعقد مجلس الشعب لمناقشته فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ فى المادة الأولى منه أن حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن ، وعلى جميع مؤسسات الدولة والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وصيانتها .

هذا إلى جانب مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة كتعبير عن الوحدة الوطنية جاءت محددة لدور الاتحاد الاشتراكي العربى ومقررة د أن التنظيم السياسى الذى يمثل بتنظيماته القائمة على أساس مبدأ الديمقراطية ، تحالف قوى الشعب العاملة من الفلاحين والعامل والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية د وهو أداة هذا التحالف فى تعميق قيم الديمقراطية والاشتراكية وفى متابعة العمل الوطنى فى مختلف مجالاته ، ودفع هذا العمل الوطنى إلى أهدافه المرسومة ، ويؤكد الاتحاد الاشتراكي العربى سلطة تحالف قوى الشعب العاملة عن طريق العمل السياسى الذى تباشره تنظيماته وسط الجماهير وفى مختلف الأجهزة التى تعنى بمسئوليات العمل الوطنى .

ونتناول فيما يلى دور القيادة السياسية فى إبراز أهمية الوحدة الوطنية والحفاظ عليها — كذا دور المؤسسات الدستورية والسياسية لصيانتها .

(١) أنظر دستور جمهورية مصر العربى ١٩٧١ .

الزعيم جمال عبد الناصر والوحدة الوطنية :

لم تكن هناك قضية أكثر أهمية لدى عبد الناصر في تاريخه الكفاحي الطويل قدر قضية الوحدة الوطنية . فهي في فكره الأساس الذي يمكن أن يستند إليه نجاح شعبنا في الوصول إلى أهدافه ، وهي وحدها المانع دون تدخل القوى الخارجية واستغلالها لطبيعة فترة الثورة ، فترة المعاناة من أجل القضاء على القديم البالي وخلق الجديد القادر على النمو والتقدم والاستمرار ، ومن هنا كان حرص عبد الناصر الدائم على تحقيق هذه الوحدة ، لإبتداء من يوم إعلان ثورة ١٩٥٢ حتى يوم أن توأرى عنا ، وهو يحاول المحافظة على وحدة الأمة العربية في مواجهة الخطر الدائم الذي يهددها والنزيف الدموي الذي يستنزف قواها .

ولم تكن فكرة الوحدة الوطنية لدى عبد الناصر فكرة مجردة ولا هي قضية منفصلة عن طبيعة المعركة التي يجتازها فالوحدة الوطنية التي كانت دائماً هي وحدة هذه القوى الاجتماعية والفئات والطبقات صاحبة المصلحة في تحقيق الهدف الذي تتجه المعركة في المرحلة المعينة إلى تحقيقه .

ويوضح عبد الناصر هذه الفكرة بما لا يحتمل مجالاً للجدل عند تناوله القضية من هو الشعب ، وما هي القوى التي يجب أن يتم تحقيق الوحدة الوطنية بينها في نخطابه إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر القومي للقوى الشعبية ، مشيراً إلى أن في مرحلة الكفاح ضد الاستعمار - فإن الشعب هو كل من يقف ضد الاستعمار من أجل الاستقلال ومن أجل الحرية والشعب هو كل واحد وقف من أجل تحقيق المبدأ الأول للثورة ، أما في مرحلة البناء الاشتراكي فالشعب يشمل جميع الطبقات التي تساند البناء الاشتراكي وتساهم فيه ، وأثر عدوان إسرائيل واحتلالها لجزء من الأرض العربية تعود مرة أخرى قضية الوحدة الوطنية إلى البروز بين كل القوى التي تقف في وجه العدوان الاستعماري وتعمل على دحره ، ولكن تجميع هذه القوى في المجتمع الاشتراكي يتم كما يوضح بيان ٣٠ مارس بواسطة تحالف قوى الشعب العاملة التي تتولى السلطة وتحتفظ بها وتحافظ على مكانتها ، وتقوى بالديموقراطية وبالطور العلي مجتمعها ،

وتتضح أهمية الوحدة الوطنية من أقواله الزعيم جمال عبد الناصر (١) :
 « إنه يمكن في إطار الوحدة الوطنية أن تتفاعل الطبقات بما يقرب بينها ، وأن
 يقل التناقض بطريقة سليمة لا مصادرة فيها ولا سفك دماء ، وأن يتم الاتجاه إلى
 الاستقرار الوطني القائم على العنود الاجتماعي بوجي من الوعي المدرك لمعنى
 التعاون ومعنى التكافل الاجتماعي ، ومعنى المحبة بين الناس ، وفي داخل هذا
 الإطار يمكن أن تصبح الديمقراطية معنى كما هي شعار ، ويمكن أن تصبح
 الاشتراكية حقيقة كما هي أمل ويمكن أن يصبح التعاون واقعا كما هو هدف .
 كما تتضح السياسة التي يحرص عليها الزعيم جمال عبد الناصر في تدعيم الوحدة
 الوطنية من خطابه الذي ألقاه في مناسبة الاحتفال بإرساء الحجر الأساس
 للسكندرية المرفسية في ٢٢ يوليو ١٩٦٥ إذ يقول :

« وكنا نعتقد دائما أن السبيل الوحيد لتأمين الوحدة الوطنية هو المساواة
 ونكافؤ الفرص . . . لافرق بين مواطن ومواطن في المدارس . . . الدخول
 بالمجموع . . . مفيش تمييز بين مسلم ومسيحي ، اللي بييجيب الثمر بيدخل . . .
 يدخلوا (٣٠) مسيحيين ، (٥٠) مسيحيين مش موضوعنا أبدأ بيدخلوا كلهم
 مسلمين ، بيدخلوا كلهم مسيحيين مش موضوعنا أبدأ . . . التعيينات في الحكومة
 وفي القضاء بالأقدمية ، اللي بييجيب نمرة أحسن بيروح القضاء . . . في كل الوظائف
 تسير على هذا المنوال في الترقى ، جميع الترقيات في الدولة بالأقدمية لغاية الدرجة
 الأولى . . . كل واحد بيأخذ دوره . . . مافيش فرصة حتى للمتعبين إنهم
 يتلاعبوا . . . لكن لا بد أن نجد أماننا مشا كل وعقبات .

.. هذه المشا كل والعقبات في فئة المتعبين ، سواء كانوا مسيحيين أو كانوا
 مسلمين . . . بيخلقوا مشا كل وكنا بنعرف الخناقات اللي بتحصل في بعض القرى . . .
 وليكن الحمد لله هذه الحوادث حوادث قليلة جدا . . . ونرجو ألا ينعكس صدى
 هذه الحوادث القليلة علينا ونأخذها كمثلهام ، إحنا عايننا واجب . . . إذا وجدنا

(١) من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر في جلسة إذاع مؤتمر الأول للاتحاد القومي قد
 الفترة من ٩ - ١٦ يوليو ١٩٦٥

المتعصبين مسلمين وشاذين . . المسيحيون مايشذوش . . وإذا وجدنا المسيحيين
بمتعصبين وشاذين . . فإن المسلمين مايشذوش . . وأنا بأعتبر دى قضية وطنية ،
وقضية بناء المجتمع . . العقلاء يستطيعون أن يحلوا هذه المشا كل الصغيرة اللى
بتظهر كل عدة أشهر فى مكان ناء أو قرية صغيرة أو أى مكان من الأمكنة .
نحن نفخر والحمد لله بأن بلدنا ليست فيها طائفية أو تعصب أو انقسام . اللى
بتكلم عليه حوادث فردية صغيرة ، ولكن زى مانقول : إحنا عايزين السكال ،
وعلشان كده أنا بتكلم عليه بوضوح وبصراحة . عايزين السكال ، وعاوزين
الوحدة الوطنية اللى بنيت بالدم سنة ١٩١٩ وقبل سنة ١٩١٩ . تتدعم وتقوى ،
عاوزين كل واحد فى بلدنا يثق بنفسه ويثق أن البلد بلده ، بلد المسلم وبلد
المسيحى . ١٠٠٪ كل واحد فينا ، وكل واحد منا له الفرصة المتساوية المتكافئة .
الدولة لاتنظر إلى الدين ، والمجتمع لاينظر إلى الدين ، ولا ينظر إلى الأب ،
ولا ينظر إلى الأصل ولكن ينظر إلى العمل وإلى الجهد وإلى الإنتاج وإلى
الأخلاق ، وبهذا نبنى فعلا المجتمع الذى نادى به الأديان السماوية التى نص الميثاق
على احترامها . .

الرئيس محمد أنور السادات والوحدة الوطنية :

عند ما تعرضت الوحدة الوطنية لحملات التشكيك من جانب أعدائنا للوقعية
بين المسلمين والأقباط . أعلن الرئيس محمد أنور السادات أمام اللجنة المركزية
تخصيص الدورة الثانية لانعقاد المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى
فى الفترة من ٢٤ يوليو منذ ١٩٧٢ إلى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٢ لموضوع الوحدة
الوطنية .

ولقد كشف السيد الرئيس محمد أنور السادات فى خطابه للمؤتمر ، حملات
التشكيك التى يقوم بها أعداؤنا بغرض زعزعة الوحدة الوطنية ، كما أكد سيادته
على أهمية الوحدة الوطنية باعتبارها « دعامة التحرير الرئيسية » ، حيث قال :

« الوحدة الوطنية الآن وأكبر من أى وقت مضى تصبح الجبهة الداخلية هى
دعامة التحرر الرئيسية ، لأن الوطنية المصرية سوف تصبح أداة التحرر الرئيسى »

د إن الوطنية المصرية ، والقومية العربية . ونحدهما في الميدان إذا إتقضى الأمر . . . إن ذلك يفرض علينا . منهاجا من نظام العمل . . الوطنية المصرية وصيانتها بالوحدة الوطنية ، (١) .

كما يؤكد سيادته على أن الوحدة الوطنية تزداد عمقا بالحوار ، ولا تضيق به ، وعلينا أن نعترف أن التحول الاشتراكي يزداد رسوخا بالانفتاح على الدنيا ، وليس بالانغلاق على النفس ، وسيادة القانون ، وليس بقيود على الحرية ، (٢) . ومن أجل صيانة الوحدة الوطنية دعا سيادته مجلس الشعب لدورة طارئة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية . كما طلب من مجلس الشعب في ١٣ / ١١ / ١٩٧٢ تشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في بعض المحاولات التي جرت أخيراً لافتعال فتنة طائفية في الخانكة ، بهدف توجيه ضربة إلى الوحدة الوطنية المصرية .

ومن أجل حماية الوحدة الوطنية كذلك عكف سيادته على دراسة تقرير لجنة مجلس الشعب لوضع الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على الوحدة الوطنية ، بحكم المسئولية الدستورية والسياسية ومقتضيات المصلحة الوطنية العليا ، ثم كانت زيارة الرئيس محمد أنور السادات يوم ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٢ إلى الأزهر الشريف والبطريركية القبطية . ثم كان خطابه التاريخي أمام مجلس الشعب في ٢٨ / ١٢ / ١٩٧٢ معلناً ، الثقة الكاملة من حسن وعى وتقدير الجميع للظروف التي تمارس فيها مصالحنا ، وفي الضرورة القصوى والحيوية لوحدة الأمة . . فلا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها . . فقواتنا المسلحة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا كانت هناك — قبل السلاح — جبهة داخلية متماسكة وصلبة تؤمن بهدفها . . وتعرف طريقها لتحقيقه مهما كانت التكاليف . . إن الوحدة الوطنية

(١) من خطاب الرئيس محمد أنور السادات في الدورة الثانية للمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي من ٢٤ - ٢٦ / ٧ / ١٩٧٢ .

(٢) من خطاب الرئيس محمد أنور السادات في المؤتمر القومي العام الثاني الدورة الخاصة فبراير سنة ١٩٧٢ .

هي الدعامة الوحيدة للجبهة الداخلية المتجانسة والصلبة . . . وهنا وبدءاً من الآن أرفع صوتي لأقول بوضوح أنني لن أسكت . . . ولن تسمحوا . . . وان يسمح شعبنا بنغمة طائفية من أي شخص ومن أي مصدر ولاي سبب ؛ ثم إنني أيضاً لن أسكت . . . ولن تسمحوا ، ولن يسمح شعبنا باستقطاب يمزق قوى الوطن . - خصوصاً بين الشباب - بدعاوى اليسار المغامر أو اليمين الرجعي . .

الدستور الدائم والوحدة الوطنية :

جدير بالذكر أن الدستور المصري لم — يعرف منذ أول دستور حديث لمصر صدر عام ١٩٢٣ حتى دستورنا الحالي — كلمتي مسلم وقبطي . ، ولا يعرف إلا كلمة مصري .

ويعتبر الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية ، أول دستور مصري ينص صراحة على الوحدة الوطنية ، وواجب حمايتها ، فجاء في المادة الثالثة منه (١) « أن السيادة للشعب وحده — وهو مصدر السلطات ، ويحمي الشعب هذه السيادة ، ويصون الوحدة الوطنية ، وتسكون ممارسة الشعب للسيادة عن طريق الاستفتاء الشعبي ، وعن طريق ممثلين حل الوجه المبين في الدستور . »

توصيات المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي عن الوحدة الوطنية :

وقد شملت توصيات المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي الفترة من ٢٣ يوليو ١٩٧٢ إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ الوحدة الوطنية وفيما يلي ما جاء بتوصيات المؤتمر في هذا الصدد :

« يرى المؤتمر أنه إذا كانت الوحدة الوطنية فيما مضى من مراحل كفاحنا أمراً ضرورياً ولازماً فإنها خلال هذه المرحلة الجديدة قد صارت ضرورة وجود وحياة والتفريط فيها أو التهاون في تدعيمها مغامرة يهيم العمل الوطني كله . »

(١) انظر دستور جمهورية مصر العربية الدائم الصادر عام ١٩٧١ .

ويؤكد المؤتمر على أن مصر كانت دائماً وطناً للمصريين جميعاً ، أن أرض
هذا الوطن واحدة وأن سماءه واحدة وإن شعبه شعب واحد .

ويؤكد المؤتمر إيمانه بأن تحالف قوى الشعب العاملة هو الصيغة اللائمه
لضمان الوحدة الوطنية ودعمها ومن ثم فإن الاتحاد الاشتراكي بقواعده ومختلف
مستوياته التنظيمية يقع عليه واجب الانفتاح والتفاعل الدائم مع الجماهير ممبراً
عن آمالها وحاجتها ووحدتها .

ويقدر المؤتمر أهمية تحقيق وحدة العمل بين مؤسسات الدولة المختلفة دون
تضارب حتى تتجه الجهود إلى القضايا الكبرى المصرية التي يواجهها هذا الشعب وفي
إطار الالتزام الكامل بالمبادئ الأساسية التي أعلنتها حركة التصحيح في مايو سنة
١٩٧١ من تأكيد الحرية الفرد وتدريب الممارسة الديمقراطية من خلال المؤسسات
وتحقيق سيادة القانون ، فإن المؤتمر مراعاة منه للمرحلة الدقيقة التي يجتازها
فضالنا يوصى كافة الأجهزة الشعبية والتنفيذية والتشريعية أن تبذل كل جهدها
من أجل دعم وصيانة الوحدة الوطنية والحيلولة دون المساس بها كما يضع كل
ما ورد في أعمال هذا المؤتمر حول أهمية تلك الوحدة بأبعادها المختلفة تحت نظر
مجلس الشعب حتى يستخلص منه ما يلزم لحماية وحدة الشعب المصري وتماسك
صفوفه تصدياً لكل من يفرق وحدته أو يبتث الفرقة والانقسام بين أبنائه .

مجلس الشعب وقانون حماية الوحدة الوطنية :

وتلبية لنداء السيد رئيس الجمهورية لدعوة مجلس الشعب لدورة طارئة
لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية - اجتمع المجلس في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢
وبعد مناقشة المشروع من أعضاء المجلس والموافقة عليه - صدر القانون رقم

٣٤ لسنة ١٩٧٢ في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧٢ بشأن حماية الوحدة الوطنية وفيما يلي
نصوص مواد هذا القانون :

المادة الأولى :

حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن ، وعلى جميع مؤسسات الدولة
والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وصيانتها ، ويقصد بالوحدة الوطنية في
تطبيق أحكام هذا القانون الوحدة القائمة على احترام نظام الدولة كما حددها
بالستور على وجه الخصوص :

(ا) تحالف قوى الشعب العاملة .

(ب) تكافؤ الفرص والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات العامة .

(ج) حرية العقيدة وحرية الرأي بما لا يمس حريات الآخرين أو المقومات
الأساسية للجمتمع .

(د) سيادة القانون .

وتقوم الوحدة الوطنية على أساس إعطاء الأولوية دائماً لأهداف النضال
الوطني التحرري وعلى أفضائية المصالح القومية الشاملة على المصالح الخاصة لكل قوة
أو طائفة أو فئة اجتماعية .

المادة الثانية :

الاتحاد الاشتراكي العربي هو التنظيم السياسي الوحيد المعبر عن تحالف قوى
الشعب العاملة ، وهو يكفل أوسع مدى للمنافسة الحرة داخل تشكيلاته ،
والتنظيمات الجماهيرية المرتبطة .

ولا يجوز إنشاء تنظيمات سياسية خارج الاتحاد الاشتراكي العربي أو منظمات
جماهيرية أخرى . خارج المنظمات الجماهيرية التي تشكل طبقاً للقانون .

المادة الثالثة :

يعاقب بالحبس كل من أنشأ أو نظم أو أدار جمعية أو هيئة أو منظمة أو جماعة
على خلاف حكم المادة السابقة .

ويعاقب بالحبس مدة لا تزيد على ستة شهور كل من انضم إلى إحدى هذه الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات أو اشترك فيها . . .

ويعنى من العقوبة كل من بادر بإبلاغ السلطات المختصة عن وجود جمعيات أو هيئات أو منظمات أو جماعات منشأة على خلاف ما تقدم ، إذاتم الإبلاغ قبل التحقيق ، ويجوز للمحكمة الإغفاء من العقوبة إذاتم الإبلاغ بعد بدء التحقيق ويمكن من الكشف عن مرتكبي الجريمة الآخرين .

وتقضى المحكمة في جميع الأحوال عند الحكم بالإدانة بجل الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات المذكورة وإغلاق أمكتها ومصادرة الأموال والأمتعة والأدوات والأوراق الخاصة بها أو المعدة لاستعمالها .

المادة الرابعة :

يعاقب بالحبس كل من عرض الوحدة الوطنية للخطر بأن لجأ إلى العنف أو التهديد أو أية وسيلة أخرى غير مشروعة لمناهضة السياسة العامة المعلنة للدولة أو للتأثير على مؤسساتها السياسية والدستورية في اتخاذ قرار بشأنها .

المادة الخامسة :

ويعاقب بالحبس وبغرامة لا تقل عن خمسين جنياً ولا تتجاوز مائتي جنية كل من أذاع عمداً أخباراً أو بيانات أو إشاعات كاذبة معرضة ، وكان من شأن ذلك الأضرار بالوحدة الوطنية بين قوى تحالف الشعب أو بين طوائفه .

وتسكون العقوبة السجن وغرامة لا تقل عن مائة جنية ، ولا تتجاوز خمسمائة جنية إذا وقعت الجريمة في زمن الحرب .

فإذا اتخذت هذه الإذاعة صورة دعاية مثيرة موجبة للعسكريين في زمن الحرب كانت العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة .

المادة السادسة :

يعاقب بالحبس كل من حرض بإحدى وسائل العلانية المنصوص عليها في المادة ١٧ عقوبات على بعض فئة من فئات قوى التحالف أو طائفة من الناس

أو على الأزدراء بها أو إثارة الفتنة بينها ، إذا كان من شأن هذا التحريض الأضرار بالوحدة الوطنية .

المادة السابعة :

تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة أو السجن إذا ارتكبت الجرائم المبينة بالمواد ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من هذا القانون بناء على تخابر مع دولة أجنبية .
تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة إذا ارتكبت بناء على تخابر مع دولة معادية .

المادة الثامنة :

لا تخل أحكام هذا القانون بأية عقوبة أشد . منصوص عليها في قانون العقوبات أو أى قانون آخر .

المادة التاسعة :

لا ترفع الدعوى الجنائية في الجرائم المنصوص عليها في هذا القانون إلا بناء على طلب كتابي من وزير العدل .
ويجوز للنياابة العامة إحالة الجرائم المنصوص عليها في هذا القانون إلى محاكم أمن الدولة المختصة .

المادة العاشرة ،

ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ نشره في ١٢/٩/١٩٧٢
ويصم هذا القانون بخاتم الدولة ، وينفذ كقانون من قوانينها .

الوحدة الوطنية والهيئات الدينية :

وبمجرد أن تعرضت جمهورية مصر العربية لمخلات التشكيك من جانب الدوائر الاستعمارية والصهيونية ضد الجبهة الداخلية ، حيث ضبطت الرقابة على البريد الوارد من الخارج عددا من الخطابات الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية والمرسلة إلى عدد من الموظفين تهدف إلى إثارة الفرقة بين طوائف الأمة ، وقد سنلت

نسخ من هذه الخطابات التي تتضمن المنشورات إلى كل من فضيلة شيخ الجامع الأزهر وقديسة البابا شنودة فاستكروا ما جاء بها وفيما يلي بيان فضيلة شيخ الجامع الأزهر وقديسة البابا شنودة (١) :

بيان شيخ الأزهر :

وفي ذكرى مرور عشرين عاما على ثورتنا المجيدة ، عشرين عاما مضت على قيام ثورتنا المباركة التي أرست قواعد الحرية والعدالة الاجتماعية ، وكفلت الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن مصري ، وحررت البلاد من الاستعمار ، فأمنت الخائف وبعثت الأمل وأحيت الرجاء ، ويسعدني ويسرني بهذه المناسبة الكريمة أن أهنيء الشعب المصري جميعه بزعامة رئيسه المحبوب من كل قلب ، الممدوح بكل لسان ، رمز حرته وفضله وآماله ، وجامع وحدته محمد أنور السادات المؤمن الرشيد .

وأرجو الله تعالى مخلصا أن يقوى روح الوحدة بين أفراد شعبنا الحر الأصيل في جميع عناصره .

أيها الشعب المصري : أرجو ألا يشغلنا شاغل . عن معركة المصير وأن تنبه إلى ما يريد أعداؤنا من الإيقاع بين عنصرى الأمة ، من إشاعات كاذبة تثير الفرقة بين عنصرىها . والتاريخ يحدثنا أن اشتداد الأزمات يجمع دائما بين المسلمين والمسيحيين ، كما حدث في ثورة ١٩١٩ ومعركة ١٩٥٦ ولم لا ، والسكل يعيش في وطن واحد آمالهم واحدة وآلامهم واحدة وعدوهم واحد ، وصدقهم واحد وكلهم أمام الدولة سواء في الحقنوق والواجبات .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، والله ناصرنا وموفقنا وهو نعم المولى ونعم النصير .

بيان البابا شنودة :

وقد أصدر البابا شنودة البيان التالي :

(١) نشر البيان بجريدة الأخبار يوم ٢٥/٧/١٩٧٢ .

« في العيد العشرين لثورتنا المجيدة يسرني أن أهتسبكم يا مواطني الأحباء لهذا العيد المشرق بين أعياد مصرنا المحبوبة . مصر التي نحب كل ذرة من تراب أرضها . والتي قال عنها الله في التوراة : بارك شعب مصر . مصر التي وطئت أرضها أقدام الأنبياء والقديسين . فعاش فيها يوسف الصديق غالبية حياته ومات في أرضها المباركة كما عاش فيها موسى النبي أكثر من ٤٠ سنة من عمره وزارها أيضاً إبراهيم أبو الأنبياء وزارتها كذلك العذراء مريم تحمل على كتفها السيد المسيح وهو طفل هاربة به من سيف اليهود .

نعم إن مضر المحبوبة هذه التي تخضبت أرضها بدماء شهدائنا . ارتوت من دموع وعرق القديسين ، مصر هذه كلما شعرنا بضغط الأعداء عليها تألف قلوبنا جميعاً حولها متحدين في الدفاع عنها شاعرين أن كل انقسام بهذا الوطن هو خيانة لبلادنا التي تنتظر منا التضافر والتآخي وأن نكون قلباً واحداً وروحاً واحدة وفكراً واحداً نحمي أرضنا وأولادنا وبلادنا وثورتنا وما كسبناه من جهاد طويل .

لذلك بكل فرح واطمئنان وبكل ثقة وتقدير قابلنا الاهتمام الكبير الذي أظهره رئيسنا المحبوب للوحدة الوطنية .

إن الوحدة الوطنية في مصر وبخاصة بين عنصرى الأمة من مسلمين ومسيحيين . هي ضرورة من ضروريات الوطن ونتيجة طبيعية لروح التدين الذي تتصف به مصر . وكل الحركات الوطنية في تاريخنا كانت تقضى على روح التعصب الذي يظهر أحياناً من غير المتدينين ، وهنا ينبغى أن نفرق تفريقاً كبيراً بين التمسك بالدين والتعصب الدينى .

إنه التمسك بالدين فضيلة والغيرة الدينية فضيلة ، ولكن التعصب الدينى شر عظيم : لأنه من الرذائل التي تحاول أن تلبس ثوب الفضيلة ، سينكشف أمرها . ذلك أن التعصب الدينى يخلو من المحبة والمحبة هي عماد الدين وهي الفضيلة الأولى .

ولقد قال الكتاب المقدس «الله محبة» والشخص المتدين حقاً هو الذى يحب جميع الناس مهما اختلفوا عنه ديناً أو مذهباً . والتعصب الدينى يتصف بالهتف والعنف

منفر . أما الرجل المتدين فإنه يعامل الناس جميعا بسماحة ولين ولطف يجعل
الآخرين يحبون دينه الذي يغرس فيه . فضائل المحبة نحوهم .

ولقد عاش الحضريون المسلمين ومسيحيين من ١٣ قرنا من الزمان في وحدة
وطنية بن خلف بينهم طوال تلك القرون . وكل الانقسامات التي كانت تحدث بينهم
أحيانا كانت كالفقايق البسيطة التي ما أن تظهر حتى تختفي ويبقى الخبز
في العمق .

انني سأحاول أن أضرب أمثلة من السماحة الدينية في تاريخ الإسلام وتاريخ
مصر أذكر أولا تلك الحادثة التاريخية التي تروى عن عمر بن الخطاب عندما فتح
المسلمون بيت المقدس ووصل عمر إلى هناك رأى كنيسة للمسيحيين ودعا أسقفها
أن يدخلها ويصلي فتفكر عمر بعقله الكبير واعتذر عن ذلك قائلا للأسقف
في مودة: أخشى إن سجدت في هذه الكنيسة أن يأتي المسلمون ويأخذوها منك
قائلين هنا سجد عمر . وهكذا ضرب هذا الخليفة العادل مثلا من أمثلة السماحة
الدينية يدرسه المسلمون جيلا بعد جيل وتركت تلك الحادثة أثرا عميقا في نفس
الأسقف فأحب عمر .

مثل آخر هو عمرو بن العاص الذي عندما فتح مصر وكانت وقت ذاك تحت
حكم الرومان - استدعى البابا بنيامين الذي اضطلعه الروم وأعاد إليه جميع
الكنائس التي كانوا قد اغتصبوها منه بل أكثر من ذلك منحه عشرة آلاف دينار
ليبنى بها كنيسة في الاسكندرية وأحب عمر والبابا بنيامين وعامل المسيحيين برفق
ذاكرا عبارة خالدة وردت في الحديث تقول (استوصوا بالقبط خيرا) .

ونحن نذكر أيضا أنه خلال العصر الفاطمي كان الخلفاء الفاطميون وبخاصة
في النصف الأول من جيلهم يعينون وزراءهم من بين المسيحيين ثقة منهم بهم
واخلاصا من أولئك وكانت بعض أعياد الأقباط لها صفة وطنية عامة .

وما أكثر الأمثلة في التاريخ عن الصداقات العميقة التي كانت تربط بين ولاة
المسلمين وبطارقة الأقباط . كل ذلك كان ينسج خيوطا ثابتة في الوحدة بين
المسلمين والمسيحيين .

وفي تاريخنا الحديث لا نغسى العبارات الجميلة التي نظمها خطبة الزعيم جمال عبد الناصر الذي ضرب على يد التمهصب عمليا حينما أرمى بيده الكريمة الحجر الاساسى للكتدرائية المرقسية الكبرى وتبرع لبنائها بمبلغ كبير .

والذى يدير عقرب الساعة بضع سنوات خلعت حينما جرفه السيل مدينة قنا نجد أن المطران القبطى فتح أبواب المطرانية لإيواء الكمل مسليين ومسيحيين طوال فترة السيل .

لانى كلما استعرضت تاريخنا أثق أن وحدتنا الوطنية أعبق بكثير من أن تهزها حركات لا شك أن العدو يديرها من الخارج ويفرح ان أنت بشمرة وحاشا لنا أن نتمكن من ذلك .

فلنكن جميعا يدا واحدة تعمل من أجل مصر وقلبا واحدا ينبض بحب مصر ونطلب من أجل قادة بلادنا أن يلهمهم الرب القوة والحكمة ولنطلب أيضا من أجل قواتنا المسلحة أن ينصرها الله من عنده ولكم جميعا خالص محبتنا . المحبة الراسخة القوية التي دعانا إليها الإله الواحد الذى نعبده جميعا .

الوحدة الوطنية والنقابات المهنية :

وعندما جرى أخيرا افتعال فتنة طائفية في مقر جمعية أصدقاء الكتاب المقدس بالخانكة - حيث احترق فيه سقف غرفة في مقر الجمعية بغرض إثارة الأقباط والمسلمين بغية النيل من الوحدة الوطنية . كان اهتمام القيادة السياسية واهتمام المؤسسات الدستورية والسياسية والنقابات المهنية بواد هذه الفتنة في مهدها حتى تسود المحبة بين كل عناصر هذه الأمة وحتى لا تلهينا مثل تلك المحاولات عن الكفاح والنضال .

فلقد طلب السيد الرئيس أنور السادات إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق في ذلك . ولتقصي الحقيقة ولكي تضع أمام الشعب الرأى المحايد الذى على أساسه تتخذ القيادة الوطنية قرارها .

كما استنكر الكتاب والصحفيون المصريون محاولات تنفيذ الوحدة الوطنية المصرية عن طريق إثارة الفتنة الطائفية .

وقدما يلي نفس البيان الذي أذيع من نقابة الصحفيين في هذا الصدد بتاريخ

١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٣ :

١ - إننا نسيكر هذه المحاولات بوصفها تخريباً لا قوى ذعامة قام عليها المجتمع المصري عبر العصور والحضارات الألوهي اتحاد أبناء مصر على اختلاف حياتاتهم في أزمنة الشدة والرخاء وفي أزمنة الحرب والسلام وفي كل زمان كان فيه لمصر كيان . في ظل أسمي مبدأ قدسه المصريون وهو أن الدين لله والوطن للجميع .

٢ - ندين محاولات إثارة الفتنة الطائفية بوصفها من أعمال الخيانة الوطنية ومن وحي تخطيطها لنسف كيان مصر القومي . ولشل قدرات مصر على مواجهة العدو الإسرائيلي والامبريالية العالمية . ولتفكيك الشعب المصري إلى شتيع متخلفة يشغلها التناحر الداخلي عن معركة التحرير الوطني وإظهار المصريين أمام الرأي العام العالمي في صورة الأمة المتخلفة .

٣ - نعلن قلقنا العميق لوجود بعض مظاهر التعصب الديني في الفترة الأخيرة وهي مظاهر ينفها المجتمع كله ونعدها استكبالاً لظاهرة تخريب ثروتنا القومية بسلسلة الحرائق المتوالية التي بدأت بحرائق الأوبرا وقبعر الجوهرة وامتدت إلى بعض المؤسسات والشركات العامة .

ونذكر المواطنين أن حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ قد سبقه حريق كنيسة السويس حين بلغ الكفاح الوطني أقصى مدله ضد الإحتلال البريطاني بقصد إجهاض الحركة الوطنية . كما نذكركم بأن إثارة الفتنة الطائفية كانت دائماً السلاح التقليدي الذي يلجأ إليه الاستعمار لضرب الحركات الوطنية .

وقد كان الأزهر الشريف والكنيسة المصرية طليعة الكفاح الوطني التي اجبعت مخططات الاستعمار لإثارة الفتنة الطائفية أيام مؤتمر أسبوط عام ١٩١١ ومؤتمر القاهرة عام ١٩١٢ وإبان ثورة ١٩١٩ .

٤ - ونحن نؤكد أن رسالة الإسلام والمسيحية رسالتا تسامح ومحبة وسلام وأنهما يدينان التعصب الديني المقيت .

ونحن نناشد الأجهزة الدينية والاجلامية والثقافية والتربوية أن تنلجبه إلى أهمية

الوحدة الوطنية وبالتأكيد على قيم التسامح والمحبة الراسخة في ضمير الشعب المصري -
٥ - ناشد أجهزة السلطة والتنظيم السياسي والهيئات الشعبية والجمهورية-
مزيدا من اليقظة والحزم في مواجهة عملاء الاستعمار والصهيونية الذين يذكوف
نار الفتنة الطائفية لتفتت وحدتنا الطائفية لتخريب معركة المصير . ونهيب برجاله
الدين قبل أي فتنة أخرى أن يبشوا روح التسامح والمحبة في قلوب الجماهير التي تعتمد
عليهم في شئوننا الروحية .

٦ - إن الكتاب والصحفيين لعل ثقة من أن الشعب المصري العظيم الذي
أثبت على امتداد تاريخه المجيد وبقوة حضارته العريقة صلابة تمسكه وسلامة نظراته .
وعن إدراكه للأمور فقلبه إلى مخطط الاستعمار والصهيونية لإثارة الفتنة
الطائفية في مصر .

إن رصاص العدو الاسرائيلي ورصاص المستعمرين لا يفرق بين صدر مسلم
وصدر مسيحي من أبناء مصر وإنما يستهدف قلب مصر كلها .

٧ - إننا نعلن أن قضيتنا الأساسية هي قضية التحرير الوطني وأن كل الجهود
يجب أن توجه لهذه القضية وحدها .

عاشت مصر وحدة حرة قوية : وعاشت الشعب المصري العظيم موحد الفكر
والعقل والضمير .

كما أدان أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة محاولات الاستعمار والصهيونية
في إثارة الفتنة بين عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين وأكدوا في بيانهم إلى الشعب
أن الوحدة الوطنية حقيقة تاريخية يعتز بها شعب مصر ويحرص عليها ، وأن
الاديان كلها تدعو إلى التأخي والتسامح .

وفيما يلي نص البيان الذى أذيع من جامعة القاهرة بهذا الصدد بتاريخ

١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٢ :

اجتمع ممثلوا هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، وهم الحريصون على الوحدة
الوطنية لعنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين ليتدارسوا المحاولات التي يقوم
بها الاستعمار والصهيونية وعملاؤها في هذه الظروف الدقيقة بغية النيل من هذه الوحدة .

وبعد استعراض المحاولات المذمومة رأى أعضاء هيئة التدريس أن يسجلوا

الحياتية التالية:

إن أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة يقرون عن ارتياحهم العميق لأن كل محاولات الدس والوقية التي حدثت لتفتيت الوحدة الوطنية قد باتت بالفشل وتجهت هذه الوحدة الوطنية بفضل يقظة الشعب مسلمين ومسيحيين .
وحرصه على مصلحة الوطن العليا .

— إن الوحدة الوطنية في مصر حقيقة تاريخية يعتز بها شعب مصر العريق ويحرص عليها وإنها صمدت عبر العصور الطويلة على الرغم من المحاولات التي قام بها أعداؤها للنيل منها ، فكانت الصخرة الصلبة التي تحطمت عليها آمال الاستعمار ومؤامراته ، وليست أحداث ثورة ١٩١٩ بعيدة عن الأذهان حينما ضرب الشعب المصري ، المسلمون والمسيحيون ، مثلاً رائداً في الحفاظ على وحدته الوطنية ، وحينما اتخذ شعاره من الهلال والصليب ، لقد عاش الشعب المصري تاريخه الطويل بعنصريه : المسلمين والمسيحيين ، متأخياً متحاباً ، متحداً متماسكاً ، يضع مصلحة الوطن العليا فوق كل اعتبار .

— إن أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة . وهم على وعى بمصدر هذه المحاولات التخريبية ، يدينون كل محاولة داعية إلى الفتنة ويجدون فيها وقوعاً في شرك الاستعمار والصهيونية وخيانة للوطن يجب التيقظ لها ومقابلتها بكل حزم .
— إن الأيام التي يمر بها الوطن أيام دقيقة وحاسمة تجعلنا أحوج ما نكون إلى التماسك والوحدة لمواجهة عدو لا يفرق عدوانه بين مسلم ومسيحي ولا تفرقه قنابله بين مسلم ومسيحي وهو ما يختم علينا ألا يكون هناك فرق في مواجهته بين مسلم ومسيحي .

— إن الأديان السماوية كلها تدعو إلى التأخي والنساج ، إلى التعاون والتماسك ، والذين يستجيبون لدواعي الفرقة والفتنة يخرجون على تعاليمها السمحة ويتنكرون لقيمها .

انقف وقفة الجماعة ولتكن يد الله مع الجماعة وليكن الدين لله والوطن للجميع .

الطلاب ودورهم في تعزيز الوحدة الوطنية :

نظراً لأن الطلاب في مصر هم طليعة جيل الثورة ، الذين يتحملون مسئولية مواصلة مسيرتها ، أيا كانت الصعاب والمشاق التي تعترض طريق اطراد تقدمها . فإن عليهم أن يدركوا أنهم ليسوا قوة مستقلة عن قوى الشعب بل هم أبناء قوى الشعب العاملة ، يجسدون في حركتهم تطلعاتها ووعدها ، وينبغي أن يكونوا حراساً عليها ، ذلك أنه لا بديل اليوم للوحدة الوطنية غير تفريق الصفوف والضياع . وليس من سبيل لدعم هذه الوحدة وتعزيزها إلا بتحقيق المزج الضروري بين معنى الحرية ومعنى النظام ، ذلك أن الانفصال بينهما هو الخطوة الأولى على طريق الفوضى وبالتالي العقم والجمود .

ولذلك فإن الطلاب ووطنيتهم فوق كل الشبهات ، يجب أن ينتبهوا لكل مخطط مدسوس على صفوفهم حتى لا يسجل التاريخ أن فئة من الشباب قد أساءت عن غير قصد لأممتها ، أو أن فئة قليلة منهم قد مارست إرهاباً فكرياً لخدمة مخططات خارجية .

فقضية تحرير الأرض العربية المحتلة على حد تعبير السيد الرئيس محمد أنور السادات : هي التزامنا الأساسي ، وعلينا وفي بسبيلها .. يجب أن تشجع كل الأعمال بل بكل الأنواع .

لا طريق غير استرداد الحق بالقوة . . . إن قواتنا المسلحة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا كانت هناك — قبل السلاح — جبهة داخلية متماسكة وصالبة تؤمن بهدفها . . . وتعرف طريقها لتحقيقه مهما كانت التكاليف .

خاتمة

تمتعت مصر طوال تاريخها الطويل - رغم الوسائل والمحاولات التي استهدفت المسانين بالوحدة الوطنية - بوحدة وطنية كبرى كانت هي روح صمودها من أجل الحق ومنبع إثارته عبر التاريخ .

ولعل ذلك يرجع كما سبق أن رأينا لتمييزها بطابع قومي يتسم بسمات فريدة ، تعطى القدرة على الصمود : من الصبر والمعطاء الكريم والطاعة وحب الجماعة والأسرة والاعتدال والتوازن - طابع تنفرد بسماته عن باقي الشعوب وتقف به قوية في معترك الحياة ، وهي تتأصل حقائق التقدم واسترداد الحق المعتصب .

إن مصدر القوة في مصر اليوم وهي تواجه معركة المصير مع العدو الإسرائيلي وكل عنصر من عناصر قوتها معرض للهجوم . هو الوحدة الوطنية النابعة من طابعها القومي الأصيل . فهي إذا بقيت متماسكة وبقى نسيجها الوطني ومقوماتها ثابتة . استطاعت امتصاص الهزائم وتخطيها واسترداد الحق السليب . وتحقيق الأهداف والآمال التي نطمح إليها .

إن الأمة التي تفقد وحدتها الوطنية تكون قد فقدت كل شيء لأنها تكون قد فقدت الأساس الذي تقوم عليه سائر المقومات القومية من سياسية . واقتصادية . واجتماعية . وفكرية . . . الخ

وليس من المصلحة القومية في مصر . . . ولا في المنطقة العربية كلها أن تتشردم وهي تواجه العدو الصهيوني إلى كيانات مختلفة من مسيحية ومسلمة أو عربية وسنية وشيعية ، أو عربية وكردية . . . إلخ إن هذا يجعل وجود دولة يهودية خالصة أمراً منطقياً .

إن الانسجام الوطني ، مظهر الولاء الوطني ، مصدر القوة - هو مسئولية يراها هذا الشعب المؤمن بوحدته الوطنية .

وإذا كان المتعصبون موجودين ولو كأفراد في كل زمان ومكان . والبسطاء
الذين ينقادون إلى مواقع الاستفزاز ، فإن المسؤولية تقع في ذلك على الذين هم
في مراكز السلطة والمسئولية والصدارة دينيا ، وسياسيا وفكريا
واجتماعيا . أن ينشروا قسطا من الوعي والتسامح وسعة الأفق والاستنكار
لأي تعصب .

وما أجوجنا اليوم لأن تظل وحدتنا الوطنية ذات نسيج قوى متماسك ، كما
كانت عليه عبر التاريخ . . . حتى نستطيع أن نعمل بكل قوائنا على دعم الجبهة الداخلية
والتصدي للحرب النفسية والاعداد الشامل لمعركة المصير .

مراجع ومصادر الكتاب

أولاً :مذكرات :

- ١ - أحمد لطفى السيد : قصة حياتى العدد ١٢١ من كتاب الهلال .
- ٢ - إسماعيل صدق : مذكرات القاهرة دار الهلال ١٩٥٠ .
- ٣ - سعد زغلول : مذكرات منشورة فى جريدة الأخبار ١٩٦٣ .
- ٤ - عبد الرحمن الرافعى : مذكرات القاهرة دار الهلال ١٩٥٢ .
- ٥ - عبد الفتاح عنایت : كفاح الإنجليز .
- ٦ - عمر طوسون : مذكرة بما صدرنا منذ فجر الحركة الوطنية ١٩١٨ - ١٩٢٨ الإسكندرية ١٩٤٢ .
- ٧ - محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الأول ١٩١٢ .
- ٨ - محمود عزمى : الأيام المائة - القاهرة مطبعة النهضة .
- ٩ - محمد أبو الفتح : مع الوفد المصرى - القاهرة ١٩٢٠ .

ثانياً : دراسات :

(١) تراجم

- ١ - عباس محمود العقاد : سعد زغلول .

(ب) دراسات تاريخية :

- ١١ - أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية - الحولية الأولى .
- ١٢ - د د : مذكراتى فى نصف قرن .
- ١٣ - د د : أعمالى بعد مذكراتى .
- ١٤ - عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ .

- ١٥ - عبد العزيز رفاعي : انتصار مصر في رشيد .
 ١٦ - : : العمال والحركة القومية في مصر الحديثة .
 ١٧ - : : الطابع القومي للشخصية المصرية .
 ١٨ - محمد أنيس : دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ .
 ١٩ - محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .

(ج) دراسات سياسية :

- ٢٠ - المعهد العالي للدراسات الاشتراكية : مجموعة محاضرات التنظيمات السياسية والجمهورية ١٩٦٦ .
 ٢١ - هيئة الاستعلامات : برنامج العمل الوطني المقدم من السيد الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومي العام الثاني في دورة انعقاده الأول ٢٣ يوليو ١٩٧١ .
 ٢٢ - هيئة الاستعلامات : خطاب السيد الرئيس أنور السادات في الدورة الثانية للمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي وقرارات المؤتمر في المدة من ٢٣ يوليو ٧٢ - ٢٦ يوليو ١٩٧٢ .
 ٢٣ - اللجنة المركزية - الاتحاد الاشتراكي العربي : مشروع دليل العمل السياسي والفكري والتنظيمي (عشرون عاماً من الثورة - يوليو ١٩٧٢)
 ٢٤ - اللجنة المركزية - الاتحاد الاشتراكي العربي : تقرير الأمانة العامة الذي أقرته اللجنة المركزية بشأن تطوير أسلوب العمل في الاتحاد الاشتراكي يوليو ١٩٧٢ .

(د) دراسات في الحرب النفسية :

- ٢٥ - جولدون دليوبوستان : سيكولوجية الإشاعة : ترجمة صلاح مخيمر ١٩٦٤ .

- ٢٦ - لواء / إمام الرحيم عجاج دور الحسروب النفسية في الحركة
القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٧ - عقيد / جمال السيد أضواء على الحرب النفسية : المكتبة
الثقافية العدد (٢٨٣) ١٩٧٢
- ٢٨ - محمد طلعت عيسى الشائعات وكيف نواجهها القاهرة ١٩٦٤ .
- د : دراسات في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
- ٢٩ - السيد الرئيس / محمد أنور السادات : صفحات بمحوه : سلسلة كتب
لجميع - دار التحرير للطبع
والنشر المطبعة المائية ١٩٥٤
- ٣٠ - قصة الثورة كاملة : سلسلة كتب
قومية - الدار القومية للطباعة
والنشر .
- ٣١ - يا وادي هذا عمك جمال
(مذكرات أنور السادات)
كتب قومية - الدار القومية
للطباعة والنشر ١٩٦٥
- ٣٢ - القاعدة الشعبية : سلسلة كتب
قومية - ١٩٥٩
- ٣٣ - قصة الوحدة العربية - كتاب
الحلال العدد (٨١)

مأثراً : صحف :

- الوقائع المصرية عام ١٩١٤ .
المقطع - والأهرام : ١٩١٩ - ١٩٢٣
الانخبار أغسطس عام ١٩٦٣ . سبتمبر ١٩٦٣ .
الأهرام من ٢٤ يوليو ١٩٧٢ إلى ١٢/٣١/١٩٧٢ .

١١٣

(١٤ - الوحدة الوطنية)

محتويات الكتاب

صفحة

- تقديم الكتاب بقلم السيد المهندس /سيد مرعى الأمين الأول للجنة المركزية ٢
— مقدمة المؤلف ٥

القسم الأول

للأستاذ الدكتور عبد العزيز رفاعى

- الباب الأول : الوحدة الوطنية في مقاومة الغزاة ٩
الفصل الأول : الوحدة الوطنية في مقاومة الهكسوس ١٠
الفصل الثاني : التماسك والصمود في مقاومة الرومان والبطالمة ١٣
الفصل الثالث : الوحدة الوطنية في مقاومة الصليبيين ٢٤
الفصل الرابع : الصمود في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر ٣٠
الفصل الخامس : التماسك في مقاومة الانجليز في رشيد ٣٦
الفصل السادس : الوطنية المصرية وثورة عرابي في مقاومة الانجليز ٦٦
الفصل السابع : الوحدة الوطنية في ثورة الشعب سنة ١٩١٩ ٨٢
الباب الثاني : أصالة الطابع الوطنى في الشخصية المصرية ١٠٨
الفصل الأول : الوحدة الوطنية إحدى سمات الشخصية المصرية ١١٠
الفصل الثاني : الطابع الوطنى المصرى بين طوابع الشعوب ١١٤

القسم الثاني

للأستاذ حسين عبد الواحد الشاعر

- ١٢٠ - الباب الثالث : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والوحدة الوطنية
- ١٣١ الفصل الأول : انطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نهاية مد قومي
- ١٢٤ الفصل الثاني : الوحدة الوطنية وتصفية الاستعمار
- ١٣٥ الفصل الثالث : الوحدة الوطنية في مصر وعدوان ٥ يونيو ١٩٦٧
- ١٣٨ الفصل الرابع : ثورة ٢٣ يوليو ومتطلبات الوحدة الوطنية
- ١٧٣ - الباب الرابع : حماية الوحدة الوطنية المصرية
- ١٧٥ الفصل الأول : الحرب النفسية ودورها في زعزعة الوحدة الوطنية
- ١٨٣ الفصل الثاني : مهام وواجبات الشعب في دعم الوحدة الوطنية
- ١٩١ الفصل الثالث : المؤسسات السياسية والجمهورية وحماية الوحدة الوطنية
- ٢٠٩ - الخاتمة
- ٢١١ - مصادر ومراجع الكتاب .
- ٢١٤ - الفهرست

إيداع رقم ١٧٤٢ / ١٩٧٣

مطبعة
أحمد علي محسن
٢٩ شارع أبيض تيفون ٩٠١١٩٣

الناشر

عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق شروت - القاهرة